# الإيمان

طبعة جديدة محققة

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

الناشر دار عمر بن الخطاب
٢ ش عبد الخالق الطوبي بولكلي
اسكندرية ت: ٩٦٤٢٤١

# الإيمان

# الإيمان

تأليف

شيخ الاسلام ابن تيمية

دار عمر بن الخطاب
للطباعة والنشر والتوزيع
بالاسكندرية

# ترجمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

هو شيخ الاسلام تقي الدين أحمد عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد ابن تيمية النميري الحراني الدمشقي .

وتيمية هي والدة جده الاعلى ( محمد ) . وكانت واعظة راوية ، ونسب هـذا البيت الكريم اليها .

ولد في حران من أمهات مدن الجزيرة بين دجلة والفرات سنة ٦٦١ وقدم به والده الى دمشق مع اسرتهم عند استيلاء التتار على بلادهم . وفي دمشق أخذ العلم عن رجالاتها يوم كانت موئل العلم والدين .

وكان مشهورا بالزهد والورع والعباده مع الشـجاعة والفروسية ، فكان المدافع عن البلاد بسـيفه ، كما كان المدافع عن عقائد الامة بلسانه وقـلمه .

وقد قام بالدفاع عن دمشق عندما غزاها التتار ، وحاربهم عند شقحب — جنوبي دمشق — وكتب الله هزيمة التتار ، وبهـذه المعركة سلمت بلاد الشام وفلسطين ومصر والحجاز .

وطلب من الحكـام متابعة الجهاد لابادة أعداء الأمـة الذين كانو عونا للغـزاة .

فأجج ذلك عليه حقد الحكام وحسد العلماء والاقران ، ودس المنافقين والفجار . فناله الأذى والسجن والنفي والتغريب ، فما لان ولا خضـع .

وكانت كلمته المشهورة :

ما يصنع أعدائي بي ؟ !! أنا جنتي وبستاني في صـدري أني رحت ، فهي معي لا تفارقني .

أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، واخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في سجنه — وما اكثر ما سجن :

المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من اسره هواه .

وقد زادت مؤلفاته على ثلاثمائة مؤلف ، في مختلف العلوم . ومنها ما هو في المجلدات المتعددة(١) .

وكانت وفاته في سجن قلعة دمشق ، ليلة الإثنين لعشرين خلت من ذي القعدة سنة ٧٢٨ عليه رحمة الله .

---

(١) وقد يسر الله لنا طبع عدد منها ، وعندي عدد مما لم يطبع له من الرسائل سوف نباشر بطبعها قريبا ان شاء الله .

وانظر في ترجمته الكتب الآتية :

« حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » العلامة الشيخ محمد بهجت البيطار رحمه الله .

و « ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية » للمؤرخ الأستاذ محمد كرد على رئيس المجلس العلمي العربي بدمشق سابقا .

و « الاعلام العلمية في مناقب ابن تيمية » للشيخ عمر بن على البزاز ، وبتحقيق زهير الشاويش .

و « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري » للدكتور محمد الزين .

و « الرد الوافر على من زعم بأن من سمي ابن تيمية شيخ الاسلام كافر » للعلامة ابن ناصر الدمشقي ، وبتحقيق زهير الشاويش .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات اعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لااله الاالله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

اعلم ان « الايمان » و « الاسلام » يجتمع فيها الدين كله ، وقد كثر كلام الناس فى حقيقة الايمان والاسلام ، ونزاعهم واضطرابهم ، وقد صنفت فى ذلك مجلدات ، والنزاع فى ذلك من حين خرجت الخوارج بين عامة الطوائف .

ونحن نذكر من كلام النبى ﷺ ، مع ما يستفاد من كلام الله تعالى ، فيصل المؤمن الى ذلك من نفس كلام الله ورسوله ، فان هذا هو المقصود ، فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء ، بل نذكر من ذلك — فى ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله — ما يبين ان رد موارد النزاع الى الله والى الرسول خير وأحسن تأويلا ، وأحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة .

فنقول : قد فرق النبى ﷺ فى حديث جبريل عليه السلام ، بين مسمى الاسلام ، ومسمى الايمان ، ومسمى الاحسان ، فقال :

« الاسلام : أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت أن استطعت اليه سبيلا » .

وقال : « الايمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » (١) .

---

(١) أخرجه الشيخان .

والفرق مذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم ، وفي حديث ابي هريرة الذي اتفق البخاري ومسلم عليه ؛ وكلاهما فيه : أن جبريل جاءه في صورة انسان أعرابي فسأله ، وفي حديث عمر : أنه جاءه في صورة اعرابي .

وكذلك فسر الاسلام في حديث ابن عمر المشهور ، قال : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » (١) .

وحديث جبريل يبين إن الاسلام المبني على خمس : هو الاسلام نفسه ، ليس المبني غير المبني عليه ، بل جعل النبي ﷺ ، الدين ثلاث درجات : اعلاها الاحسان ، وأوسطها الايمان ، ويليه الاسلام ، فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسناً ، ولا كل مسلم مؤمنا ، كما سيأتي بيانه — ان شاء الله — في سائر الأحاديث ، كالحديث الذي رواه حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن ابي قلابة ، عن رجل من اهل الشام ، عن ابيه ، عن النبي ﷺ ، قال له : « اسلم تسلم » قال : وما الاسلام ؟ قال : ان تسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأي الاسلام افضل ؟ قال : « الايمان » قال : وما الايمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالبعث بعد الموت » قال : فأي الايمان افضل ؟ قال : « الهجرة » قال : وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » قال : فأي الهجرة أفضل ؟ قال : « الجهاد » قال : وما الجهاد ؟ قال : « ان تجاهد ، أو تقاتل الكفار اذا لقيتهم ، ولا تغلل ، ولا تجبن » ثم قال رسول الله ﷺ : « عملان هما أفضل الأعمال ، الا من عمل بمثلهما ، قالها ثلاثا حجة مبرورة ، او عمرة » (٢) . رواه أحمد ، ومحمد بن نصر المروزي .

---

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) هو في « المسند » ١١٤/٤ من حديث عبد الرزاق عن معمر عن ايوب عن ابي قلابة عن عمرو بن عبسة ، وله شواهد خرجتها في « الصحيحة » ( ٥٥١ ) .

ولهذا يذكر هذه المراتب الأربعة فيقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر السيئات ، والمجاهد من جاهد نفسه لله » (١) . وهذا مروى عن النبى ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو ، وفضالة بن عبيد ، وغيرهما باسناد جيد ، وهو فى « السنن » ، وبعضه فى الصحيحين » .

وقد ثبت عنه من غير وجه انه قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم » . ومعلوم أن من كان مأمونا على الدماء والأموال ، كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ، ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه ، وكذلك فى حديث عبيد بن عمير ، عن عمرو بن عبسة .

وفى حديث عبد الله بن عمير ايضا ، عن أبيه ، عن جده (٢) ، انه قيل لرسول الله ﷺ : ما الاسلام ؟ قال « اطعام الطعام ، وطيب الكلام » قيل : فما الايمان ؟ قال « السماحة والصبر » قيل : فمن أفضل المسلمين اسلاما ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قيل : فمن أفضل المؤمنين ايمانا ؟ قال « أحسنهم خلقا » قيل : فما أفضل الهجرة ؟ قال : من هجر ما حرم الله عليه » قيل : أى الصلاة افضل ؟ قال : « طول القنوت » قيل : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد مقل » قيل : أى الجهاد أفضل؟ قال : ان تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ، ويراق دمك » قيل : أى الساعات افضل ؟ قال : « جوف الليل الغابر » (٣) .

---

(١) رواه أحمد بهذا التمام عن فضالة بسند صحيح .

(٢) يعنى عمه ابن قتادة الليثى ، ولم أجد الحديث فى مسنده ، وسيأتى فى الكتاب ( ص ١٥٥ ) انه يروى تارة عن عبيد بن عمير مرسلا ، وتارة عنه عن عمرو بن عبسة مسندا ، فلعل قوله هنا « عن جده » خطأ من بعض النساخ . أو انه وجه آخر فى الرواية ، لم يتعرض له المؤلف هناك . ويؤيد هذا الطبرانى روى بعض هذا الحديث عن عمير بن قتادة كما فى « المجتمع » ٥٨/١ وسنده ضعيف .

(٣) الحديث بنحوه فى « المسند » ٣٨٥/٤ من حديث شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة وهو مخرج فى المصدر السابق ، وهو فى «المسند» ٤١١/٣ ، ٤١٢ و « سنن النسائى » ٥٨/٥ والدارمى ٥٨/١ عن عبيد بن عمير عن عبد الله ابن حبشى الخثعمى مختصرا .

ومعلوم ان هـذا كله مراتب بعضها فوق بعض ، والا فالمهاجر لابد ان يكون مؤمنا ، وكذلك المجاهد ، ولهذا قال : « الايمان والسماحة والصبر » وقال فى الاسلام : « اطعام الطعام ، وطيب الكلام » ، والأول مستلزم للثانى ، فان من كان خلقه السماحة ، فعل هـذا بخلاف الأول ،فان الانسان قد يفعل ذلك تخلقا ، ولا يكون فى خلقه سماحة وصبر . وكذلك قال :«أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » . وقال : « أفضل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا » ، ومعلوم أن هـذا يتضمن الأول ، فمن كان حسن الخلق فعل ذلك

قيل للحسن البصرى : ما حسن الخلق : قال : بذل الندى ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه ، فكف الأذى جزء من حسن الخلق ، وستأتى الأحاديث الصحيحة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الايمان ، كقوله : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا اله الا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق » (١) ، وقوله لوفد عبد القيس «آمركم بالله وحده ، اتدرون ما الايمان بالله وحده ؟ شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم » .

ومعلوم لم يرد أن هـذه الأعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب ، لما قد أخبر فى غير موضع انه لابد من ايمان القلب ، فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان ، وفى « المسند » عن أنس ، عن النبى ﷺ انه قال : « الاسلام علانية ، والايمان فى القلب »(٢) . وقال ﷺ : « ان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، الا وهى القلب »(٣) . فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا ، بخلاف العكس .

---

(١) اخرجه الشيخان .
(٢) اخرجه الامام أحمد ١٣٤/٣ ، ١٣٥ واسناده ضعيف .
(٣) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير .

وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم الي بعض بهؤلاء الكلمات : من أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن عمل لآخرته ، كفاه الله أمر دنياه رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب « الاخلاص » .

فعلم ان القلب اذا صلح بالايمان ، صلح الجسد بالاسلام ، وهو من الايمان ، يدل على ذلك انه قال فى حديث جبريل : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم »(١) . فجعل الدين هو الاسلام ، والايمان ، والاحسان ، فتبين ان ديننا يجمع الثلاثة ، لكن هو درجات ثلاث : مسلم ثم مؤمن ثم محسن ، كما قال تعالى : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ) [ فاطر : ٣٢ ] والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة ، بخلاف الظالم لنفسه ، وهكذا من اتى بالاسلام الظاهر مع تصديق القلب ، لكن لم يقم بما يجب عليه الايمان الباطن ، فانه معرض المواعيد ، كما سيأتى بيانه ان شاء الله .

واما الاحسان فهو اعم من جهة نفسه ، واخص من جهة أصحابه من الايمان ، الايمان أعم من جهة نفسه ، وأخص من جهة اصحابه من الاسلام ، فالاحسان يدخل فيه الايمان ، والايمان يدخل فيه الاسلام ، والمحسنون أخص من المؤمنون ، والمؤميون أخص من المسلمين ، وهذا كما يقال فى الرساله والنبوة ، فالنبوة داخلة فى الرسالة ، والرسالة اعم من جهة نفسها ، واخص من جهة اهلها ، فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا ، فالانبياء اعم ، والنبوة نفسها جزء من الرسالة ، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة ، فانها لا تتناول الرسالة .

والنبى ﷺ فسر الاسلام والايمان بما أجاب به ، كما يجاب عن المحدود بالحد ، اذا قيل ما كذا ؟ قيل : كذا وكذا ، كما فى الحديث الصحيح ،

---

(١) رواه مسلم .

لمــا قيل : ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخــاك بما يكره »(١) وفى الحــديث الآخر : «الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) . وبطر الحق : جحده ودفعه ، وغمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم . وســنذكر ـ ان شاء الله تعالى ـ سبب تنوع أجوبته ، وانها كلها حق .

ولكن المقصــود ان قوله « بنى الاســلام على خمس » ، كقــوله : الاســلام هو الخمس ، كما ذكر فى حــديث جبريل ، فان الأمر مــركب من أجزاء ، تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الأجزاء ومركبة منهــا ، فالاسلام مبنى على هــذه الأركان ـــ وسنبين ان شاء الله ـــ اختصــاص هــذه الخمس بكونها هى الاسلام ، وعليها بنى الاسلام ، ولم خصت بذلك دون غيرها من الواجبات ؟

وقد فسر الايمان فى حديث وفد عبد القيس بما فسر به الاسلام هنا ، ولكنه لم يذكر فيه الحج ، وهو متفق عليه ، فقال : «آمركم بالايمــان بالله وحده ، هل تدرون الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعــلم ، قال : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضــان ، وان تؤدوا خمس ما غنمتم ، أو خمسا من المغتم » .

وقد روى فى بعض طرقه : « الايمــان بالله ، وشــهادة أن لا اله الا الله » ، لكن الأول اشهر ، وفى رواية أبى سعيد : « آمركم بأربع وأنهــاكم عن الأربع : اعبدو الله ولا تشركوا به شيئا » . وقد فسر ـــ فى حديث شعب الايمان ـــ الايمان بهذا وبغيره ، فقال:«الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شــعبة ، افضــلها قول لا اله الا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الايمان » (٣) .

---

(١) رواه مســـلم .
(٢) رواه مسلم والبخارى فى « الأدب المفرد » وأحمد .
(٣) متفق عليــــه .

وثبت عنه من وجوه متعددة أنه قال : « الحياء شعبة من الايمان » (١).
من حديث ابن عمر ، وابن مسعود ، وعمران بن حصين ، وقال ايضا :
لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » (٢).
وقال : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه « (٣) . وقال :
« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل من يارسول الله ؟
قال : : « الذى لا يأمن جاره بوائقه » (٤) . وقال : « من راى منكم منكرا
فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك
اضعف الايمان » (٥) . وقال : « ما بعث الله من نبى الا كان فى امته قوم
يهتدون بهديه ، ويتسنون بسنته ، ثم انه يخلف من بعدهم خلوف يقولون
ما يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهومؤمن ، ومن
جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك
من الايمان حبة خردل » وهذا من أفراد مسلم .

وكذلك فى أفراد مسلم قوله : « والذى نفسى بيده لا تدخلو الجنة
حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا ادلكم على شىء اذا فعلتموه
تحاببتم ؟ : افشوا السلام بينكم » وقال فى الحديث المتفق عليه من رواية
أبى هريرة ، ورواه البخارى من حديث ابن عباس ، قال النبى ﷺ :
« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو
مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف
يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن » .

فيقال : اسم الايمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الاسلام
ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما ، وتارة يذكر مقرونا ، اما بالاسلام

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .
(٤) البخارى .
(٥) رواه مسلم .

كقوله فى حديث جبريل : « ما الاسلام وما الايمان » ؟ وكقوله تعالى : ( ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ) [ الأحزاب : ٣٥ ] وقوله عز وجل : ( قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ) [ الحجرات : ١٤ ] . وقوله تعالى ( فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) [ الذاريات : ٣٦ ] . وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح ، وذلك فى مواضع من القرآن ، كقوله تعالى : ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) [ البقرة : ٢٧٧ ] . واما مقرونا بالذين أوتوا العلم ، كقوله تعالى : (وقال الذين أوتو العلم والايمان ) [ الروم : ٥٦ ] . وقوله : ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) [ المجادلة : ١١ ] وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم ، فانهم خيارهم ، قال تعالى : ( والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به : كل من عند ربنا ) [ آل عمران : ٧ ] .وقال : ( لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ) [ النساء : ١٦٣ ] .

ويذكر ايضا لفظ المؤمنين مقرونا بالذين هادوا والنصارى والصابئين ، ثم يقول : ( من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) [ البقرة : ٦٢ ] . فالمؤمنون فى ابتداء الخطاب غير الثلاثة ، والايمان الآخر عمهم ، كما عمهم فى قوله : ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، آولئك هم خير البرية ) [ البينه : ٧ ] . وسنبسط هذا ان شاء الله تعالى .

فالمقصود هنا العموم والخصوص بالنسبة الى ما فى الباطن والظاهر من الايمان ، واما العموم بالنسبة الى الملل ، فتلك مسألة أخرى ، فلما ذكر الايمان مع الاسلام ، جعل الاسلام هو الأعمال الظاهرة : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وجعل الايمان ما فى القلب من الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وهكذا فى الحديث الذى رواه أحمد ، عن انس ، عن النبى ، ﷺ ، انه قال « الاسلام علانية ، والايمان فى القلب »(١) .

(١) ضعيف كما تقدم فى ص٩ .

واذا كان ذكر اسم الايمان مجردا ،دخل فيه الاسلام والأعمال الصالحة، كقوله فى حديث الشعب : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا اله الا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق »(١) . وكذلك سائر الأحاديث التى يجعل فيها اعمال البر من الايمان .

ثم ان نفى الايمان عند عدمها ، دل على انها واجبة ، وان ذكر فضل ايمان صاحبها — ولم ينف ايمانه — دل على انها مستحبة ، فان الله ورسوله لا ينفيان اسم مسمى أمر امر الله به ورسوله الا اذا ترك بعض واجباته ، كقوله : «لا صلاة إلا بأم القرآن »(٢) وقوله «لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »(٣) . ونحو ذلك .

فأما اذا كان الفعل مستحبا فى العبادة ، لم ينفها لانتفاء المستحب ، فان هذا لو جاز ، لجاز أن ينفى عن جمهور المؤمنين اسم العبادة والصلاة والزكاة والحج ، لأنه ما من عمل الا وغيره افضل منه ، وليس احد يفعل افعال البر مثل ما فعلها النبى ﷺ ، بل ولا ابو بكر ولا عمر . فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه ، لجاز ان ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين ، وهذا لا يقوله عاقل .

فمن قال : ان المنفى هو الكمال ، فان اراد نفى الكمال الواجب الذى يذم تاركه ، ويتعرض للعقوبة ، فقد صدق ، وأن اراد انه نفى الكمال المستحب ، فهذا لم يقطع قط فى كلام الله ورسوله ، ولا يجوز أن يقع ، فان من فعل الواجب كما وجب عليه ، ولم ينتقص من واجبه شيئا ، ولم يجز أن يقال : ما فعله لا حقيقة ولا مجازا ، فاذا قال للاعرابى المسىء فى صلاته : « ارجع فصل فانك لم تصل » (٤) . وقال لمن صلى خلف الصف — وقد أمره

---

(١) متفق عليه كما تقدم .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه احمد وغيره من طرق وهو حديث صحيح .
(٤) متفق عليه .

بالاعادة : « لا صلاة لفذ خلف الصف »(٢) كان لترك واجب ، وكذلك قوله تعالي : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ] . يبين أن الجهاد واجب ، وترك الارتياب واجب ، والجهاد ــ وان كان فرضا على الكفاية ــ فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداء ، فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه ، والعزم على فعله اذا تعين ، ولهذا قال النبى ﷺ : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة نفاق » رواه مسلم . فأخبر انه من لم يهم به ، كان على شعبة نفاق ، وايضا ، فالجهاد جنس تحته أنواع متعددة ، ولابد أن يجب على المؤمن نوع من انواعه .

وكذلك قوله : انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا على ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون . هذا كله واجب ، فان التوكل على الله واجب من اعظم الواجبات ، كما ان الاخلاص لله واجب ، وحب الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية اعظم مما امر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى :(فاعبده وتوكل عليه) [هود:١٢٣] . وقال تعالى :(الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) [ التغابن : ١٣ ] . وقال تعالى : ( ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) [ آل عمران : ١٦٠ ] . وقال تعالى : ( وقال موسى : ياقوم ان كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ) [ يونس : ٨٤ ] .

وأما قوله : ( الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ) [ الأنفال : ٢ ] . فيقال : من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه ، بحيث اذا كان الانسان مؤمنا ، لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له ، واذا لم يوجد ، دل على أن الايمان الواجب لم يحصل

---

(١) رواه أحمد وغيره من طرق وهو حديث صحيح .

فى القلب ، وهـــذا كقوله تعالى : ( لا تجـــد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورســـوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخـــوانهم او عشـيرتهم ، اولئك كتب فى قلوبهم الايمـــان وايدهم بروح منه ) [ المجـــادلة : ٢٢ ] . فأخبر انك لا تجد مؤمنـــا يواد المحادين لله ورســـوله ، فان نفس الايمان ينافى موادته كما ينفى احد الضدين الآخر ، فاذا وجد الايمان انتفى ضده ، وهو موالاة أعداء الله ، فاذا كان الرجل يوالى اعداء الله بقلبه ، كان ذلك دليلا على ان قلبه ليس فيه الايمان الواجب .

ومثله قوله تعالى فى الآية الأخـــرى : ( ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم أن ســـخط الله عليهم وفى العـــذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء) ولكن كثيرا منهم فاسقون ) [ المـــائدة : ٨٣ — ٨٤ ] فذكر جملة شرطية تقتضى انه اذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف « لو » التى تقتضي مع الشرط انتفـــاء المشروط ، فقال : ( ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ) . فدل على أن الايمـــان المذكور ينفى اتخـــاذهم اولياء ويضـــاده ، ولا يجتمع الايمان واتخـــاذهم اولياء فى القلب ، ودل ذلك على ان اتخـــذهم اولياء ، ما فعل الايمان الواجب من الايمان بالله والنبى ، وما انزل اليه .

ومثله قوله تعالى : ( لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ) [ المائدة : ٥٤ ] فانـــه اخبـــر فى تلـــك الآيـــات أن متوليـــهم لا يكـــون مؤمنـــا ، واخبر هنـــا أن متوليهم هو منهم ، فالقرآن يصدق بعضه بعضا ، قال الله تعالى : ( الله نزل احسن الحـــديث كتابا متشـابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ) [ الزمر : ٢٣ ] . وكذلك قوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورســـوله ، اذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يســـتأذنوه ) [ النور : ٦٢ ] . دليل على أن الذهاب المذكور بدون اســـتئذانه لا يجـــوز ، وانه يجب أن لا يذهب حتى يستأذن ، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب عليه من الايمان ، فلهذا نفى عنه الايمـــان ، فان حرف « انما » يدل على اثبات المذكور ونفى غيره .

ومن الأصوليين من يقول : ان « ان » للاثبات « ومـــا » للنفى ، فاذا جمع بينهما دلت على النفى والاثبات ، وليس كذلك عنـــد أهل العربية ومن يتكلم فى ذلك بعلم ، فان « ما » هـــذه هى الكافة التى تدخل على ان وأخواتها فتكفها عن العمل ، لأنها انما تعمل ، لانها انما تعمل اذا اختصت بالجمـــل الاسمية ، فلما كفت بطل عملها واختصاصها ، فصـــار يليها الجمل الفعلية والاسمية ، فتغير معناها وعملها بانضـــمام « ما » اليها ، وكذلك « كأنما » وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : ( ويقولون آمنا بالله وبالرســـول وأطعنـــا ، ثم يتولى فريق منهم من بعـــد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ، انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ، ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا واطعنـــا ، واولئك هم المفـــلحون ) [ النور : ٤٧ — ٥١ ] . فان قيل : اذا كان المؤمن حقا هو الفاعل للواجبـــات التارك للمحرمات ، فقد قال : ( أولئك هم المؤمنون حقا ) [ الأنفال : ٤٠ ] و لم يذكر الاخمسةاشياء ، وكذلك قال فى الآية الأخرى : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ] . وكذلك قوله : ( ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ) [ النور : ٦٢ ] .

قيل عن هـــذا جوابان :

احـــدهما : أن يكون ما ذكر مســـتلزما لمـــا ترك ، فانه ذكر وجـــل قلوبهم اذا ذكر الله ، وزيادة ايمانهم اذا تليت آياته مع التوكل عليه ، واقام الصلاة على الوجه المـــأمور به باطنا وظاهرا ، وكذلك الانفاق من المـــال والمنافع ، فكان هـــذا مستلزما للباقى ، فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشـــيته والخوف منـــه ، فقد فسروا « وجـــلت » بـــ « فرقت » وفى قراءة ابن مسعود : ( اذا ذكر الله فرقت قلوبهم ) . وهـــذا صحيح ، فان الوجل

فى اللغة هو الخوف ، يقال : حمرة الخجل وصفرة الوجل ، ومنه قوله تعالى : ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون ) [ المؤمنون : ٦١ ] قالت عائشة : يارسول الله ! هو الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال : « لا يابنت الصديق ! وهو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

وقال السدى فى قوله تعالى : ( اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه ، وهذا كقوله تعالى : ( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ) [ النازعات : ٤٠ ــ ٤١ ] وقوله : ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) [ الرحمن : ٤٦ ] قال مجاهد وغيره من المفسرين : هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر مقامه بين يدى الله ، فيتركها خوفا من الله .

واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته ، فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور ، وترك المحظور ، وقال سهل بن عبد الله : ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى،ولاطريق اليه أقرب من الافتقار ، وأصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ( ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ) [ الأعراف : ١٥٣ ] . فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله .

قال مجاهد وابراهيم : هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب . رواه ابن أبى الدنيا ، عن ابن الجعد ، عن شعبة ، عن منصور ، عنهمافىقوله تعالى : ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) . وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى : ( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ) [ البقرة : ٥ ] . وهم المؤمنون المتقون المذكورون فى قوله تعالى : ( آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ) [ البقرة : ١ ــ ٣ ] كما قال فى آية البر : ( أولئك الذين صدقوا أولئك هم المتقون ) [ البقرة : ١٧٧ ] وهؤلاء هم المتبعون للكتاب ، كما فى قوله تعالى : ( فمن اتبع هداى

فلا يضل ولا يشقى ﴾ [ طه : ١٢٣ ] واذا لم يضل فهو متبع مهتد ، واذا لم يشق ، فهو مرحوم ، وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين فان أهل الرحمة ليسوا مغضوبا عليهم ، واهل الهدى ليسوا ضالين . فتبين ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله ، مستحقين لجنته بلا عذاب ، وهؤلاء هم الذين أتوا بالايمان الواجب .

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى : ( انما يخشى الله من عباده العلماء ) [ فاطر : ٢٨ ] . والمعنى انه لا يخشاه الا عالم ، فقد اخبر الله أن كل من خشى الله فهو عالم فى الآية الأخرى : ( أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه،قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ) [ الزمر : ٩ ] والخشية أبدا متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطا ، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمنا ، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله .

وقد روى عن أبى حيان التيمى انه قال : العلماء ثلاثة : فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله ، فالعالم بالله هو الذى يخافه ، والعالم بأمر الله هو الذى يعلم أمره ونهيه ، وفى « الصحيح » عن النبى ﷺ ، انه قال : « والله انى لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده » . واذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة ، لم يكونوا مستحقين للذم ، وذلك لا يكون الا مع فعل الواجبات ، ويدل عليه قوله تعالى : ( فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكنكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ) [ ابراهيم : ١٣ — ١٤ ] . وقوله : ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) . فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف ، وذلك انما يكون لانهم أدوا الواجب ، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ، ولهذا يقال للفاجر : لايخاف الله . ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : ( انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ) [ النساء : ١٧ ] .

قال ابو العالية : سألت أصحاب محمد عن هـذه الآية ، فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقـد تاب من قريب ، وكـذلك قال سـائر المفسرين ، قال مجـاهد : كل عاص فهو جـاهل حين معصيته ، وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم : انما سموا جهالا لمعاصيهم ، لا أنهم غير مميزين .

وقال الزجاج : ليس معنى الآية أنهم يجهلون انه سوء ، لان المسلم لو اتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءا ، وانما يحتمل أمرين :

احدهما : أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه ، والثانى : أنهم اقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة ، وآثروا العاجل على الاجل ، فسموا جهالا لايثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة ، فقد جعل الزجاج الجهل اما عدم العلم بعاقبة الفعل ، واما فساد الاراده ، وقد يقال : همـا متلازمان ، وهـذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية .

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل ، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله ، وانما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله ، اذ لو تم خوفه من الله لم يعص ، ومنه قول ابن مسعود ، رضى الله عنه : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاعتزاز بالله جهلا . وذلك لان تصـور المخـوف يوجب الهرب منه ، وتصور المحبوب يوجب طلبه ، فاذا لم يهرب من هـذا ، ولم يطلب هـذا ، دل على انه لم يتصوره تصورا تاما ، ولكن قد يتصور الخبر عنه ، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه وكذلك اذا لم يكن المتصور محبوبا له ولا مكروها ، فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ، ولا يورثه ذلك هربا ولا طلبا ، وكذلك اذا اخبر بمـا هو محبوب له ومكروه ، ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه ، لكن قلبه مشغول بأمور اخرى عن تصور ما أخبر به ، فهـذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب .

وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ، ويروى مرسلا عن النبى ، ﷺ : « العلم علمان ، فعلم فى القلب ، وعلم على اللسـان ، فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة على عباده »(١) .

---

(١) رواه الخطيب البغدادى فى « تاريخه » بسند ضعيف مرفوعا .

وقد أخرجا فى « الصــــحيحين » عن أبى موسى ، عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجـــة ، طعمها طيب وريحهـــا طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، طعمهـــا طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة . طعمها مر ولا ريح لها » . وهـــذا المنافق يقرأ القرآن أحفظه ويتصور معانيه ، وقد يصدق أنه كلام الله وان الرسول حق ، ولا يكون مؤمنا ، كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفـــون أبناءهم وليســـوا مؤمنين ، وكذلك ابليس وفرعون وغيرهمـــا ، لكن من كان كذلك ، لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة ، فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لامحالة ، ولهـــذا صـــار يقال لمن لم يعمل بعلمه : انه جـــاهل ، كما تقـــــــدم .

وكذلك لفظ العقل ، وان كان هو فى الأصل : مصدر عقل يعقل عقلا ، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم ، فلابد أن يعتبر مع ذلك أنه علم يعمل بموجبه ، فلا يسمى عاقلا الا من عرف الخير فطلبه ، والشر فتركه ، ولهـــذا قال أصحاب النار : ( لو كنا نســـمع أو نعقل ما كنا من أصحاب الســـعير ) [ تبارك : ١٠ ] . وقال عن المنافقين : ( تحســـبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ) [ الحشر : ١٤ ] . ومن فعل ما يعلم أنه يضره . فمثل هـــذا ما له عقل ، فكما ان الخوف من الله يســـتلزم العلم به ، فالعلم به يستلزم خشيته ، وخشيته تستلزم طاعته ، فالخـــائف من الله ممتثل لاوامره مجتنب لنواهيه ، وهـــذا هو الذى قصدنا بيانه أولا ، ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : ( فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ) [ الأعلى : ٩ — ١٢ ] .

فأخبر أن من يخشاه يتذكر ، والتذكر هنا مستلزم لعبادته ، قال الله تعالى : ( هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب ) [ غافر : ١٣ ] . وقال : ( تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ) [ق : ٨] . ولهـــذا قالوا فى قوله ( سيذكر من يخشى ) : سيتعظ بالقرآن من يخشى الله . وفى قوله : ( وما يتذكر الا من ينيب ) انما يتعظ من يرجع الى الطاعة ، وهـــذا

لأن التذكر التام يستلزم العمل بما تذكره ، فان ، تذكر محبوبا طلبه ، وان تذكر مرهوبا منه ، ومنه قوله تعالى : ( سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ) [ يس : ١٠ ] .

وقال سبحانه ( انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ) [ يس : ١١ ] . فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله : ( سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ) [ يس : ١٠ ] . فأثبت لهم الانذار من وجه ، ونفاه عنهم من وجه ، فان الانذار هو الاعلام بالمخوف ، فالانذار مثل التعليم والتخويف ، فمن علمته فتعلم ، فقد تم تعليمه .

وآخر يقول : علمته فلم يتعلم ، وكذلك من خوفته فخاف ، فهذا هو الذى تم تخوفيه ، وأما من خوف فما خاف ، فلم يتم تخويفه ، وكذلك من هديته فاهتدى ، تم هداه ، ومنه قوله تعالى ( هدى للمتقين ) . ومن هديته فلم يهتد ، كما قال : ( وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ) [ فصلت : ١٧ ] . فلم يتم هداه ، كما تقول : قطعته فانقطع ، وقطعته فما انقطع .

فالمؤثر التام يستلزم أثره ، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاما ، والفعل اذا صادف محلا قابلا ، تم ، والا لم يتم ، والعلم بالمحبوب يورث طلبه ، والعلم بالمكروه يورث تركه ، ولهذا يسمى هذا العلم : الداعى ، ويقال : الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور ، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لأراده المعلوم المراد ، وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها ، وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه ، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة ، والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا ، كالممرور الذى يجد العسل مرا ، فانه فسد نفس احساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التى مازجته . وكذلك من فسد باطنه ، قال تعالى : ( وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ) [ الأنعام : ١١٠ — ١١١ ] .

وقال تعالى ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) [ الصف : ٥ ] . وقال : ( وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ) [ النساء : ١٥٥ ] . وقال فى الآية الأخرى : ( وقالوا قلوبنا غـلف بل لعنهم الله بكفرهم ) [ البقرة : ٨٨ ] . والغلف : جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأغلف ، كأنهم جعلوا المـانع خلقة ، أى خلقت القلوب وعليها أغطيـة ، فقال الله تعالى : ( بل لعنهم الله بكفرهم ) و ( طبع الله عليها بكفرهم ) ( فلا يؤمنون الا قليلا ) . وقال تعالى : ( ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قـالوا للذين أتوا العلم : ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهوائهم ) [ محمد : ١٦ ] .

وكذلك ( قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ) [ هود : ٩١ ] قال : ( ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ) [ الانفال : ٢٣ ] . أى لافهم ما سمعوه . ثم قال : ولو أفهمهم مع هـذه الحال التى هم عليها ؛ ( لتولوا وهم معرضون ) فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ، ولو فهموا لم يعملوا ، فنفى عنهم صـحة القوة العلمية ، وصـحة القوة العملية ، وقال : ( أم تحسـب ان اكثـرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا [ الفرقان : ٤٤ ] . وقال : ( ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بـل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ) [ الأعراف : ١٧٩ ] . وقال : ( ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمـى فهـم لا يعقلون ) [ البقرة : ١٧١ ] . وقال عن المنـافقين : ( صـم بكم عمى فهم لا يرجعون ) [ البقرة ] .

ومن النـاس من يقول : لمـا لم ينتفعـوا بالسمع والبصر والنطق ، جعلوا صما بكما عميا ، أو لمـا اعرضوا عن السمع والبصر والنطق ، صاروا كالصم العمى البكم ، وليس كذلك ، بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت ، كما قال الله تعالى : ( فانها لا تعمى الابصـار ولكن تعمى القـلوب التى فى الصدور ) [ الحج : ٤٦ ] والقلب هو الملك ، والأعضاء جنوده ، واذا صلح صلح سائر الجسد ، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم ، والمعنى

لا يفقهه ، وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما ، فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب ، وبغض المكروه ، فمتى لم يحصل هذا ، لم يكن التصور التام حاصلا فجاز نفيه لأن ما لم يتم ينفى ، كقوله للذى اساء فى صلاته : « صل فانك لم تصل » فنفى الايمان حيث نفى من هذا الباب .

وقد جمع الله بين وصفهم بوجل القلب اذا ذكر ، وبزيادة الايمان اذا سمعوا آياته ، قال الضحاك : زادتهم يقينا ، وقال الربيع بن انس : خشية ، وعن ابن عباس تصديقا ، وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين فى مواضع ، قال تعالى : ( ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ) [ الحديد : ١٦ ] .

والخشوع يتضمن معنيين : احدهما : التواضع والذل ، والثانى : السكون والطمأنينة ، وذلك مستلزم للين القلب المنافى للقسوة ، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته ايضا ، ولهذا كان الخشوع فى الصلاة يتضمن هذا ، وهذا التواضع والسكون ، وعن ابن عباس فى قوله : ( الذين هم فى صلاتهم خاشعون ) [ المؤمنون : ٢ ] قال : مخبتون أذلاء ، وعن الحسن وقتادة : خائفون ، وعن مقاتل : متواضعون ، وعن على : الخشوع فى القلب ، وأن تلين للمرء المسلم كنفك ، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا(١) . وقال مجاهد : غض البصر وخفض الجناح ، وكان الرجل من العلماء اذا قام الى الصلاة يهاب الرحمن ان يشرد بصره ، أو ان يحدث نفسه بشىء من أمر الدنيا .

وعن عمرو بن دينار : ليس الخشوع الكوع والسجود ، ولكنه السكون وحب حسن الهيئة فى الصلاة ، وعن ابن سيرين وغيره : كان النبى ﷺ ،

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : كلام على رضى الله عنه ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المندر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه .

وأصحابه يرفعون أبصارهم فى الصلاة الى السماء ، وينظرون يمينا وشمالا حتى نزلت هذه : ( قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ) [ المؤمنون : ١ — ٢ ] . فجعلوا بعد ذلك أبصارهم حيث يسجدون ، وما رؤى أحد منهم بعد ذلك ينظر الا الى الأرض (١) . وعن عطاء : هو أن لا تعبث بشىء من جسدك وأنت فى الصلاة ، وأبصر النبى ﷺ ، رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » (٢) . ولفظ الخشوع — ان شاء الله — يبسط فى موضوع آخر .

وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب ، اذا لم يَّن الرجل مرئيا يظهر ما ليس فى قلبه كما روى: « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » (٣) وهو أن يرى الجسد خاشعا والقلب خاليا لاهيا ، فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله : ( ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ) . فدعاهم الى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه ، نهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وهؤلاء هم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا .

وكذلك قال فى الآية الأخرى : ( الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها

---

(١) حديث صحيح ، وقد رؤى موصولا عند الحاكم وغيره . وعلى هامش النسخة الهندية : ان اثر ابن سيرين هذا رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) حديث رواه جدا ، وقد تكلمت عليه فى الأحاديث الضعيفة ( رقم ١١٠ ) وايراد المؤلف رحمه الله لهذا الحديث مجزوما به مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم من أسوأ ما وقع له ، ولو كان هذا من غيره لما استغربناه فانه امام حافظ نقاد ، ولكن لكل جواد كبوة بل كبوات وعلته أن فيه سليمان بن عمرو ، قال ابن عدى : اجمعوا على أن يضع الحديث . وسيعيده المؤلف موقوفا على الصحابة ، ولا أصل له أيضا ، انما روى عن سعيد بن المسيب كما يأتى .

(٣) وعلى هامش النسخة الهندية : هذا الحديث رواه الحكيم الترمذى والبيقهى فى « شعب الايمان » عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشــــون ربهم ؛ ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ) [ الزمر : ٢٣ ] . والذين يخشون ربهم ، هم الذين اذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم .

« تعوذوا بالله من خشوع النفاق . قالوا : يارسول الله ! وما خشوع النفاق ؟ قال : خشوع البدن ونفاق القـــلب » . وروى احمد فى « الزهــــد » وابو بكر بن أبى شيبة معناه عن أبى الدرداء موقوفا عليه .

فان قيل : فخشــــوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب ، قيل : نعم لكن الناس فيه قســـمين : مقتصــــد وسابق ، فالســـابقون يختصـــون بالمستحبات ، والمقصدون الأبرار هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة ، ومن لم يكن من هؤلاء ، ولا هؤلاء ، فهو ظالم لنفسه ، وفى الحديث الصـــحيح عن النبى ﷺ : « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشــــع ، ونفس لا تشبع،ودعاء لا يسمع » .

وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشــــوع فى غير موضـــــع ، فقال تعالى : ( ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجـــارة أو اشد قســـوة ) [ البقرة : ٧٤ ] . قال الزجاج : قســـت فى اللغة العربية : غلظت ويبست وعست ، فقسوة القلب ، ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه ، والقـــاسى والعاسى : الشديد الصلابة ، وقال ابن قتيبة : قست وعســـت وعتت ؛ أى يبست ، وقوة القلب المحمودة غير قســـوته المذمومة ، فانه ينبغى أن يكون قويا من غير عنف ، ولينا من غير ضــــعف ، وفى الأثر : القـــلوب آنية الله فى ارضه ، فأحبها الى الله أصلبها وأرقها وأصـــفاها وهــذا كاليد فانها قوية لينة ، بخلاف ما يقسو من العقب فانه يابس لا لين فيه ، وان كان فيه قوة ، وهو سبحانه ذكروجل القلب من ذكره ، ثم ذكر زيادة الايمان عند تلاوة كتابه علما وعملا .

ثم لابد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه ، ومن طاعته فيما يقـــدر عليه ، واصل ذلك الصلاة والزكاة ، فمن قام بهـــذه الخمس كما أمر ، لزم

أن يأتى بسائر الواجبات ، بل الصلاة نفسها اذا فعلها كما أمر ، فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما روى عن ابن مسعود ، وابن عباس : أن فى الصلاة منهى ومزجرا عن معاصى الله ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، ولم يزدد بصلاته من الله الا بعدا »(١) . وقوله : « لم يزدد الا بعدا » ، اذا كان ما ترك من الواجب منها اعظم مما فعله ، أبعده ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل ، وهذا كما فى « الصحيح » عن النبى ﷺ انه قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان ، قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا » . وقد قال تعالى : ( ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ) [ النساء : ١٤٢ ] . وفى السنن عن عمار ، عن النبى ﷺ انه قال : « ان العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها الا نصفها ، الا ثلثها ، حتى قال : الا عشرها »(٢) . وعن ابن عباس قال : ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها . وهذا وان لم يؤمر باعادة الصلاة عند أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتى من التطوعات بما يجبر نقص فرضه ، ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن ، وأعمالها الظاهرة ، وكان يخشى الله الخشية التى أمره بها ، ولا يأتى كبيرة ، ومن اتى الكبائر مثل الزنا ، أو السرقة ، أو شرب الخمر وغير ذلك ، فلابد أن يذهب ما فى قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور ، وان بقى أصل التصديق فى قلبه ، وهذا من الايمان الذى ينزع منه عند فعل الكبيرة ، كما قال النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . فان المتقين كما وصفهم الله بقوله : ( ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من

---

(١) ذكره المصنف رحمه الله موقوفا ، فأحسن ، وقد اشتهر مرفوعا ، ولا يصح ، وظاهر معناه باطل ، والتأويل الذى ذكره المؤلف بعيد ، كما بينته فى الأحاديث الضعيفة رقم (٢) .

(٢) حديث حسن .

الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ) [ الأعراف : ٢٠١ ] فاذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان تذكروا ، فيبصرون .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل يغضب الغضبة ، فيذكر الله ، فيكظم الغيظ ، وقال(١) نيت عن مجاهد : هو الرجل يهم بالذنب ، فيذكر الله فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، فاذا ابصر رجع . ثم قال : ( واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ) [ الأعراف : ٢٠٢ ] . اى : واخوان الشياطين فى الغى ، ثم لا يقصرون قال ابن عباس : لا الانس تقصر عن السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم ، فاذا لم يبصر قلبه فى غى ، والشيطان يمده فى غيه ، وان كان التصديق فى قلبه لم يكذب ، فذلك النور والابصار ، وتلك الخشية والخوف ، يخرج من قلبه ، وهذا ، كما ان الانسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا ، وان لم يكن اعمى ، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق ، وان لم يكن اعمى كعمى الكافر .

وهكذا جاء فى الآثار : قال أحمد بن حنبل فى كتاب « الايمان » : حدثنا يحيى : عن أشعث ، عن الحسن(١) ، عن النبى ﷺ قال : « ينزع منه الايمان ، فان تاب أعيد اليه » . وقال : حدثنا يحيى ، عن عوف قال : قال الحسن : يجانبه الايمان مادام كذلك ، فان راجع راجعه الايمان . وقال احمد : حدثنا معاوية عن أبى اسحاق ، عن الأوزاعى ، قال : وقد قلت للزهرى — حين ذكر هذا الحديث : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن — مابهم يقولون : فان لم يكن مؤمنا فما هو ؟ قال : فأنكر ذلك ، وكره مسألتى عنه . وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان عن ابراهيم بن مهاجر عن ابن عباس انه قال لغلمانه : من أراد منكم الباءة زوجناه ، لا يزنى منكم زان الا نزع الله منه نور الايمان ، فان شاء ان يرده رده ، وان شاء ان يمنعه منعه . وقال ابو داود السجستانى : حدثنا عبد الوهاب

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : ابن عيينة عن .
(١) هو البصرى ، فالحديث مرسل .

بن نجدة ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن ربيعة الحضرمى : أنه أخبره عن أبى هريرة أنه كان يقول : « انما الايمان كثوب أحدكم يلبسه مرة ويقلعه اخرى . وكذلك رواه باسناده عن عمر ، وروى عن الحسن عن النبى ﷺ مرسلا ، وفى حديث عن أبى هريرة مرفوع الى النبى ﷺ : « اذا زنى الزانى خرج منه الايمان فكان كالظلة ، فاذا انقلع رجع اليه الايمان » (١) . وهذا ان شاء الله يبسط فى موضع آخر .

## فصل

وقد جاءت أحاديث تنازع الناس فى صحتها ، مثل قوله : « لا صلاة الا بوضوء ولا وضوء لمن يذكر اسم الله عليه » (٢) . فأما الأول : فهو كقوله : « لا صلاة الا بطهور » وهذا متفق عليه بين المسلمين ، فان الطهور واجب فى الصلاة ، فانما نفى الصلاة لانتفاء واجب فيها ، واما ذكر اسم الله تعالى على الوضوء ، ففى وجوبه نزاع معروف ، وأكثر العلماء لا يوجبونه ، وهو مذهب مالك ، وابى حنيفة ، والشافعى وهو احدى الروايتين عن أحمد ، اختارها الخرقى وأبو محمد وغيرهما . والثانى : يجب وهو قول طائفة من أهل العلم ، وهو الرواية الأخرى عن احمد ، اختارها أبو بكر عبد العزيز ، والقاضى ابو يعلى واصحابه ، وكذلك قوله : « لا صلاة لجار المسجد الا فى المسجد » رواه الدارقطنى ، فمن الناس من يضعه مرفوعا ويقول : هو من كلام على رضى الله عنه ، ومنهم من يثبته كعبد الحق (٣) وكذلك قوله : « لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل » (٤) . قد رواه أهل السنن ، وقيل : ان رفعه لم يصح ، انما يصح موقوفا على ابن عمر أو حفصة ، فليس لأحد يثبت لفظا عن الرسول مع أنه أريد به نفى الكمال المستحب ، فان صحت

---

(١) حديث ثابت .

(٢) قلت : وهو صحيح لطرقه الكثيرة ، وقد سقت بعضها فى « ارواء الغليل » .

(٣) والصواب انه حديث ضعيف كما بينته فى المصدر السابق .

(٤) صح موقوفا ومرفوعا ، والرفع زيادة لا تنافى الوقت .

هـذه الألفـاظ دلت قطعا على وجـوب هـذه الأمور ، فـان لم تصـح ، فلا ينقض بها أصل مستقر من الكتاب والسنة ، وليس لأحـد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه ، ان لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله ، والا فأقول العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله ﷺ ، ليس قول الله ورسوله تابعا لأقوالهم .

فاذا كان فى وجوب شىء نزاع بين العلماء ، ولفظ الشارع قد اطرد فى معنى ، لم يجز أن ينقض الأصل المعروف من كلام الله ورسـوله بقول فيه نزاع بين العلمـاء ، ولكن من الناس من لا يعرف مـذاهب أهل العلم ، وقد نشأ على قول لا يعرف غيره ، فيظنه اجماعا كمن يظن أنه اذا ترك الانسـان الجماعة وصلى وحده برئت ذمته اجماعا ، وليس الأمـر كذلك ، بل للعلماء قولان معروفان فى اجزاء هذه الصلاة ، وفى مذهب أحمد فيها قولان ، فطائفة من قدماء أصـحابه حكاه عنهم القـاضى أبو يعلى فى شرح المـذهب ، ومن متأخريهم كابن عقيل وغيره يقولون:من صلى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك ،فهو كمن صلى الظهر يوم الجمعة،فان أمكنه أن يؤديها فى جماعة بعد ذلك فعليه ذلك ، والا باء باثمه كما يبوء تارك الجمعه باثمـه ، والتوبـة معروضة ، وهـذا قول غير واحد من أهل العـلم ، وأكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هـذا .

وقد احتجوا بما ثبت عنه ﷺ ، انه قال : « من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر ، فلا صلاة له »(١) . وأجابوا عن حديث التفضـيل(٢) بانه فى المعذور الذى تباح له الصلاة وحده ؛ كما ثبت عنه أنه قال : « صلاة الرجل قاعدا على النصف من صلاة القائم ، وصلاة المضطجع على النصف من صلاة

---

(١) رواه أبو داود والحـاكم وأحمد عن ابن عبـاس وغيره مرفوعا ، وبعض أسانيده صحيحة .

(٢) فى الأصل الفضيل وهو خطأ ويشـير بذلك الى حـديث أبى هريرة « صلاة الجماعة تفضـل صـلاة الفذ بخمس ( وفى رواية بسبع ) وعشرين درجة » متفق عليه .

القاعد » والمراد به : المعذور ، كما فى الحديث أنه خرج وقد اصابهم وعك وهم يصلون قعودا(١) ، فقال ذلك ، ولم يجوز أحد من السلف صلاة التطوع مضطجعا من غير عذر ، ولا يعرف ان أحدا من السلف فعل ذلك ، وجوازه وجه فى مذهب الشافعى ، واحمد ، ولا يعرف لصاحبه سلف صدق ، مع أن هذه المسألة مما تعم بها البلوى ، فلو كان يجوز لكل مسلم أن يصلى التطوع على جنبه ، وهو صحيح لا مرض به ، كما يجوز أن يصلى التطوع قاعدا وعلى الراحلة ، لكان هذا مما قد بينه الرسول ﷺ لأمته ، وكان الصحابة تعلم ذلك ، ثم مع قوة الداعى الى الخير لابد ان يفعل ذلك بعضهم ، فلما لم يفعله احد منهم ، دل على انه لم يكن مشروعا عندهم ، وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا أنه ينبغى للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله ، بل ليس لأحد أن يحمل كلام احد من الناس الا على على ما عرف انه أراده ، لاعلى ما يحتمله ذلك اللفظ فى كلام كل أحد ، فان كثيرا من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله ، يسلك مسلك من يجعل التأويل كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ ، وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص ، وهذا خطأ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الايمان به ، فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، وليس الاعتناء بمواده فى أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس ، فاذا كان النص الذى وافقه يعتقد انه اتبع فيه مراد الرسول ، فكذلك النص الآخر الذى تأوله ، فيكون اصل مقصوده معرفة ما اراده الرسول بكلامه ، وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناها وأما من يجعلهما بمعنى واحد ، كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين فالتأويل عندهم هو التفسير ، وأما التأويل فى كلام الله ورسوله ، فله معنى ثالث غير معناه فى اصطلاح المفسرين ، وغير معناه فى اصطلاح متأخرى الفقهاء والأصوليين كما بسط فى موضعه .

والمقصود هنا ان كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان ، والاسلام ، والدين ، والصلاة ، والصيام ، والطهارة، والحج وغير ذلك ، فانما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ، ومن هذا

---

(١) حديث صحيح .

قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ) [ النساء : ٦٤ ] فلما نفى الايمان حتى توجد هذه الغاية ، دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ،فمن تركها كان من أهل الوعيد ، لم يكن قد أتى بالايمان الواجب الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب ، فان الله انما وعد بذلك من فعل ما أمر به .

واما فعل بعض الواجبات وترك بعضها ، فهو معرض للوعيد ، ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول فى كل ما شجر بين الناس فى أمر دينهم ودنياهم فى أصول دينهم وفروعه،وعليهم كلهم اذا حكم بشىء يجدوا فى انفسهم حرجا مما حكم ويسلموا تسليما ، قال تعالى ( الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . واذا قيل لهم : تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ) [ النساء : ٥٩ ، ٦٠ ] .

وقوله : ( الى ما أنزل الله ) وقد انزل الله الكتاب والحكمة وهى السنة ، قال تعالى : ( واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ) [ البقرة : ٢٣١ ] . وقال تعالى : ( وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ) [ النساء : ١١٢ ] . والدعاء الى ما أنزل يستلزم الدعاء الى الرسول ، والدعاء الى الرسول يستلزم الدعاء الى ما أنزله الله ، وهذا مثل طاعة الله والرسول ، فانهما متلازمان ، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن اطاع الله فقد أطاع الرسول .

وكذلك قوله تعالى : ( ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ) [ النساء : ١١٤ ] ، فانهما متلازمان ، فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى .

فان كان انه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطىء ، فهو بمنزله من ظن أنه متبع لرسول وهو مخطىء .

وهــذه الآية تدل على ان اجمــاع المؤمنين حجــة من جهة مخــالفتهم مستلزمه لمخالفة الرسول ، وان كل ما أجمعوا عليه ، فلابد أن يكون فيه نص عن الرسول ، فكل مسالة يقطع فيها بالاجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين ، فانها مما بين الله فيه الهدى ، ومخالف مثل هــذا الاجمــاع يكفر ، كما يكفر مخالف النص المبين . واما اذا كان يظن الاجماع ولا يقطع به ، فهنا قد لايقطع ايضا بانهاما تبين فيه الهدى من جهة الرسول ، ومخالف مثل هذا الاجماع قد يكفر ، بل قد يكون ظن الاجماع خطأ والصــواب فى خلاف هــذا القول ، وهــذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الاجماع وما لا يكفر .

والاجماع هل هو قطعى الدلالة أو ظنى الدلالة ؟ فان من الناس من يطلق الاثبات بهــذا أو هــذا ، ومنهم من يطلق النفى لهــذا ولهــذا ، والصواب التفصيل بين مايقطع به من الاجماع،ويعلم يقينا انه ليس فيه منازع من المؤمنين اصــلا ، فهــذا يجب القطع بانه حق ، وهــذا لابد أن يكون ممــا بين فيه الرسول الهدى ، كما قد بسط هــذا فى موضع آخر .

ومن جهة أنه اذا وصف الواجب بصفات متلازمة،دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها ، وهــذا مثل الصراط المستقيم الذى أمرنا الله بسؤال هدايته ، فانه قد وصف بأنه الاسلام ، ووصف بانه اتباع القرآن ، ووصف بانه طاعة الله ورسوله ، ووصف بانه طريق العبــودية ، ومعلوم أن كل اسم من هــذه الأسماء يجب اتباع مسماه ، ومسـمـاها كلها واحد وان تنوعت صفاته ، فأى صــفة ظهرت وجب اتبــاع مدلولها ، فانه مدلول الأخرى ، وكذلك أسماء الله تعالى ، وأسماء كتابه ، وأسماء رسوله ، هى مثل أسماء دينه .

وكذلك قوله تعــالى : ( واعتصــموا بحبل الله جميعــا ولا تفرقوا ) [ آل عمران : ١٠٣ ] : قيل : حبل الله هو دين الاسلام ، وقيل : القرآن ،

وقيل : عهده ، وقيل : طـــاعته وأمره ، وقيل جمـــاعة المسلمين وكل هـــذا حـــق .

وكذلك اذا قلنا : الكتاب والسنة والاجماع ، فمدلول الثلاثة واحد ، فان كل ما فى الكتاب فالرسول موافق له ، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة ، فليس فى المؤمنين الا من يوجب اتباع الكتاب ، وكذلك كل ما سنه الرسول ﷺ فالقرآن يأمر باتباعه فيه،والمؤمنون مجمعون على ذلك وكذلك كل ما اجمع عليه المسلمون،فانه لايكون الاحقا موافقا لما فى الكتاب والسنة،لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول ، واما الرسول فينزل عليه وحى القرآن ، ووحى آخر هو الحكمة ، كما قال ﷺ « الا انى أوتيت الكتاب ومثله معه »(١) .

وقال حسان بن عطية : كان جبريل ينزل على النبى ﷺ بالسنة فيعلمه اياها كما يعلمه القرآن(٢) ، فليس كل ما جـــاءت به الســـنة يجب أن يكون مفسرا فى القرآن ، بخلاف ما يقوله اهل الاجمـــاع ، فانه لابد أن يدل عليـــه الكتاب والسنة ، فان الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله فى امره ونهيه ، وتحليله وتحريمه ، والمقصود ذكر الايمان .

ومن هـــذا الباب قول النبى ﷺ : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » (٢) وقوله : « آيه الايمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصـــار »(٣) فان من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورســـوله من أول الأمر ، وكان محبا لله ولرسوله ، احبهم قطعـــا ، فيكون حبه لهم علامة الايمان الذى فى قلبه ، ومن أبغضهم لم يكن فى قلبه الايمـــان الذى أوجبه الله عليـــه .

وكذلك من لم يكن فى قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذى حرمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان ، لم يكن فى قلبه الايمـــان

---

(١) حديث صحيح رواه احمد والطحاوى وغيرهما .
(٢) رواه الدارمى بسند صحيح عن حسان بن عطية ، فهو مرسل .
(٣) رواه مســـلم .

الذى أوجبه الله عليه، فان لم يكن مبغضا لشىء من المحرمات أصلا، لم يكن معه ايمان أصلا ، كما سنبينه ان شـــاء الله تعالى . وكذلك من لا يحب لأخيـــه المؤمن ما يحب لنفسـه ، لم يكن معه ما أوجبه الله عليه من الايمـــان ، فحيث نفى الله الايمان عن شـخص ، فلا يكون الا لنقص ما يجب عليه من الايمان ، ويكون من المعرضين للوعيد ، ليس من المستحقين للوعد المطلق .

وكذلك قوله ﷺ : « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » (١) كله من هذا الباب ، لا يقوله الا لمن ترك ما أوجب الله عليه ، أو فعل ما حرمه الله ورسوله ، فيكون قد ترك من الايمان المفروض عليه ما ينفى عنه الاسـم لأجله ، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد ، السالمين من الوعيـــــد .

وكذلك قوله تعالى : ( ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض ام ارتابوا أم يخـــافون أن يحيف الله عليهم ورســـوله ، بل أولئك هم الظالمون . انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : ســـمعنا وأطعنا وأولئك هم المفـــلحون ) [ النور : ٤٧ — ٥١ ] . فهـــذا حكم اسم الايمان اذا اطلق فى كلام الله ورسوله ، فانه يتناول فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان ، فلابد أن يكون قد ترك واجبا أو فعل محرما ، فلا يدخل فى الاسم الذى يستحق أهله الوعد دون الوعيد ، بل يكون من أهل الوعيد .

وكذلك قوله تعالى : ( حبب اليكم الايمـــان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ) [ الحجرات : ٧ ] .

قال محمد بن نصر المروزى : لمـــا كانت المعاصى بعضها كفر ، وبعضها

(١) رواه مســـــلم .

ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة انواع : نوع منها كفر ، ونوع منها فسوق وليس بكفر ، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق ، وأخبر أنه كرهها كلها الى المؤمنين ، ولما كانت الطاعات كلها داخلة فى الايمان ، وليس فيها شيء خارجا عنه لم يفرق بينها فيقول : حبب اليكم الايمان والفرائض وسائر الطاعات ، بل اجمل ذلك فقال : ( حبب اليكم الايمان ) فدخل فى ذلك جميع الطاعات ، لأنه قد حبب الى المؤمنين الصلاة والزكاة ، وسائر الطاعات حب تدين ، لأن الله أخبر : أنه حبب ذلك اليهم ، وزينه فى قلوبهم ، لقوله . ( حبب اليكم الايمان ) . ويكرهون جميع المعاصى ، الكفر منها والفسوق ، وسائر المعاصى كراهة تدين ، لأن الله أخبر انه كره ذلك اليهم . ومن ذلك قول رسول الله ﷺ . « من سرته حسنته ، وساءته سيئته ، فهو مؤمن »(١) ، لأن الله حبب المؤمنين الحسنات وكره اليهم السيئات .

قلت : وتكريهه جميع المعاصى اليهم ، يستلزم حب جميع الطاعات ، لأن ترك الطاعات معصية ، ولأنه لا يترك المعاصى كلها ان لم يتلبس بضدها ، فيكون محبا لضدها وهو الطاعة ، اذ القلب لابد له من ارادة ، فاذا كان يكره الشر كله ، فلابدان يريد الخير ، والمباح بالنية الحسنة يكون خيرا ، وبالنية السيئة يكون شرا . ولا يكون فعل اختيارى الا بارادة ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أحب الأسماء الى : الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدق الأسماء : حارث وهمام ، وأقبحها : حرب ومرة » .

وقوله : « أصدق الأسماء حارث وهمام » لان كل انسان همام والحارث ، الكاسب العامل ، والهمام الكثير الهم — وهو مبدأ الارادة — وهو حيوان ، وكل حيوان حساس متحرك بالارادة ، فاذا فعل شيئا من المباحات ، فلا بد له من غاية ينتهى اليها قصده ، وكل مقصود اما أن يقصد لنفسه ، واما أن يقصد لغيره ، فان كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له . وهو الهه الذى يعبده لا يعبد شيئا سواه ، وهو أحب اليه من كل ما سواه . فان ارادته تنتهى الى ارادته وجه الله ، فيثاب على مباحاته التى يقصد

---

(١) رواه الحاكم وغيره وهو حديث صحيح .

الاستعانة بها على الطاعة كما فى « الصـــحيحين » عن النبى ﷺ أنه قال : « نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة » وفى « الصـــحيحين » عنه انه قال لسعد بن ابى وقاص لمـــا مرض بمكة وعاده : « انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعة ؛ حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك » . وقال معاذ بن جبل لأبى موسى : انى احتسب نومتى كما احتسب قومتى وفى الأثر : نوم العالم تسبيح(١) .

وان كان أصل مقصودة عبادة غير الله ، لم تكن الطيبـــات مباحة له ، فان الله اباحها للمؤمنين من عباده ، بل الكفار واهل الجرائم والذنوب واهل الشهوات ، يحاسبون يوم القيامة على النعم التى تنعمـــوا بها فلم يذكروه ولم يعبدوه بها ، ويقال لهم : ( أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واســـتمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تســـتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون ) [ الأحقـــاب : ٢٠ ] وقال تعالى : ( ثم لتســـألن يومئذ عن النعيم ) [ التكاثر : (٨) ] . أى عن شكره ، وللكافر لم يشكر على النعيم الذى أنعم اللهعليه به فيعاقبه على ذلك ، والله انما اباحها للمؤمنين ، وامرهم معها بالشكر ، كما قال تعالى : ( ياايها الذين آمنوا كلـــوا من طيبـــــات ما رزقناكم واشكروا لله ) [ البقرة : ١٧٢ ] .

وفى « صحيح مســـلم » عن النبى ﷺ انه قال : « ان الله ليرضى عن العبد ان ياكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمـــده عليها » . وفى « سنن ابن ماجة » وغيره : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »(٢) .

وكذلك قال للرسل : ( ياايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ) [ المؤمنون : ٥٢ ] . وقال تعالى : ( احـــلت لكم بهيمة الأنعـــام الا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وانتم حرم ) [ المـــائدة : ٢ ] وقال الخليل : ( وارزق اهله من الثمراتمنآمن منهم بالله واليوم الآخر ) [ البقرة : ١٢٦ ] . قال الله تعالى : ( ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصـــير )

---

(١) وروى مرفوعا بلفظ « نوم الصائم » وهو ضعيف .
(٢) وهو حديث صحيح .

[ البقرة : ١٢٦ ] ، فالخليل انما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة ، والله انما أباح بهيمة الأنعام لمن حرم ما حرمه الله من الصـيد وهو محرم ، والمؤمنون امرهم ان يأكلوا من الطيبات ويشكروه ، ولهـذا ميز سبحانه وتعـالى بين خطاب الناس مطلقا ، وخطاب المؤمنين فقال : ( ياايها النـاس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشـيطان انه لكم عـدو مبين ، انما يأمركم بالسوء والفحشـاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون ، واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا او لوكان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ) [ البقرة : ١٦٨ ــ ١٧٠ ] . فانما أذن للنـاس ان يأكلوا مما فى الأرض بشرطين : أن يكون طيبا ، وأن يكون حلالا ، ثم قال : ( ياايها الذين آمنوا اكلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . انما حرم عليكم الميتـة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله ) [ البقرة : ١٧٢ــ١٧٣ ] :فاذن للمؤمنين فى الأكل من الطيبات ولم يشترط الحل ، وأخبر انه لم يحرم عليهم الا ماذكره ، فما سواه لم يكن محرما على المؤمنين ومع هذا فلم يكن أحـله بخطـابه ، بل كان عفوا ، كما فى الحـديث عن سـلمان موقوفا ومرفوعا : « الحلال ما أحله الله فى كتابه ، والحرام ما حرمه الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » .

وفى حـديث أبى ثعلبـة عن النبى ﷺ « ان اللـه فـرض فـرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها »(١) .

وكذلك قوله تعـالى : ( قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طـاعم يطعمه الا أن يكون ميتة ) [ الأنعام : ١٤٥ ] . نفى التحريم عن غير المذكور ، فيكون الباقى مسكوتا عن تحريمه عفوا ، والتحليل انما يكون بخطاب ، ولهذا قال فى سورة المـائدة التى انزلت بعد هـذا : ( يسـألونك ماذا احل لهم ؟ قل : أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين ) [ المـائدة : ٤ ] . الى قوله : ( اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ) [ المـائدة : ٥ ] . ففى ذلك اليوم أحل لهم الطيبـات ، وقبل هـذا لم يكن محرما عليهم الا ما استثناه .

وقد حرم النبى ﷺ ، كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، ولم يكن هذا نسخا للكتاب ، لأن الكتاب لم يحل ذلك ، ولكن سكت عن تحريمه ، فكان تحريمه ابتداء شرع ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث المروى من طرق من حديث ابى رافع ، وابى ثعلبة ، وأبى هريرة ، وغيرهم : « لا ألفين أحدكم متكئا على اريكته ، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به ، أو نهيت عنه ، فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال احللناه ، وما وجدنا فيه من حرا حرمناه ، الا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه ». وفى لفظ : « الا وأنا مثل القرآن او اكثر ، الا وانى حرمت كل ذى ناب من السباع » . فبين أنه انزل عليه وحى آخر وهو الحكمة غير الكتاب ، وأن الله حرم عليه فى هذا الوحى ما أخبر بتحريمه ولم يكن ذلك نسخا للكتاب ، فان الكتاب لم يحل هذه قط ، انما أحل الطيبات ، وهذه ليست من الطيبات ، وقال : ( يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ) [ البقرة : ١٧٢ ] . فلم تدخل هذه الآية فى العموم ، لكنه لم يكن حرمها ، فكانت معفوا عن تحريمها ، لا مأذونا فى آكلها . وأما الكفار ، فلم يأذن الله لهم فى اكل شىء ، ولا احل لهم شيئا ، ولا عفا لهم عن شىء يأكلونه ، بل قال : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ) [ البقرة : ١٦٨ ] . فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالا وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله ، والله لم يأذن فى الأكل الا للمؤمن به ، فلم يأذن لهم فى أكل شىء الا اذا آمنوا . ولهذا لم تكن اموالهم مملوكة لهم ملكا شرعيا ، لأن الملك الشرعى هو القدرة على التصرف الذى اباحه الشارع ﷺ والشارع لم يبح لهم تصرفا فى الأموال ، الا بشرط الايمان ، فكانت اموالهم على الاباحة ، فاذا قهر طائفة منهم طائفة فهوا يستحلونه فى دينهم ، واخذوها منهم ، صار هؤلاء فيها كما كان أولئك ، والمسلمون اذا استولوا عليها ، فغنموها ، ملكوها شرعا ، لأن الله أباح لهم الغنائم ، ولم يبحها لغيرهم ، ويجوز لهم أن يعاملوا الكفار فيما أخذه بعضهم من بعض بالقهر الذى يستحلونه فى دينهم . ويجوز أن يشترى من بعضهم ما سباه من غيرهم ، لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات ، ولهذا سمى الله ما عاد من أموالهم الى المسلمين فيئا ، لأن الله أفاءه اى مستحقه ، أى : رده الى المؤمنين به الذين يعبدونه ، ويستعينون برزوقه على عبادته ،فانه انما

خلق الخلق ليعبدوه ، وانما خلق الرزق لهم يستعينوا به على عبادته ، ولفظ الفيء قد يتناول الغنيمة ، كقول النبى ﷺ فى غنائم حنين : « ليس لى مما أفاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم ». لكنه لما قال تعالى :(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ) [ الحشر : ٦ ] . صار لفظ الفيء اذا أطلق فى عرف الفقهاء ، فهو ما أخذ من مال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب ، والايجاف نوع من التحريك .

وأما اذا فعل المؤمن ما ابيح له قاصدا للعدول عن الحرام الى الحلال لحاجته اليه ، فانه يثاب على ذلك كما قال النبى ﷺ : « وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يارسول الله يأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرايتم لو وضعها فى حرام كان عليه فيها وزر ؟ فكذلك ان وضعها فى الحلال، كان له أجر »(١) . وهذا كقوله فى حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « ان الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » رواه أحمد ، وابن خزيمة فى « صحيحة » وغيرهما(٢) ، فأخبر ان الله يحب اتيان رخصه ، كما يكره فعل معصيته ، وبعض الفقهاء يرويه : « كما يحب أن تؤتى عزائمه ». وليس هذا لفظ الحديث (٣) ، وذلك لأن الرخص انما اباحها الله لحاجة العباد اليها ، والمؤمنون يستعينون بها على عبادته ، فهو يحب الأخذ بها ، لان الكريم يحب قبول احسانه وفضله كما قال فى حديث : « القصر صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » (٤) . ولأنه بها تتم عبادته وطاعته . وما لايحتاج اليه الانسان من قول وعمل ، بل يفعله عبثا ، فهذا عليه لا له ، كما فى الحديث : « كل كلام ابن آدم عليه لا له الا أمرا بمعروف ، او نهيا عن منكر أو ذكرا لله (٥) .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) واسناده صحيح .
(٣) بل هو لفظ ثابت فى الحديث ، أخرجه البزار ، والطبرانى وابن حبان .
(٤) رواه مسلم فى « صحيحه » .
(٥) حديث حسن .

وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ ، أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » . فأمر المؤمن بأحد أمرين : اما قول الخير او الصمات ، ولهذا كان قول الخير خيرا من السكوت عنه ، والسكوت عن الشر خيرا من قوله ، ولهذا قال الله تعالى : ( ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ) [ ق : ١٨ ] .

وقد اختلف أهل التفسير : هل يكتب جميع اقواله ؟ فقال مجاهد وغيره : يكتبان كل شىء حتى انينه فى مرضه ، وقال عكرمة : لا يكتبان الا ما يؤجر عليه أو يوزر . والقرآن يدل على انهما يكتبان الجميع ، فانه قال : ( ما يلفظ من قول ) نكرة فى الشرط مؤكدة بحرف « من » ، فهذا يعم كل قوله ، وأيضا فكونه يؤجر على قول معين أن يوزر يحتاج الى أن يعرف الكاتب ما أمر به وما نهى عنه ، فلا بد فى اثبات معرفة الكاتب به الى نقل ، وأيضا فهو مأمور، اما بقول الخير ، واما بالصمات . فاذا عدل عما أمر به من الصمات الى فضول القول الذى ليس بخير ، كان هذا عليه ، فانه يكون مكروها ، والمكروه ينقصه ، ولهذا قال النبى ﷺ : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه »(١) . فاذا خاض فيما لا يعنيه ، نقص من حسن اسلامه ، فكان هذا عليه ، اذليس من شرط ما هو عليه أن يكون مستحقا لعذاب جهنم وغضب الله ، بل نقص قدره ودرجته عليه، ولهذا قال تعالى: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) [ البقرة : ٢٨٦ ] . فما يعمل احد الا عليه أو له ، فما كان مما أمر به ، كان له ، والا كان عليه ، ولو انه ينقص قدره . والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط ، لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ، ما لم يتكلموا به ، أو يعملوا به،فاذا عملوا به دخل فى الأمر والنهى.فاذا كان الله قد كره الى المؤمنين جميع المعاصى وهو قد حبب اليهم الايمان الذى يقتضى جميع الطاعات ، اذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس ، فان المرجئة لا تنازع فى أن الايمان الذى فى القلب يدعو الى فعل الطاعة ويقتضى ذلك ، والطاعة من ثمراته ونتائجه ، لكنها تنازع : هل يستلزم الطاعة ؟ فانه وان كان يدعو الى الطاعة ، فله معارض

(١) حديث صحيح .

من النفس والشيطان : فاذا كان تد تزه الى المؤمنين المعارض ، كان المقتضى للطاعة سالمـا عن هـذا المعارض .

وايضا فاذا كرهوا جميع السيئات ، فلم يبق الا حسنات أو مباحات ، والمباحات لم تبح الا لأهل الايمان الذين يسـتعينون بها على الطـاعات ، والا فالله لم يبح قط لأحـد شـيئا ان يستعين به على كفر ، ولا فسـوق ، ولا عصـيان ، ولهـذا لعن النبى ﷺ عاصر الخمر ومعتصرها ، كمـا لعن شاربها . والعاصر يعصر عنبا يصير عصيرا يمكن أن ينتفع به فى المباح ، لكن لمـا علم أن قصـد العاصر ان يجعلها خمرا ، ولم يكن له أن يعينه بمـا جنسه مباح على معصية الله ، بل لعنه النبى ﷺ على ذلك ، لأن الله لم يبح اعانة العاصى على معصيته ، ولا أباح له ما يستعين به فى المعصية ، فلا تكون مباحات لهم الا اذا استعانوا بها على الطاعات . فيلزم من انتفاء السـيئات انهم لا يفعلون الا الحسنات ، ولهذا كان من ترك المعـاصى كلها ، فلابد أن يشتغل بطاعة الله . وفى الحديث الصحيح : « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » (١) . فالمؤمن لابد ان يحب الحسنات ، ولابد أن يبغض السيئات ، ولابد أن يسره فعل الحسنة ، ويسوؤه فعل السيئة ، ومتى قدر أن فى بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الايمان .

والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها ، أو يأتى بحسنات تمحوها ، أو يبتلى ببلاء يكفرها عنـه (٢) ولكن لابد أن يكون كارها لها ، فان الله أخبر انه حبب الى المؤمنين الايمان وكره اليهم الكفر والفسوق والعصـيان ، فمن لم يكره الثلاثة لم يكن منهم ، ولكن محمد بن نصر يقول : الفاسق يكرههـا تدينا . فيقـال : ان أريد بذلك أنه يعتقد أن دينه حرمها ، وهو يحب دينه ،

---

(١) رواه مسلم فى حديث أوله « الطهور شطر الايمان ... » .
(٢) وعلى هامش النسـخة الزندية : هـذه بعض الأشـياء المكفرة لذنوب وهى تبـلغ فوق العشرة ، وقد ذكرها المؤلف فى كتـاب « الايمـان الصغير » ، وذكرها شارح « الطحاوية » .

وهـذه من جملته ، فهو يكرهها ؛ وان كان يحب دينه مجملا ، وليس فى قلبه كراهة لها ، كان قد عدم من الايمان بقدر ذلك ، كما فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » (١) .

وفى الحديث الآخر الذى فى الصحيح أيضا « صحيح مسلم » : «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه ، فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » .

فعلم أن القلب اذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله ، لم يكن فيه من الايمان الذى يستحق به الثواب . وقوله : « من الايمان » أى : من هذا الايمان ، وهو الايمان المطلق ، أى : ليس وراء هذه الثلاث ماهو من الايمان، ولا قدر حبة خردل ، والمعنى : هذا آخر حدود الايمان ، مابقى بعد هذا من الايمان شىء ، ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الايمان شىء ، بل لفظ الحديث انما يدل على المعنى الأول .

## فصل

ومن هذا الباب لفظ الكفر والنفاق ، فالكفر اذا ذكر مفردا فى وعيد الآخرة ، دخل فيه المنافقون ، كقوله : ( ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ) [ المائدة : ٥ ] . وقوله : ( ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا ) [النساء:١٣٥] . وقوله : ( لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى ) [ الليل : ١٥ — ١٦ ] . وقوله: ( كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء ، ان أنتم الا فى ضلال كبير ) [ الملك : ٨ — ٩ ] . وقوله : ( وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى « ولكن حقت كلمة العذاب

---

(١) رواه مسلم .

على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ) [ الزمر : ٧١ — ٧٢ ] . وقوله : ( ومن أظلم ممن افترى على الله كذبــاً أو كذب بالحق لما جاءه ، أليس فى جهنم مثوى للكافرين ) [ العنكبوت : ٦٨ ] . وقوله : ( ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ) [ طه : ١٢٤ — ١٢٧ ] . وقوله : ( ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شــر البرية ) [ البينــة : ٦ ] . وأمثال هذه النصوص كثير فى القــرآن .

فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شىء ، كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر ، بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، كما اخبر الله بذلك فى كتابه ، ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ، ففى أول البقرة ذكر أربع آيات فى صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين ، فقال تعالى : ( ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً ) [ النساء : ١٤٠ ] وقال : ( يــــوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ) الى قوله : ( فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأويكم النار هى مولاكم وبئس المصير ) [ الحديــد : ١٣ — ١٥ ] . وقال : ( ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ) فى سورتــــين [ التوبه : ٧٣ ، التحريم : ٩ ] وقال : ( ألم تر الى الذين نافقوا يقولــون لاخوانهم الذين كفروا ) [ الحشر : ١١ ] .

وكذلك لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط ، وقد يقرن بالملــل الخمس ، كما فى قوله تعالى : ( ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئــين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شىء شهيد ) [ الحج : ١٧ ] . والاول كقوله : ( لم يكــن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ) [البينة : ١ ] ،

وقوله : (ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، اولئك هم شر البرية ) [ البينة : ٦ ] . وقوله تعالى : ( وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين السلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ ) [ آل عمران : ٢٠ ] . وليس أحد بعد مبعث محمد ﷺ الا من الذين اتوا الكتاب او الأميين ، وكل أمة لم تكن من الذين أوتوا الكتاب ، فهم من الأميين ، كالأميين من العرب والخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم من الأمم الذين لا كتاب لهم فهؤلاء كلهم أميون ، والرسول مبعوث اليهم كما بعث الى الأميين من العرب .

وقوله : ( وقل للذين أوتوا الكتاب ) [ آل عمران : ٢٠ ] — وهو انما يخاطب الموجودين فى زمانه بعد النسخ والتبديل — ، يدل على أن من دان بدين اليهود والنصارى ، فهو من الذين اتوا الكتاب ، لا يختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل ، ولا فرق بين أولادهم وأولاد غيرهم ، فان أولادهم اذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن أوتوا الكتاب ، فكذلك غيرهم اذا كانوا كلهم كفارا ، وقد جعلهم الذين أوتوا الكتاب بقوله : ( وقل للذين اوتوا الكتاب ) [آل عمران : ٢٠ ] . وهو لا يخاطب بذلك الا من بلغته رسالته ، لا من مات ، فدل ذلك على أن قوله : ( وطعام الذين أوتوا الكتاب ) [ المائدة : ٦ ] يتناول هؤلاء كلهم ، كما هو مذهب الجمهور من السلف والخلف ، وهو مذهب مالك ، وابى حنيفة ، وهو المنصوص عن احمد فى عامة اجوبته ، لم يختلف كلامه الا فى نصارى بنى تغلب ، وآخر الروايتين عنه : أنهم تباح نساؤهم وذبائحهم ،كما هو قول جمهور الصحابة . وقوله فى الرواية الأخرى : لاتباح ، متابعة لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه ، لم يكن لأجل النسب ، بل لكونهم لم يدخلوا فى دين أهل الكتاب الا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه ، ولكن بعض التابعين ظن أن ذلك لأجل النسب ، كما نقل عن عطاء ، وقال به الشافعى ومن وافقه من اصحاب احمد ، وفرعوا على ذلك فروعاً ، كمن كان أحد أبويه كتابيا والآخر ليس بكتابى ونحو ذلك ، حتى

لا يوجد فى طائفة من كتب اصحاب احمد الا هذا القول ، وهو خطأ على مذهبه، مخالف لنصوصه ، لم يعلق الحكم بالنسب فى مثل هذا البتة ، كما قد بسط فى موضعــــه .

ولفظ « المشركين » يذكر مفردا فى مثل قوله : ( ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ) [ البقرة : ٢٢١ ] وهل يتناول أهل الكتاب ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف ، والذين قالوا : بأنها تعم ، منهم من قال : هى محكمة ، كابن عمر ، والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات ، كما ذكره الله فى آية المائدة ، وهى متأخرة عن هذه ، ومنهم من يقول : نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات ، ومنهم من يقول : بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام ، وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله : ( ولا تمسكوا بعضم الكوافر ) [ الممتحنة : ١٠ ] . وهذا قد يقال : انما نهى عن التمسك بالعصمة من كان متزوجاً كاكافرة ، ولم يكونوا حينئذ متزوجين الا بمشركة وثنية ، فلم يدخل فى ذلك الكتابيات .

فصـــــل

وكذلك لفظ الصالح والشهيد والصديق ، يذكر مفردا ، فيتناول النبيين، قال تعالى فى حق الخليل:( وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ) [ العنكبوت : ٢٧ ] وقال : ( وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخره لمـــن الصالحين ) [ النحل : ١٢٢ ] وقال الخليل : ( رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ) [ الشعراء : ٨٣ ] وقال يوسف : ( توفنى مسلماً وألحقنــى بالصالحين ) [ يوسف : ١٠١ ] وقال سليمان : ( وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ) [ النمل : ١٩ ] .وقال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون فى آخر صلاتهم : السلام على الله قبل عباده ، السلام على جبريل ، السلام على ميكائيل السلام على فلان ، فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم «ان الله هو السلام ، فاذا قعد احدكم فى الصلاة ، فليقل : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض » . . . الحديث .

وقد يذكر الصالح مع غيره ، كقوله تعالى : ( فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ) [ النساء : ٦٨ ] قال الزجاج وغيره : الصالح : القائم بحقوق الله وحقوق عباده ، ولفظ الصالح خلاف الفاسد ، فاذا أطلق فهو الذى صلح جميع أمره ، فلم يكن فيه شىء من الفساد ، فاستوت سريرته وعلانيته ، وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه ، وهذا يتناول النبيين ومن دونهم . ولفظ الصديق قد جعل هنا معطوفاً على النبيين ، وقد وصف به النبيين فى مثل قوله : ( واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا ) [ مريم : ٤١ ] ( واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ) [مريم : ٥٦ ]

وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح ، وقد قال : (وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق ) [ الزمر : ٦٩ ]ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها فى قوله : ( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ) [ البقرة : ١٤٣ ] . فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس ، كالشهادة المذكورة فى قوله : (لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء ) [ النور : ١٣ ] . وقوله : ( واستشهدوا شهيدين من رجالكم ) [ البقرة : ٢٨٢ ] . وليست هذه الشهادة المطلقة فى الآيتين ، بل ذلك كقوله : ( ويتخذ منكم شهداء ) [ آل عمران : ١٤٠ ] .

## فصل

وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر ، فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيهما الكفر والفسوق ، كقوله : ( ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا ) [ الجن : ٢٣ ] . وقال تعالى : ( وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ) [ هود : ٥٩ ] وأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل ، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال : ( فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء)[تبارك : ٩] .ومعصية من كذب وتولى ، قال تعالى : ( لا يصلاها الا الأشقى ، الذى كذب وتولى ) [ الليل : ١٥ — ١٦ ] اى كذب بالخبر وتولى

عن طاعة الأمر ، وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما اخبروا ، ويطعوهم فيما أمروا ، وكذلك قال فى فرعون : ( فكذب وعصى ) [ النازعات : ٢١ ] . وقال عن جنس الكافر : ( فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ) [القيامة : ٣١ — ٣٢] . فالتكذيب للخبر ، والتولى عن الأمر ، وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، ومنه قوله : ( كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول ) [ المزمل : ١٥ — ١٦ ] .

ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن ، كقوله : ( ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا ، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليما ) [ الفتح : ١٦ ] . وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله ، وان الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة ، وذم التولى عن الطاعة ، كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله : ( فعصى فرعون الرسول ) [ النساء : ٩٢ ] . وقد قيل : ان التأبيد لم يذكر فى القرآن الا فى وعيد الكفار ، ولهذا قال : (ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيماً ) [ النساء : ٩٢ ] . وقال فيمن يجوز فى المواريث : ( ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مبين ) [ النساء : ١٤ ] . فهنا قيد المعصية بتعدى حدوده ، فلم يذكرها مطلقة ، وقال :( وعصى آدم ربه فغوى ) [طه : ١٢١] . فهى معصية خاصة ، وقال تعالى :( حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ) [ آل عمران : ] . فاخبر عن معصية واقعة معينة ، وهى معصية الرماة للنبى ﷺ ، حيث أمرهم بلزوم ثغرهم ، وان رأوا المسلمين قد انتصروا ، فعصى من منهم هذا الأمر ، وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين ، وأقيل من اقبل منهم على المغانم ، وكذلك قوله : ( وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ) [ الحجرات : ٧ ] جعل ذلك ثلاث مراتب ، وقد قال : ( ولا يعصينك فى معروف ) [ المتحنة : ١٢ ] . فقيد المعصية ، ولهذا فسرت بالنياحة ، قاله ابن عباس ، وروى ذلك مرفوعاً ، وكذلك قال زيد بن أسلم : لا يدعون ويلا ، ولا يخدشن وجهاً ، ولا ينشرن

بشعرا ، ولا يشققن ثوبا وقد قال بعضهم : هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الاسلام وأدلته ، كما قاله أبو سليمان الدمشقى ، ولفظ الآية عام أنهن لايعصينه فى معروف ، ومعصيته لاتكون الا فى معروف ، فانه لا يأمر بمنكر ، لكن هذا كما قيل : فيه دلالة على أن طاعة أولى الأمر انما تلزم فى المعروف كما ثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « انما الطاعة فى المعروف » (١) ونظير هذا قوله : ( استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ) [ الأنفال : ٢٤ ] . وهو لايدعو الا الى ذلك ، والتقييد هنا لامفهوم له ، فانه لايقع دعاء لغير ذلك ، ولا أمر بغير معروف ، وهذا كقوله تعالى : ( ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا ) [ النور : ٣٣ ] . فانهن اذا لم يردن تحصنا ، امتنع الاكراه ، ولكن فى هذا بيان الوصف المناسب للحكم ، ومنه قوله تعالى : ( ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به ، فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون ) [ المؤمنون : ١١٨ ] . وقوله : ( ويقتلون النبيين بغير الحق ) [ البقرة : ٦١ ] . فالتقييد فى جميع هذا للبيان والايضاح ، لا لاخراج وصف آخر ، ولهذا يقول من يقول من النحاة : الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص ، وفى النكرات للتخصيص ، يعنى فى المعارف التى لاتحتاج الى تخصيص ، كقوله : ( سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ) [ الأعلى : ١-٢ ] وقوله : ( الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ) [ الأعراف : ١٥٦ ] وقوله: ( الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ) [ الفاتحة : ١ ] . والصفات فى النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح ايضا ، ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق فى قوله ( وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ) [الحجرات: ٧ ] ومعلوم أن الفاسق عاص أيضا .

## فصل

ومن هذا الباب ظلم النفس ، فانه اذا أطلق تناول جميع الذنوب ، فانها ظلم العبد نفسه ، قال تعالى : ( ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ، منها قائم

---

(١) متفق عليه .

وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب ) [ هود: ١٠١ — ١٠٢ ] وقال تعالى : ( واذ قال موسى لقومه : ياقوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ) [ البقرة : ٥٤ ] . وقال في قتل النفس : (رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي ) [ القصص : ١٣ ] . وقالت بلقيس : ( رب انى ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين ) [ النمل : ٤٥ ] . وقال آدم عليه السلام : ( ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ) [ الأعراف : ٢٢ ] . ثم يقرن ببعض الذنوب ، كقوله تعالى : ( والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ) [ آل عمران : ١٣٥ ] . وقوله : ( ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله ، يجد الله غفورا رحيما ) [ النساء : ١٠٩ ] .

وأما لفظ الظلم المطلق ، فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب ، قال تعالى : ( احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم ، وقفوهم انهم مسئوولون ) [ الصفات : ٢٢—٢٤ ] . قال عمر بن الخطاب : « ونظراءهم » ، وهذا ثابت عن عمر ، وكذلك قال ابن عباس : « وأشباههم » ، وكذلك قال قتادة والكلبي : كل من عمل بمثل عملهم، فأهل الخمر مع أهل الخمر واهل الزنا مع أهل الزنا ، وعن الضحاك ومقاتل: قرناءهم من الشياطين ، كل كافر معه شيطانه في سلسلة ، وهذا كقوله : ( واذا النفوس زوجت ) [ التكوير : ٧ ] . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح . قال ابن عباس : وذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة . وقال الحسن وقتادة : ألحق امرىء بشيعته، اليهودى مع اليهود ، والنصراني مع النصارى . وقال الربيع بن خيثم : يحشر المرء مع صاحب عمله ، وهذا كما ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ وقال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١) . وقال : « المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل » (٢) .

---

(١) متفق عليه .　　　(٢) رواه مسلم والبخارى تعليقا .

لما قيل له : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال : « المرء مع من أحب » (١) .

وزوج الشيء نظيره ، وسمى النصف زوجاً ، لتشابه أفراده ، كقوله : ( وانبتنا فيها من كل زوج كريم ) [ الشعراء : ٧ ] وقال : ( ومن كل شيء خلقنازوجين لعلكم تذكرون ) [ الذاريات : ٤٩ ] وقال غير واحد من المفسرين : صنفين ونوعين مختلفين : السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف ، والجن والانس ، والكفر والايمان ، والسعادة والشقاوة ، والحق والباطل ، والذكر والانثى ، والنور والظلمة والحلو والمر ، واشباه ذلك ، لعلكم تذكرون ، فتعلمون ان خالق الأزواج واحد ، وليس المراد انه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً فان المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجرا ، بل كافرا ، كامرأة فرعون . وكذلك الرجل الصالح ، قد تكون امرأته فاجرة ، بل كافرة ، كامرأة نوح ولوط . ولكن ان كانت المرأة على دين زوجها ، دخلت فى عموم الأزواج ، ولهذا قال الحسن البصرى : وأزواجهم : المشركات .

فلا ريب أن هذه الآية تناولت الكفار ، كما دل عليه سياق الآية . وقد تقدم كلام المفسرين : أنه يدخل فيها الزناة مع الزناة ، واهل الخمر مع اهل الخمر . وكذلك الأثر المروى : « اذا كان يوم القيامة قيل : أين الظلمة وأعوانهم ؟ — أو قال : واشباههم — فيجمعون فى توابيت من نار ثم يقذف بهم فى النار » . وقد قال غير واحد من السلف : أعوان الظلمة من أعانهم ، ولو أنه لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً ، ومنهم من كان يقول : بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم ، وأعوانهم : هم من أزواجهم المذكورين فى الآية ، فان المعين على البر والتقوى من اهل ذاك ، والمعين على الاثم والعدوان من اهل ذلك . قال تعالى : ( من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ) [ النساء : ٨٥ ] . والشافع الذى يعين غيره ، فيصير معه شفعاً بعد أن كان وترا ، ولهذا فسرت الشفاعة الحسنة باعانة

(٣) حديث حسن رواه الترمذى وغيره . وعلى هامش النسخة الهندية : اخرجه أبو داود الطيالسى وأبو داود والترمذى وحسنه ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات فاخطأ .

المؤمنيين على الجهاد ، والشفاعة السيئة باعانة الكفار على قتال المؤمنين ، كما ذكر ذلك ابن جرير ، وأبو سليمان . وفسرت الشفاعة الحسنة بشفاعة الانسان للانسان ليجتلب له نفعاً ، أو يخلصه من بلاء ، كما قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، فالشفاعة الحسنة اعانة على خير يحبه الله ورسوله من نفع من يستحق النفع ، ودفع الضر عمن يستحق دفع الضرر عنه ، والشفاعة السيئة اعانته على مايكرهه الله ورسوله ، كالشفاعة التى فيها ظلم الانسان ، أو منع الاحسان الذى يستحقه ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للؤمنين ، والسيئة بالدعاء عليهم ، وفسرت الشفاعة الحسنة بالاصلاح بين اثنين ، وكل هذا صحيح ، فالشافع زوج المشفوع له ، اذ المشفوع عنده من الخلق اما أن يعينه على بر وتقوى ، واما ان يعينه على اثم وعداون ، وكان النبى ﷺ اذا أتاه طالب حاجة قال لأصحابه : « اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء » (١) .

وتمام الكلام يبين ان الآية — وان تناولت الظالم الذى ظلم بكفره — فهى أيضاً متناولة مادون ذلك ، وان قيل فيها : ( وما كانوا يعبدون ) فقد ثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، واذا شيك فلا انتقش » (٢) . وثبت عنه فى « الصحيح » أنه قال : « ما من صاحب كنز الا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعاً اقرع يأخذ بلهزميته : انا مالك ، أنا كنزك » وفى لفظ : الا مثل له يوم القيامة شجاعاً اقرع يفر منه وهو يتبعه ، حتى يطوقه فى عنقه » ، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ( سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ) [ آل عمران : ١٨٠ ] . وفى حديث آخر : « مثل له يوم القيامة شجاعاً اقرع يتبع صاحبه حينما ذهب ، وهو يفر منه : هذا مالك الذى كنت تبخل به ، فاذا رأى أنه لابد له منه ، أدخل يده فى فيه ، فيقضمها كما يقضم الفحل » . وفى رواية : « فلا يزال يتبعه فيلتمه يده فيقضمها ، ثم يلقمه سائر جسده » . وقد قال تعالى فى الآية الأخرى : ( والذين يكنزون الذهب والفضة

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه البخارى .

ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ) [ التوبة : ٣٤ — ٣٥ ] .

وقد ثبت في « الصحيح » وغيره عن النبي ﷺ أنه قال « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته الا احمى عليها في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين الف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار » . وفي حديث أبي ذر : « بشر الكانزين برضف يحمى عليها في نار جهنم ، فتوضع على حلمة ثدي احدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ، ويوضع على نغض كتفيه ، حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل ، وتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحر في أجوافهم » . وهذا كما في القرآن ، ويدل على أنه بعد دخول النار ، فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولا في الموقف ، فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع اشباهه وماله الذي صار عبدا له من دون الله ، فيعذب به ، وان يكن هذا من اهل الشرك الأكبر الذين يخلدون في النار . ولهذا قال في آخر الحديث : « ثم يرى سبيله اما الى الجنة ، واما الى النار » . فهذا بعد تعذيبه خمسين الف سنة مما تعدون ، ثم يدخل الجنة .

وقد قال النبي ﷺ : « الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » (١) قال ابن عباس وأصحابه : كفر دون كفر ،وظلم دون ظلم ،وفسق دون فسق . وكذلك قال أهل السنة كاحمد بن حنبل وغيره ، كما سنذكره — ان شاء الله — وقد قال الله تعالى : ( اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون ) [ التوبه : ٣١] . وفي حديث عدي بن حاتم — وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما — وكان قد قدم على النبي ﷺ ، وهو نصراني ، فسمعه يقرأ هذه الآية ، قال : فقلت له انا لسنا نعبدهم ، قال : « اليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ماحرم الله فتحلونه ؟ ! » قال :

بنى . قال : « فتلك عبادتهم » وكذلك قال ابو البحترى : اما انهم لم يصلوا لهم ، ولو امروهم أن يعبدوهم من دون الله ما اطاعوهم ، ولكن أمورهم ، فجعلوا حلال الله حرامه ، وحرامه حلاله ، فاطاعوهم ، فكانت تلك الربوبية .

وقال الربيع بن انس : قلت لأبى العالية : كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية انهم وجدوا فى كتاب الله ما امروا به ونهوا عنه ، فقالقوا : لن نسبق أحبارنا بشىء ، فما أمرونا به ائتمرنا ، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم ، فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فقد بين النبى ﷺ أن عبادتهم اياهم كانت فى تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لا انهم صلوا لهم ، وصاموا لهم ، ودعوهم من دون الله ، فهذه عبادة للرجال، وتلك عبادة للأموال ، وقد بينها النبى ﷺ ، وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله: ( لا اله الا هو سبحانه عما يشركون ) [ التوبه : ٣١ ] . فهذا من الظلم الذى يدخل فى قوله : ( احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ) [ الصافات : ٢٢ — ٢٣ ] . فان هؤلاء والذين امروهم بهذا هم جميعاً معذبون ، وقال : ( انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ) [ الأنبياء : ٩٨ ] . وانما يخرج من هذا من عبد كراهته لأن يعبد ويطاع فى معصية الله ، فهم الذين سبقت لهم الحسنى ، كالمسيح والعزير وغيرهما ، فأولئك معبدون .

وأما من رضى بأن يعبد ويطاع فى معصية الله ، فهو مستحق للوعيد ، ولو لم يأمر بذلك ، فكيف اذا امر ؟ ! وكذلك من أمر غيره بان يعبد غير الله، وهذا من أزواجهم ، فان أزواجهم قد يكونون اتباعاً ، وهم أزواج واشباه لتشابههم فى الدين ، وسياق الآية يدل على ذلك ، فانه سبحانه قال : ( احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فاهدوهم الى صراط الجحيم ) [ الصافات : ٢٢—٢٣ ] . قال ابن عباس : دلوهم ، وقال الضحاك مثله ، وقال ابن كيسان : قدموهم ، والمعنى : قودوهم كما يقود الهادى لمن يهديه ، ولهذا تسمى الأعناق الهوادى ، لأنها سائر البدن ، وتسمى اوائل الوحش الهوادى ( وقفوهم انهم مسؤلون مالكم لا تناصرون ) [ الصافات : ٢٤ — ٢٥ ] . اى : كما كنتم تتناصرون فى الدنيا على الباطل.

( بل هم اليوم مستسلمون ، واقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمن ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فاغويناكم انا كنا غاوين ، فانهم يؤمئذ فى العذاب مشتركون ، انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم : لا اله الا الله يستكبرون . ويقولون : ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ) [ الصافات ٢٦ — ٣٦ ] . وقال تعالى : ( قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى اذا ركوا فيها قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لاتعلمون ، وقالت أولاهم : فما كان لكن علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ) [ الأعراف ٣٧ — ٣٨ ] . وقال تعالى : ( واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء الذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا : انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ) [ غافر : ٤٧ — ٤٨ ] . وقال تعالى : ( ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول ، يقول الذين اسضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين اسضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين اسضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل أندادا ، واسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون الا ماكانوا يعلمون ) [ سبأ : ٣١ — ٣٣ ] .

وقوله فى سياق الآية (انهم كانوا اذا قيل لهم : لا اله الا الله يستكبرون) [ الصافات : ٣٥ ] .

ولا ريب أنها تتناول الشركين : الأصغر والأكبر ، وتتناول أيضاً من استكبر عما أمره الله به من طاعته ، فان ذلك من تحقيق قول : لا اله الا الله، فان الاله هو المستحق للعبادة ، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له ، فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعا فى ذلك لغيره ، لم يحقق قول : لا اله الا الله فى هذا المقام .

وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله ، وتحريم ماأحل الله ، يكونون على وجهين :

أحدهما : أن يعلمون أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبديل ، فيعتقدوا تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم انهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركا مثل هؤلاء .

والثانى : أن يكون اعتقادهم وايمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما ثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « انما الطاعة فى المعروف » . وقال « على المسلم السمع والطاعة فيما احب او كره ، ما لم يؤمر بمعصية » . وقال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . وقال : « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » .

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام ان كان مجتهدا قصده اتباع الرسول ، لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لايؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ، ثم اتبعه على خطئه ، وعدل عن قول الرسول ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لاسيما ان اتبع فى ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد ، مع علمه بأنه مخالف للرسول ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه . ولهذا اتفق العلماء على أنه اذا عرف الحق لايجوز له تقليد أحد فى خلافه ، وانما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وان كان عاجزا عن اظهار الحق الذى يعلمه ، فهذا يكون كمن عرف أن دين الاسلام حق وهو بين النصارى ، فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق ، لايؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشى وغيره . وقد أنزل الله

فى هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى : ( وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم ) [ آل عمران : ١٩٩ ] . وقوله : ( ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) [ الأعراف : ١٥٨ ] . وقوله :( واذا سمعوا ماانزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) [ المائدة : ٨٦ ] .

واما ان كان المتبع للمجتهد عاجزا عن الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد فى التقليد ، فهذا لا يؤاخذ ان أخطأ ، كما فى القبلة ، وأما ان قلد شخصاً دون نظير بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم ان معه الحق ، فهذا من اهل الجاهلية ، وان كان متبوعه مصيبا، لم يكن عمله صالحا ، وان كان متبوعه مخطئا ،كان آثما ، كمن قال فى القرآن برأيه ، فان أصاب فقد أخطأ ، وان أخطأ فليتبوأ مقعده من النار ، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى يتقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فان ذلك لما احب المال حباً منعه عن عبادة الله وطاعته، صار عبدا له وكذلك هؤلاء ، فيكون فيه شرك اصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفى الحديث : « ان يسير الرياء شرك » . وهذا مبسوط عند النصوص التى فيها اطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب .

والمقصود هنا ان الظلم المطلق يتناول الكفر ولا يختص بالكفر ، بل يتناول ما دونه أيضاً ، وكل بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية ، فان هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان ، كما فى « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : «ان تجعل لله نـدا وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم ان تقتل ولدك خشية أن يطعم » . قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن ترانى بحليلة جارك » ، فأنزل الله تعالى : ( والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا ، فانه يتوب الى الله متاباً ) [ الفرقان : ٦٨ — ٧٢ ] .

فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة ، ولكل عمل قسط منه ، فلو اشرك ولم يقتل ولم يزن ، كان عذابه دون ذلك ، ولو زنى وقتل ولم يشرك ، كان له من هذا العذاب نصيب ، كما فى قوله : ( ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيما ) [ النساء : ٩٢ ] . ولم يذكر : ابدا . وقد قيل : ان لفظ التأبيد لم يجيء الا مع الكفر ، وقال الله تعالى : ( ويوم يعض اظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلا، لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا ) فلا ريب ان هذا يتناول الكافر الذى لم يؤمن بالرسول . وسبب نزول الآية كان فى ذلك ، فان الظلم المطلق يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه ، فمن خال مخلوقاً فى خلاف أمر الله ورسوله ، كان له من هذا الوعيد نصيب ، كما قال تعالى : ( الاخلاء يؤمئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ) [ الزخوف : ٦٧ ] . وقال تعالى : ( اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وراء العذاب وتقطعت بهم الأسباب ) [ البقرة : ١٦٦ ] . قال الفضيل بن عياض : حديثا الليث عن مجاهد : هى المودات التى كانت بينهم لغير الله ، فان المخالة تحاب وتواد ، ولهذا قال : «المرء على دين خليله» فان المتحابين يحب أحدهما ما يحب الآخر بحسب الحب ، فاذا اتبع أحدهما صابه على مبته ما يبغضه الله ورسوله ، نقص من دينهما بحسب ذلك الى الشرك الأكبر ، وقال تعالى : ( ومن الناس من يتخذ من دون الله انـدادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله ) [ البقرة : ١٦٥ ] .

والذين قدموا محبة المال الذى كنزوه ، والمخلوق الذى اتبعوه ، على محبة الله ورسوله ، كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك ، فلهذا ألزمهم محبوبهم ، كما فى الحديث ، يقول الله تعالى : « اليس عدلا منى ان اولى كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا » (١) . وقد ثبت فى « الصحيح » يقول : « ليذهب كل قوم الى ماكانوا يعبدون ، من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، ويمثل للنصارى المسيح ، ولليهود عزيز ، فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » ، كما سيأتى هذا الحديث ــ ان شاء الله ــ فهؤلاء اهل الشرك الأكبـر .

وأما عدد المال كنزوه ، وعبيد الرجال الذين أطاعوهم فى أراضى الله، فأولئك يعذوبون عذابا دون عذاب اولئك المشركين ، اما فى عرصات القيامة، واما فى جهنم ، ومن أحب شيئاً دون الله عذب به . وقال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون ) [ البقرة : ٢٥٤ ] فالكفر المطلق هو الظلم المطلق ، ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة فى هذه الآية ، وفى قوله : ( وانذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ) [ غافر : ١٨ــ ١٩ ] . وقال : ( فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود ابليس اجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله ان كنا لفى ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين، وما اضلنا الا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ) [ الشعراء : ٩٤ ــ ١٠٢ ] . وقوله : ( اذ نسويكم ) لم يريدوا به انهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه ، فان هذا لم يقله أحد من بنى آدم ، ولا نقل عن قوم قط من الكفار انهم قالوا : ان هذا العالم له خالقان متماثلان ، حتى المجوس القائلين بالأصلين : النور والظلمة متفقون على أن النور خير يستحق أن يعبد ويحمد ، وأن الظلمة شريرة تستحق ان تذم وتلعن، واختلفوا اهل الظلمة محدثة او قديمة ؟ على قولين ، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه . وكذلك مشركوا العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ، بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وما بينهما ، كما أخبر الله عنهم بذلك فى غير آية كقوله تعالى : ( ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله ، فانى يؤفكون الله يبسط ارزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شىء عليم ، ولئن سالتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ) [ العنكبوت : ٦١ ــ ٦٣ ] . وقال تعالى : ( ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ،

وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وانا الى ربنا لمنقلبون)
[ الزخوف : ٩—١٤ ] .

وهذه الصفات من كلام الله تعالى ليست من تمام جوابهم . وقال تعالى: ( قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل افلا تذكورن ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ) [ المؤمنون : ٨٥ — ٨٨ ] . وقال تعالى : ( قل ارايتكم ان أتاكم عذاب الله او اتتكم الساعة اغير الله تدعون ان كنتم صادقين ، بل اياه تدعون ، فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون ) [ الأنعام : ٤٠ — ٤١ ] . وكذلك قولــه : ( الله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ، أ اله مع الله، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجز اًله مع الله [ النمل : ٥٩ — ٦١ ] . اى: االه مع الله فعل هذا ؟ ! وهذا استفهام انكار ، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا اله آخر مــع الله .

ومن قال من المفسرين : ان المراد : هل مع الله اله آخر ؟ فقد غلط ، فانهم كانوا يجعلون مع الله آلهة اخرى ، كما قال تعالى : ( ائنكم لتشهدون أن مع الله آلهة اخرى قل لا أشهد ) [ الأنعام : ١٩ ] وقال تعالى : ( فما اغنت آلهتم التى يدعون من دون الله من شىء ) [ هود : ١٠٢ ] . وقال تعالــى عنهم : ( اجعل الآلهة الهاً واحدا ان هذا لشىء عجاب ) [ ص : ٥ ] . وكانوا معترفين بأن آلهتم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ، ولا خلق شىء، بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط ، كما قال تعالى : ( ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) [بونس : ١٨] وقال عن صاحب يس : ( ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون ، اتخذ من دونه آلهة ان يردن الحمن بضر لا نغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ) [ يس: ٢٢ — ٢٣ ] . وقال تعالى : ( وانذر به الذين يخالفون أن يحشروا الى ربهم ، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع )[ الانعام : ٥١ ] . وقال تعالى:

( الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ) [ السجدة : ٤ ] . وقال : ( قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ) [ سبأ : ٢٢ — ٢٣ ] فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، نفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك ، أو يكون عوناً لله ولم يبق الا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع الا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى : ( من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه ) [ البقرة : ٢٥٥ ] وقال تعالى عن الملائكة : ( ولا يشفعون الا لمن ارتضى ) [ الأنبياء : ٢٨ ] . وقال : ( وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ) [ النجم : ٢٦ ]

فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأما ما اخبر به النبى ﷺ انه يكون ، فأخبر : « انه يأتى فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشافعة أولا فاذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه ، يقال له : اى محمد ! ارفع راسك ، وقل تسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع . فيقول : اى رب امتى ! فيحد له حدا فيدخلهم الجنة » (١) . وكذلك فى الثانية، وكذلك فى الثالثة ، قال ابو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « من قال : لا اله الا الله خالصاً من قلبه » (٢) . فتلك الشفاعة هى لاهل الاخلاص باذن الله،ليست لمن أشرك بالله،ولاتكون الا باذن الله وحقيقة ان الله هو الذى يتفضل على اهل الاخلاص والتوحيد،فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذى أذن لهأن يشفع ليكرمه بذلك،وينال المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ ، كما كان فى الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم ، وتلك شفاعة منه لهم فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته .

واذا كان كذلك ، فالظلم ثلاثة انواع : فالظلم الذى هو شرك لا شفاعة فيه ، وظلم الناس بعضهم بعضاً لابد فيه من اعطاء المظلوم حقه ،لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم ، كما قد يغفر للظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع ، وأما

الموحد فلم يكن ظالما مطلقا ، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه . وهذا انما نفعه في الحقيقه اخلاصه لله ، فبه صار من اهل الشفاعة ،ومقصود القرآن بنفى الشرك ، وهو : ان احدا لا يعبد الا الله ، ولا يدعوه ، ولايسأل غيره ،ولايتوكل على غيره لا في شفاعة ، ولا غيرها ، فليس له ان يتوكل على أحد في أن يرزقه، وان كان الله يأتيه برزقه بأسباب .

كذلك ليس له ان يتوكل على غير الله في ان يغفر له ويرحمه في الآخره، وان كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها . فالشاعة التى نفاها القرآن مطلقاً ، ما كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقا ، ولهذا اثبت الشفاعة باذنه في مواضع ، وتلك قد بين الرسول ﷺ انها لا تكون الا لأهل التوحيد والاخلاص ، فهي من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد .

واما الظلم المقيد ، فقد يختص بظلم الانسان نفسه ، وظلم الناس بعضهم بعضاً ، كقول آدم عليه السلام وحواء : ( ربنا ظلمنا انفسنا ) [ الأعراف : ٢٣ ] . وقول موسى : ( رب انى ظلمت نفسى ) [ القصص : ١٦ ] وقوله تعالى : ( والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ) [ آل عمران : ١٣٥ ] . ولكن قول آدم وموسى اخبار عن واقع لا عموم فيه ، وذلك قد عرف ولله الحمد انه ليس كفرا .

وأما قوله : ( اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ) [ آل عمران : ١٣٥ ] . فهو نكرة في سياق الشرط ، يعم كل مافيه ظلم الانسان نفسه ، فهو اذا أشرك ثم تاب ، تاب الله عليه . وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الاطلاق وقال تعالى : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ) [ فاطر : ٣٢ ] . فهذا ظلم نفسه مقرون بغيره ، فلا يدخل فيه الشرك الأكبر . وفى « الصحيحين » عن ابن مسعود أنه لما انزلت هذه الآية: ( الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ) [ الانعام : ٨٢ ] . شق ذلك على اصحاب النبى ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبى ﷺ : انما هو الشرك ، الم تسمعوا الى العبد الصالح : ( ان الشرك لظلم

عظيم ) [ لقمان : ١٣ ] ..والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه ، وانه لا يكون الأمن والاهتداء الا لمن لم يظلم نفسه ، فشق ذلك عليهم ، فبين النبى ﷺ لهم مادلهم على ان الشرك ظلم فى كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء الا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ، ومن لم يلبس ايمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ... الى قوله : جنات عدن يدخلونها ) [ فاطر : ٣٢ — ٣٣ ] . وهذا لاينفى أن يؤاخذ احدهم بظلم نفسه اذا لم يتب ، كما قال تعالى : ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) [ الزلزال : ٧—٨ ] . وقال تعالى : ( من يعمل سوءاً يجز به ) [ النساء : ١٢٣ ] .

وقد سأل ابو بكر النبى ﷺ عن ذلك فقال : يارسول الله ! واينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : ياأبا بكر ! ألست تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به (١) فبين أن المؤمن الذى اذا تاب دخل الجنة ، قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه ، كما فى « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن كمثل من الزرع تفيئها الرياح ، تقومها تارة وتميلها اخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » . وفى « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ا ولا هم ، ولا حزن ، ولا غم ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ، الا كفر الله بها من خطاياه » ، وفى حديث سعد بن أبى وقاص ، قلت : « يارسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة ، زيد فى بلائه ، وان كان فى دينه رقة ، خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » رواه أحمد والترمذى(٢) وغيرهما . وقال : « المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه ، كما تحط الشجرة

---

(١) حديث صحيح اخرجه أحمد والترمذى والحاكم من طرق .
(١) اسناده صيحح .

اليابسة ورقها » (٢) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

فمن سلم من اجناس الظلم الثلاثة ، كان له الأمن التام ، والاهتداء مطلقاً ، بمعنى انه لا يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الاخرى ، وقد هداه الى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه الى الجنة ، ويحصل من نقص الأمن والاعتداء بحسب ما نقص من ايمانه بظلمه نفسه . وليس مراد النبى ﷺ بقوله « انما هو الشرك » أن من لم يشرك الأكبر ، يكون له الأمن التام، والاهتداء التام . فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين ان أهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين الى الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . فيقول النبى ﷺ « انما هو الشرك الأكبر ، فمقصوده أن من لم يكن من اهله ، فهو آمن مما وعد به المشركين من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك . وان كان مراده جنس الشرك ، فيقال : ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر ، وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك شرك اصغر ، ونحو ذلك . فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى الظلم بهذا الاعتبار .

## فصل

ومن هذا الباب لفظ الصلاح والفساد . فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر ، كما تقدم فى اسم الصالح ، وكذلك اسم المصلح والمفسد ، قال تعالى فى قصة موسى : ( اتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، ان تريد أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون

---

(٢) حديث صيحح رواه أحمد وابن حبان فى « صحيحه » : وله شواهد كثيرة .

من المصلحين ) [ القصص : ١٩ ] . ( وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ) [ الأعراف : ١٤١ ] وقال تعالى: ( واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا : انما نحن مصلحون ، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ) [ البقرة : ١١ ـــ ١٢ ] . والضمير عائد على المنافقين فى قوله : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هــم بؤمنين ) [ البقرة : ٨ ] . وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبى ﷺ ، ومن سيكون بعدهم ، ولهذا قال سلمان الفارسى : انه عنى بهذه الآية قوماً لم يكونوا خلقوا حين نزولها . وكذا قال السدى عن اشياخه : الفساد : الكفر والمعاصى ، وعن مجاهد ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، والقولان معناها واحد . وعن ابن عباس : الكفر . وهذا معنى قول من قال : النفاق الذى صافوا به الكفار وأطلعوهم على اسرار المؤمنين . وعن أبى العاليــة ومقاتل : العمل بالمعاصى ، وهذا ايضاً عام كالاولين .

وقولهم : ( انما نحن مصلحون ) [ البقرة : ٨ ] فسر بانكاره ما اقروا به ، أى : انا انما نفعل ما أمرنا به الرسول ، وفسر : بأن الذى نفعله صلاح، وكلا القولين يروى عن ابن عباس ، وكلاهما حق ، فانهم يقولون هذا وهذا يقولون الأول لمن يطلع على بواطنهم ، ويقولون الثانى لأنفسهم ولمن اطلع على بواطنهم . لكن الثانى يتناول الاول ، فان من جملة أفعالهم اسرار خلاف ما يظهرون ، وهم يرون هذا صلاحاً قال مجاهد : أرادوا أن مصافاة الكفار صلاح لا فساد . وعن السدى : ان فعلنا هذا هو الصلاح ، وتصديق محمد فساد. وقيل : أرادوا أن هذا صلاح فى الدنيا ، فان الدولة ان كانت للنبى ﷺ ، فقد أمنوا بمتابعته ، وان كانت للكفار ، فقد أمنوهم بمصافاتهم ، ولأجل القولين قيل فى قوله : ( الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ) [ البقرة :١١،١٢ ] أى : لا يشعرون أن ما فعلوا فساد لا صلاح . وقيل : لا يشعـــرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم . والقول الأول يتناول الثانى ، فهو المراد ، كما يدل عليه لفظ الآية . وقال تعالى : ( ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ) [ الأعراف : ١٩٥ ] . وقال : ( قال موسى : ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ، ان الله لا يصلح عمل المفسدين ) [ يونس : ٨١ ] . وقول

يوسف : ( توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين ) [ يوسف : ١٠١ ] .

وقد يقرن احدهما بما هو أخص منه ، كقوله : ( واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ) [البقرة : ٢٠٥] قيل بالكفر ، وقيل بالظلم ، وكلاهما صحيح وقال تعالى : ( تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ) [القصص : ٨٣] وقد تقدم قوله تعالى : ( ان فرعون علا فى الأرض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين ) [ القصص : ٤ ] . وقال تعالى : ( من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ) [ المائدة : ٣٥ ] . وقتل النفس الأول من جملة الفساد ، لكن الحق فى القتل لولى المقتول ، وفى الردة والمحاربة والزنا الحق فيها لعموم الناس ، ولهذا يقال : هو حق لله ، ولهذا لا يعفى عن هذا ، كما يعفى عن الأول لأن فساد عام ، قال تعالى : ( انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف ) [المائدة: ٣٦] الآية . قيل : سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال . وقيل : سببه ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا . وقيل المشركون ، فقد قرن بالمرتدين وناقضى العهد المحاربين . وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطاع الطريق من المسلمين ، والآية تتناول ذلك كله، ولهذا كان من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء ، فانه يسقط عنه حق الله تعالى .

وكذلك قرن الصلاح والاصلاح بالايمان فى مواضع كثيرة ، كقوله تعالى: ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) [ البقرة : ٢٧٧ ] . ( فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ) [ الانعام : ٤٨ ] . ومعلوم أن الايمان أفضل الاصلاح ، وأفضل العمل الصالح ، كما جاء فى الحديث الصحيح أنه قيل : يارسول الله ! اى الأعمال أفضل ؟ قال : «ايمان بالله » . وقال تعالى : ( وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ) [ طه : ٨٢ ] . وقال: ( الا من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فأولئك يدخلون الجنة ) [ مريم : ٦٠ ] .

وقال : ( الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ) [ الفرقان : ٧٠ ] . وقال فى القذف : ( الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فان الله غفور رحيم ) [ آل عمران : ٨٩ ] . وقال فى السارق : ( فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فان الله يتوب عليه ) [ المائدة : ٤٢ ] . وقال : ( واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فان تابا واصلحا فأعرضوا عنهما ) [ النساء : ١٦ ] . ولهذا شرط الفقهاء فى أحد قوليهم فى قبول شهادة القاذف ان يصلح ، وقدروا ذلك بسنة ، كما فعل عمر بصبيغ بن عسل لما أجله سنة، وبذلك اخذ احمد فى توبة الداعي الى البدعة انه يؤجل سنة ، كما أجل عمر صبيغ بن عسل .

## فصل

فان قيل : ما ذكر من تنوع دلالة اللفظ بالاطلاق والتقييد فى كلام الله ورسوله ، وكلام كل أحد بين ظاهر لا يمكن دفعه ، لكن نقول : دلالة لفظ الايمان على الأعمال مجاز ، فقوله ﷺ : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا اله الا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق » مجاز ، وقوله : « الايمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله » . الى آخره ، حقيقة . وهذا عمدة المرجئة ، والجهمية ، والكراميه ، وكل من لم يدخل الأعمال فى اسم الايمان .

ونحن نجيب بجوابين : أحدهما : كلام عام فى لفظ الحقيقة والمجاز . والثانى : ما يختص بهذا الموضع . فبتقدير أن يكون أحدهما مجازاً ، ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز ؟ هل الحقيقة هو المطلق ، أو المقيد أو كلاهما حقيقة حتى يعرف أن لفظ الايمان اذا أطلق على ماذا يحمل ؟

فيقال أولا : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها الى حقيقة ومجاز ، وتقسيم دلالتها ، أو المعانى المدلول عليها ، ان استعمل لفظ الحقيقة والمجاز فى المدلول أو فى الدلالة ، فان هذا كله قد يقع فى كلام المتأخرين . ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ ، وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به احد من الصحابة ولا التابعين

لهم باحسان ، ولا احد من الأئمة المشهورين فى العلم ، كمالك والثـورى والأوزاعى وأبى حنيفة والشافعى بن ولا تكلم به ائمة اللغة والنحو ، كالخليل وسيبويه وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم . وأول من عرف انه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يعن ما هو قسيم الحقيقة ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية ، ولهذا قال من قال من الأصوليين ، كأبى الحسين البصرى وأمثاله : انما تعرف الحقيقة من المجاز بطرق ، منها نص اهل اللغة على ذلك بأن يقولوا : هذا حقيقة ، وهذا مجاز ، فقد تكلم بلا علم، فانه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا ، ولم يقل ذلك احد من اهل اللغة ، ولا من سلف الأمة وعلمائها ، وانما هذا اصطلاح حادث والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فانه لم يوجد هذا فى كلام احد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف ، وهذا الشافعى هو أول من جرد الكلام فى أصول الفقه ، لم يقسم هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز . وكذلك محمد بن الحسن له فى المسائل المبنية على العربية كلام معروف فى « الجامع الكبير » وغيره ، ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز ، وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز فى كلام أحد منهم الا فى كلام احمد بن حنبل، فانه قال فى كتاب الرد على الجهمية فى قوله : (انا ونحن) ونحو ذلك فى القرآن: هذا من مجاز اللغة ، يقول الرجل : انا سنعطيك ، انا سنفعل ، فذكر أن هذا مجاز اللغة ، وبهذا احتج على مذهبه من اصحاب من قال : ان فى القـرآن مجازاً كالقاضى ابى يعلى ، وابن عقيل ، وأبى الخطاب وغيرهم : وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون فى القرآن مجاز ، كأبى الحسن الجزرى ، وأبى عبد الله بن حامد ، وأبى الفضل التميمى ابن أبى الحسن التميمى ، وكذلك منع أن يكون فى القرآن مجاز ، محمد بن خويز منداد ، وغيره من الملكيـة ، ومنع منه داود بن على ، وابنه ابو بكر ، ومنذر بن سعيد البلوطى وصنف فيه مصنفـاً .

وحكى بعض الناس عن احمد فى ذلك روايتين . واما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ، ولا من قدماء اصحاب أحمد : ان فى القرآن مجازاً ، لا مالك ولا الشافعى ولا أبو حنيفة ، فان تقسيم الألفاظ الى حقيقة ومجاز انما اشتهر

فى المائة الرابعة ، وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجوداً فى المائة الثانية ، اللهم الا أن يكون فى أواخرها . والذين أنكروا أن يكون احمد وغيره نطقوا بهذا التقسيم . قالوا : ان معنى قول أحمد : من مجاز اللغة ـــ أى : مما يجوز فى اللغة ، أى : يجوز فى اللغة أن يقول الواحد العظيم الذى له أعوان : نحن فعلنا كذا ونفعل كذا ، ونحو ذلك . قالوا : ولم يرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل فى غير ما وضع له .

وقد أنكر طائفه أن يكون فى اللغة مجاز ، لا فى القرآن ولا غيره ، كأبى اسحاق الاسفرائينى . وقال المنازعون له : النزاع معه لفظى ، فانه اذا سلم أن فى اللغة لفظاً مستعملا فى غير ما وضع له لا يدل على معناه الا بقرينة ، فهذا هو المجاز وان لم يسمه مجازاً . فيقول من ينصره : ان الذين قسموا اللفظ حقيقة ومجازاً قالوا : الحقيقة هو اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له كلفظ الأسد والحمار ، واذا اريد بهما البهيمة ، أو اريد بهما الشجاع والبليد . وهذا التقسيم والتحديد يستلزم ان يكون اللفظ قد وضع أولا لمعنى ، ثم بعد ذلك قد يستعمل فى موضوعه ، وقد يستعمل فى غير موضوعه ، ولهذاكان المشهور عند أهل التقسيم أن كل مجاز فلا بد له من حقيقة ، وليس لكل حقيقة مجاز ؟ فاعترض عليهم بعض متأخريهم وقال : اللفظ الموضوع قبل الاستعمال لا حقيقة ولا مجاز ، فاذا استعمل فى غير موضوعه ، فهو مجاز لا حقيقة له .

وهذا كله انما يصح أن لو علم أن الألفاظ العربية وضعت أولا لمعان، ثم بعد ذلك استعملت فيها ، فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال . وهذا انما صح قول من يجعل اللغات اصطلاحية ، فيدعى أن قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على ان يسموا هذا بكذا ، وهذا بكذا ، ويجعل هذا عاماً فى جميع اللغات . وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبى هاشم الجبائى ، فانه وأبا الحسن الأشعرى كلاهما قرأ على أبى على الجبائى، لكن الأشعرى رجع عن مذهب المعتزلة ، وخالفهم فى القدر والوعيد ، وفى الأسماء والأحكام ، وفى صفات الله تعالى ، وبين من تناقضهم وفساد قولهم

ما هو معروف عنه ، فتنازع الأشعرى وأبو هاشم فى مبدأ اللغات ، فقال أبو هاشم : هى اصطلاحية ، وقال الأشعرى : هى توقيفية . ثم خاض الناس بعدهما فى هذه المسألة ، فقال آخرون : بعضها توقيفى ، وبعضها اصطلاحى ، وقال فريق رابع بالوقف .

والمقصود هنا أنه لا يمكن أحد أن ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة فى اللغة ، ثم استعملوها بعد الوضع ، وانما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعانى ، فان ادعى مدع أنه يعلم وضعاً تقدم ذلك، فهو مبطل ، فان هذا لم ينقله أحد من الناس . ولا يقال : نحن نعلم ذلك، بالدليل ، فانه ان لم يكن اصطلاح متقدم ، لم يمكن الاستعمال . قيل : ليس الأمر كذلك ، بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض ، وقد سمى ذلك منطقاً وقولا فى قول سليمان : ( علمنا منطق الطير ) [ النمل : ١٦ ] . وفى قوله : ( قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ) [ النمل : ١٨ ] . وفى قوله : ( يا جبال أوبى معه والطير ) [سبأ ١٠] . وكذلك الآدميون ، فالمولود اذا ظهر منه التميز ، سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ، ويشير الى المعنى ، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى ، اى : أراد المتكلم به ذلك المعنى ، ثم هذا يسمع لفظاً بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم ، بل ولا أوقفوه على معانى الأسماء ، وان كان أحيانا قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء ، فيوقف عليها ، كما يترجم للرجل اللغة التى لا يعرفها فيوقف على معانى ألفاظها ، وان باشر أهلها مدة ، علم ذلك بدون توقيف من أحدهم .

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه، كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسماً اما منقولا واما مرتجلا ، وقد يكون المسمى واحداً لم يصطلح مع غيره ، وقد يستوون فيما يسمونه وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة ، أو يضف كتاباً ، أو يبنى مدينة ونحو ذلك ، فيسميه باسم ، لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم فى اللغة العامة،

وقد قال الله تعالى : ( الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ) [ الرحمن : ١ — ٤ ] . و ( قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء ) [فصلت : ٢١] . وقال : ( الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ) [ الأعلى : ٢—٣] .
فهو سبحانه يلهم الانسان المنطق ، كما يلهم غيره وهو سبحانه اذا كان قد علم آدم الأسماء كلها ، وعرض المسميات على الملائكة ، كما أخبر بذلك فى كتابه ، فنحن نعلم أنه لم يعلم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس الى يوم القيامة ، وأن تلك اللغات اتصلت الى أولاده ، فلا يتكلمون الا بها بها فان دعوى هذا كذب ظاهر ، فان آدم عليه السلام انما ينقل عنه بنوه ، وقد اغرق الله عام الطوفان جميع ذريته الا من فى السفينة ، وأهل السفينة انقطعت ذريتهم الا أولاد نوح ، ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم . فان اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية : فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه الا الله ، والعرب أنفسهم لكل قوم منهم لغات لا يفهمها غيرهم ، فكيف يتصور ان ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا فى السفينة ، وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل ، وانما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده ، وهم ثلاثة : سام وحام ويافث ، كما قال الله تعالى : ( وجعلنا ذريته هم الباقين ) [ الصافات : ٧٧ ] فلم يجعل باقياً الا ذريته ، وكما روى ذلك عن النبى ﷺ : «أن أولاده ثلاثة» . رواه أحمد وغيره (١) . ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله ، ويمتنع نقل ذلك عنهم ، فان الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه ، واذا كان الناقل ثلاثة ، فهم قد علموا أولادهم ، وأولادهم علموا أولادهم ، ولو كان كذلك لاتصلت . ونحن نجد بنى الاب الواحد يتكلم كل قبيله منهم بلغة لاتعرفها الأخرى ، والأب واحد ، ولا يقال : انه علم أحد ابنيه لغه وابنه الآخر لغة ، فان الأب قد لا يكون له الا ابنان ، واللغات فى أولاده اضعاف ذلك .

والذى اجرى الله عليه عادة بنى آدم أنهم انما يعلمون أولادهم لغتهم

---

(١) فى الترمذى « فرأى رجلا منهم ، فأعجبه وبيض ما بين عينيه ... »
(٢) ورواه الحاكم أيضاً وصححه ووافقه الذهبى وهو كما قالا .

التى يخاطبونهم بها ، أو يخاطبهم بها غيرهم ، فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم . وأيضاً فانه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم . والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الأسماء التى علمها آدم قولان معروفان عن السلف .

أحدهما : انه انما علمه أسماء من يعقل ، واحتجوا بقوله : ( ثم عرضهم على الملائكة ) [ البقرة : ٣١ ] . قالوا : وهذا الضمير لا يكون الا لمن يعقل، وما لايعقل ، يقال فيها : عرضها ، ولهذا قال أبو العالية : علمه أسماء الملائكة ، لانه لم يكن حينئذ من يعقل الا الملائكة ، ولا كان ابليس قد انفصل عن الملائكة ، ولاكان له ذرية . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن اسلم : علمه أسماء ذريته ، وهذا يناسب الحديث الذى رواه الترمذى وصححه عن النبى ﷺ : « أن آدم سأل ربه أن يريه صور الأنبياء من ذريته ، فرآهم ، فرأى فيهم من يبص (١) فقال : يارب من هذا ؟ قال : ابنك دواد (٢) » . فيكون قد أراه صور ذريته ، أو بعضهم وأسماءهم ، وهذه أسماء اعلام لا اجناس.

والثانى : أن الله علمه اسماء كل شىء ، وهذا قول الاكثرين ، كابن عباس واصحابه . قال ابن عباس : علمه حتى الفسوة والفسية والقصعة والقصيعة ، أراد أسماء الأعراض والأعيان مكبرها ومصغرها . والدليل على ذلك ما ثبت فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ انه قال فى حديث الشفاعة « ان الناس يقولون : ياآدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وعلمك أسماء كل شىء . وايضا قوله : ( الأسماء كلها ) لفظ عام مؤكد ، فلا يجوز تخصيصه بالدعوى وقوله : (ثم عرضهم على الملائكة)، لانه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل ، فغلب من يعقل كما قال : ( فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع) [ النور : ٤٥ ] . قال عكرمة : علمه أسماء الاجناس دون أنواعها ، كقولك: انسان وجن وملك وطائر . وقال مقاتل ، وابن السائب ، وابن قتيبة : علمه أسماء ما خلق فى الأرض من الدواب والهوام والطير .

---

(١) قلت : سنده منقطع ، وان صححه العراقى والذهبى تبعاً للحاكم.

ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ، أن أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ، ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك مما يضاف الى الحيوان ، بل انما يستعملون فى ذلك الاضافة . فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة (١) ،وايضاً فكل امة ليس لها كتاب ، ليس فى لغتها أيام الاسبوع ، وانما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة ، لأن ذلك عرف بالحسن والعقل ، فوضعت له الأمم الاسماء ، لأن التعبير يتبع التصور . وأما الاسبوع فلم يعرف الا بالسمع، لم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الا بأخبار الأنبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا فى الأسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذى بدأ الله فيه خلق هـذا العالم ، ففي لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم ، أيام الأسبوع ، بخلاف الترك ونحوهم ، فانه ليس فى لغتهم أيام الاسبوع ، لأنهم لم يعرفوا ذلك، فلم يعبروا عنه . فعلم ان الله الهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريده ويتصور بلفظه ، وأن أول من علم ذلك أبوهم آدم ، وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات . وقد أوحى الله الى موسى بالعبرانية ، والى محمد بالعربية،والجميع كلام الله ، وقد بين الله بذلك ما أراد من خلقه وأمره ، وان كانت هذه اللغة ليست الأخرى ، مع أن العبرانية من أقرب اللغات الى العربية ، حتى انها أقرب اليها من لغة بعض العجم الى بعض .

فبالجملة نحن ليس غرضنا اقامة الدليل على عدم ذلك ، بل يكفينا أن يقال : هذا غير معلوم وجوده ، بل الالهام كاف فى النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة واذا سمى هذا توقيفاً ، فليسم توقيفا ، وحينئذ فمن ادعى وضعا متقدما على استعمال جميع الاجناس ، فقد قال ما لا علم له به ، وانما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال ، ثم هؤلاء يقولون : تتمير الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ ، فاذا دل اللفظ بمجرده فهو حقيقة ، واذا لم يدل مع القرينة، فهو مجاز ، وهذا أمر متعلق باستعمال اللفظ فى المعنى لا بوضع متقدم .

(١) وعلى هامش الهندية وفى نسخة : « متشابهة » .

ثم يقال ثانياً : هذا التقسيم لا حقيقه له ، وليس لمن فرق بينهما حد صحيح يميز به بين هذا وهذا ، فعلم أن هذا التقسيم باطل ، وهو تقسيم من لم يتصور ما يقول ، بل يتكلم بلا علم ، فهم مبتدعة فى الشرع ، مخالفون للعقل ، وذلك أنهم قالوا : الحقيقة : اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والمجاز : هو المستعمل فى غير ما وضع له ، فاحتاجوا الى اثبات الوضع السابق على الاستعمال ، وهذا يتعذر . ثم يقسمون الحقيقة الى لغوية ، وعرفية ، وأكثرهم يقسمها الى ثلاث : لغوية ، وشرعية ، وعرفية .

فالحقيقة العرفية : هى ما صار اللفظ دالا فيها على المعنى بالعرف لا باللغة ، وذلك المعنى يكون تارة اعم من اللغوى ، وتارة أخص ، وتارة يكون مباينا له لكان بينهما علاقه استعمل لأجلها ، فالاول : مثل لفظ الرقبة والراس ونحوها ، كان يستعمل فى العضو المخصوص ، ثم صار يستعمل فى جميع البدن . والثانى مثل لفظ الدابة ونحوها ، كان يستعمل فى كل مادب ، ثم صار يستعمل فى عرف بعض الناس فى ذوات الاربع ، وفى عرف بعض الناس فى الفرس ، وفى عرف بعضهم فى الحمار . والثالث مثل لفظ الغائط والظعينة والراوية والمزادة ، فان الغائط فى اللغة هو المكان المنخفض من الأرض ، فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم سموا ما يخرج من الانسان باسم محله . والظعينة اسم الدابة ، ثم سموا المراة التى تركبها باسمها ، ونظائر ذلك .

والمقصود أن هذه الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطؤوا على نقلها ، ولكن تكلم بها بعض الناس وأراد منها ذلك المعنى العرفى ، ثم شاع الاستعمال ، فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال ، ولهذا زاد من زاد منهم فى حد الحقيقة فى اللغة التى بها التخاطب ، ثم هم يعلمون ، ويقولون : انه قد يغلب الاستعمال على بعض الألفاظ ، فيصير المعنى العرفى أشهر فيه ، ولا يدل عند الاطلاق الا عليه ، فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية ، واللفظ مستعمل فى هذا الاستعمال الحادث للعرفى ، وهو حقيقة من غير أن يكون لما استعمل فيه ذلك تقدم وضع ، فعلم أن تفسير الحقيقة بهذا لا يصح

وان قالوا : نعنى بما وضع له ما استعملت فيه أولا ، فيقال : من اين

يعلم ان هذه الألفاظ التى كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله، لم تستعمل قبل ذلك فى معنى شىء آخر . واذا لم يعلموا هذا النفى ، فلا يعلم انها حقيقة ، وهذا خلاف ما اتفقوا عليه . وأيضا فيلزم من هذا أن لا يقطع بشىء من الألفاظ انه حقيقة ، وهذا لا يقوله عاقل . ثم هؤلاء الذين يقولون هذا ، نجد احدهم يأتى الى الفاظ لم يعلم انها استعملت الا مقيدة ، فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثم يدعى أن ذلك هو حقيقتها من غير ان يعلم انها نطق بها مجردة ، ولا وضعت مجردة ، مثل أن يقول حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عين الشمس ، والعين النابعة ، وعين الذهب ، المشابهة ، لكن أكثرهم يقولون : ان هذا من باب المشترك ، لا من باب الحقيقة والمجاز ا فيمثل بغيره ، مثل لفظ الرأس ، يقولون : هو حقيقة فى رأس الانسان ، ثم قالوا : رأس الدرب لأوله ، ورأس العين لمنبعها ، ورأس القوم لسيدهم ، ورأس الأمر لأوله ، ورأس الشهر ، وراس الحول، وأمثال ذلك على طريق المجاز . وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجرداً ، بل يجدون أنه استعمل بالقيود فى رأس الانسان ، كقوله تعالى : ( وامسحوا برؤوسكم وار جلكم الى الكعبين ) [ المائدة · ٧ ] ونحوه وهذا القيد يمنع أن تدخل فيه تلك المعانى .

فاذا قيل : رأس العين الدرب ، ورأس الدرب ، ورأس الناس ، ورأس الأمر ، فهذا المقيد غير ذاك المقيد الدال ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك ، لكن اشتركا فى بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة فى لام التعريف ، ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الانسان أولا ، لأن الانسان يتصور رأسه قبل غيره ، والتعبير أولا هو عما يتصور أولا ، فالنطق بهذا المضاف أولا ، لا يمنع أن ينطق به مضافاً الى غيره ثانيا ، ولايكون هذا من المجاز كما فى سائر المضافات ، فاذا قيل : ابن آدم أولا ، لم يكن قولنا : ابن الفرس ، وابن الحمار مجازاً اذا قيل : بنت الانسان ، لم يكن قولنا : بنت الفرس ، مجازاً . وكذلك اذا قيل : رأس الانسان أولا ، لم يكن قولنا رأس الفرس مجازاً ، وكذلك فى سائر المضافات اذا قيل : يده أو رجله. فاذا قيل : هو حقيقة فيما أضيف الى الحيوان ، قيل : ليس جعل هذا

هو الحقيقة بأولى من أن يجعل ما اضيف الى الانسان راس ، ثم قد يضاف الى ما لا يتصوره أكثر الناس من الحيوانات الصغار التى لم تخطر ببال عامة الناطقين باللغة . فاذا قيل : انه حقيقة فى هذا ، فلماذ لا يكون حقيقة فى راس الجبل والطريق والعين ؟ ! وكذلك سائر ما يضاف الى الانسان من أعضائه . وأولاده ، ومساكنه ، يضاف مثله الى غيره ويضاف ذلك الى الجمـــادات ، فيقال : رأس الجبل ، وراس العين ، وخطم الجبل اى انفه وفم الوادى . وبطن الوادى ، وظهر الجبل ، وبطن الأرض وظهرها ، ويستعمل مع الألف وهي لفظ الظاهر والباطن فى أمور كثيرة ، والمعنى فى الجميع أن الظاهر لما ظهر فتبين ، والباطن لما بطن فخفى ، وسمى ظهر الانسان ظهرا لظهـــوره وبطن الانسان بطنا لبطونه . فاذا قيل : ان هذا حقيقة ، وذاك مجاز ، لم يكن هذا أولى من العكس . وأيضاً من الأسماء ما تكلم به اهل اللغة مفرداً ، كلفظ الانسان ونحوه ، ثم قد يستعمل مقيداً بالاضافة ، كقولهم : انســـان العين ، وابرة الذراع ، ونحو ذلك ، وبتقدير أن يكون فى اللغة حقيقة ومجاز ، فقد ادعى بعضهم أن هذا من المجاز ، وهو غلط ، فان المجاز : هو اللفظ المستعمل فى غيره ما وضع له اولا ، وهنا لم يستعمل اللفظ ، بل ركب مـــع لفظ آخر ، فصار وضعاً آخر بالاضافة . فلو استعمل مضافا فى معنى ، ثم استعمل بتلك الاضافة فى غيره كان مجازا ، بل اذا كان بعلبك وحضر موت ونحوهما مما يركب تركيب مزج بعد أن كان الأصل فيه الاضافة ، لايقال : انه مجاز ، فما لم ينطق به الا مضافا ، اولى ان لا يكون مجازاً .

واما من فرق بين الحقيقة والمجاز ، بأن الحقيقة ما يفيد المعنى مجرداً عن القرائن ، والمجاز ما لا يفيد ذلك المعنى الا مع قرينة ، أو قال . الحقيقة : ما يفيده اللفظ المطلق ، والمجاز : ما لا يفيد الا مع التقييد ، أو قال : الحقيقة : فعل ولا حرف الا مبتدأ بقيود تزيل عنه الاطلاق . فان كانت القرينة مما يمنع الذهن ، أو قال . المجاز ما صح نفيه ، والحقيقة ما لا يصح نفيها ، فانه يقال . ماتعنى بالتجريد عن القرائن ، والاقتران بالقرائن ؟ .

ان عنى بذلك القرائن اللفظية ، مثل كون الاسم يستعمل مقرونـــاً بالاضافة ، أو لام التعريف ، ويقيد بكونه فاعلا ومفعولا ومبتدأ وخبرا ، فلا

يوجد قط فى الكلام المؤلف اسم الا مقيداً . وكذلك الفعل ، ان عنى بتقييده انه لابد له من فاعل وقد يقيد بالمفعول به وظرفى الزمان والمكان ، والمفعول له ومعه ، والحال فالفعل لا يستعمل قط الا مقيداً ، وأما الحرف فأبلغ ، من الحرف اتى به لمعنى فى غيره . ففى الجملة ، لايوجد قط فى كلام تام اسم ولا فعل ولا حرف الا مقيداً بقيود تزيل عنه الاطلاق . فان كانت القرينة مما يمنع الاطلاق عن كل قيد ، فليس فى الكلام الذى يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد ، سواء كانت الجملة اسمية أو فعلية ، ولهذا كان لفظ الكلام والكلمة فى لغة العرب ، بل وفى لغة غيرهم ، لاتستعمل الا فى المقيد ، وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو ندائية ، ان قيل : انها قسم ثالث .

فأما مجرد الاسم أو الفعل أو الحرف الذى جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فهذا لا يسمى فى كلام العرب قط كلمة ، وانما تسمية هذا كلمة ، اصطلاح نحوى كما سموا بعض الألفاظ فعلا ، وقسموه الى فعل ماض ومضارع وأمر ، والعرب لم تسم قط اللفظ فعلا ، بل النحاة اصطلحوا على هذا ، فسموا اللفظ باسم مدلوله فاللفظ الدال على حدوث فعل فى زمن ماض سموه فعلا ماضياً ، وكذلك سائرها ، وكذلك حيث وجد فى الكتاب والسنة ، بل وفى كلام العرب نظمه ونثره لفظ «كلمة» ، فانما يراد به المفيد التى تسميها النحاة جملة تامة ، كقوله تعالى : ( وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً ) [ الكهف : ٥،٤ ] وقوله تعالى : ( وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ) [ التوبة : ٤٠ ] . وقوله تعالى : ( تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ) [ آل عمران : ٦٤ ] . وقوله : ( وجعلها كلمة باقية فى عقبه ) [ الزخرف : ٢٨ ] . وقوله : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) [ الفتح : ٢٦ ] . وقول النبى ﷺ : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل (١)

وقوله : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (٢) . وقوله : « ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ، يكتب

الله له بها رضوان الى يوم القيامة ، وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت ، يكتب الله بها سخطه الى يوم القيامة » (٣) . وقوله : « لقد قلت بعدك اربع كلمات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضى نفسه، سبحان الله مداد كلماته » (٤).واذا كان كل اسم وفعل وحرف يوجد فى الكلام فانه مقيد لا مطلق ، لم يجز أن يقال للفظ الحقيقة : ما دل مع الاطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه .

فان قيل : أريد القرائن دون بعض ، قيل له : اذكر الفصل بين القرينة التى يكون معها حقيقة ، والقرينة التى يكون معها مجاز ، ولن تجد الى ذلك سبيلا تقدر به على تقسيم صحيح معقول . ومما يدل على ذلك أن الناس اختلفوا فى العام اذا خص هل يكون استعماله فيما بقى حقيقة أو مجازاً ؟ وكذلك لفظ الأمر اذا أريد به الندب هل يكون حقيقة أو مجازا ؟ وفى ذلك قولان لأكثر الطوائف : لأصحاب أحمد قولان ، ولاصحاب الشافعى قولان ، ولاصحاب مالك قولان .

ومن الناس من ظن أن هذا الخلاف يطرد فى التخصيص المتصل ، كالصفة والشرط والغاية والبدل ، وجعل يحكى فى ذلك أقوال من ينصل ، كما يوجد فى كلام طائفة من المصنفين فى أصول الفقه ، وهذا مما لم يعرف أن احداً قاله ، فجعل اللفظ العام المقيد فى الصفات والغايات والشروط مجازاً ، بل لما أطلق بعض المصنفين أن اللفظ العام اذا خص يصير مجازاً ، ظن هذا الناقل أنه على التخصيص المتصل ، وأولئك لم يكن فى اصطلاحهم عام مخصوص الا خص بمنفصل ، وأما المتصل ، فلا يسمون اللفظ عاماً مخصوصا البتة ، فانه لم يدل الا متصلا ، والاتصال منعه العموم ، وهذا اصطلاح كثير من الأصوليين ، وهو الصواب . لا يقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما :انه

---

(٣) رواه البخارى مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه .

(٤) رواه مسلم .

داخل فيما خص من العموم ، ولا فى العام المخصوص ، لكن يقيد فيقـال : تخصيص متصل ، وهذا المقيد لا يدخل فى التخصيص المطلق .

وبالجملة فيقال : اذا كان هذا مجازاً ، فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به ، وبظرف الزمان والمكان ، مجازاً ، وكذلك بالحال ، وكذلك كل ما قيد ، فيلزم أن يكون الكلام كله مجازاً ، فأين الحقيقة ؟ .

فان قيل . يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة ، فما كان مع القرينة المتصلة فهو حقيقة ، وما كان مع المنفصلة كان مجازاً ، قيل : تعنى بالمتصل ما كان فى اللفظ أو ما كان موجوداً حين الخطاب ؟ فان عنيت الأول ، لزم أن يكون ما علم من حال المتكلم أو المستمع أولا قرينة منفصلة ، فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه ، كما يقول : قال النبى ﷺ وهو عند المسلمين رسول الله ، او قال الصديق ، وهو عندكم ابو بكر ، واذا قال الرجل لصاحبه: اذهب الى الأمير أو القاضى أو الوالى يريد ما يعرفانه ، أنه يكون مجازاً ، وكذلك الضمير يعود الى معلوم غير مذكور كقوله : ( انا أنزلناه ) [القدر:١] ، وقوله : ( حتى توارت بالحجاب ) [ ص : ٣٢ ] . وأمثال ذلك ، أن يكون هذا مجازاً ، وهذا لا يقوله احد ، وأيضا فاذا قال لشجاع : هذا الأسد فعل اليوم كذا ، ولبليد : هذا الحمار قال اليوم كذا ، او لعالم أو جواد : هذا البحر جرى منه اليوم كذا ، أن يكون حقيقة ، لأن قوله هذا قرينة لفظية ، فلا يبقى قط مجازاً .

وان قال : المتصل أعم من ذلك ، وهو ما كان موجوداً حين الخطاب، قيل له : فهذا أشد عليك من الأول ، فان كل متكلم بالمجاز لابد أن يقترن به حال الخطاب ما يبين مراده ، والا لم يجز التكلم به .

فان قيل : انا أجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجة، قيل : أكثر الناس لايجوزون أن يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لا يريد ذلك المعنى الا بين ، وانما يجوزون تأخير بيان ما لم يدل اللفظ عليه ، كالمجملات. ثم نقول : اذا جوزت تأخير البيان ، فالبيان قد يحصل بجملة تامة ، وبأفعال

من الرسول ، وبغير ذلك ، ولا يكون البيان المتأخر الا مستقلا بنفسه ، لايكون بما يجب اقترانه بغيره ، فان جعلت هذا مجازاً ، كقوله : ( خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ) [ التوبة : ١٠٣ ] .

ثم يقال : هب ان هذا جائز عقلا ، لكن ليس واقعاً فى الشريعة أصلا، وجميع مايذكر من ذلك باطل ، كما قد بسط فى موضعه ، فان الذين قالوا : الظاهر الذى لم يرد به ما يدل عليه ظاهرة قد يؤخر بيانه ، احتجوا بقوله : ( ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة ) [ البقرة : ٦٧ ] . وادعوا أنها كانت معينة ، واخر بيان التعين ، وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة فلو اخذوا بقرة من البقر فذبحوها ، أجزأ عنهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم ، والاية نكرة فى سياق الاثبات فهى مطلقة ، والقران يدل سياقه على أن الله ذمهم على السؤال بما هى ولو كان الأمور به معينا ، لما كانوا ملومين ، ثم ان مثل هذا لم يقع فى أمر اللهورسوله ان يامر عباده بشىء معين ، ويبهمه عليهم مرة بعد مرة، ولايذكره تختص به ابتداء . واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج ، هذه الالفاظ لها معان فى اللغة بخلاف الشرع ، وهذا غلط ، فان الله انما امرهم بالصلاة بعد أن عرفوا المامور به ، وكذلك الحج ، ولم يؤخر اللهقط بيانشىء من هذه المأمورات ، ولبسط هذه المسألة موضع أخر .
آخـــر .

واما قول من يقول : ان الحقيقة ما يسبق الى الذهن عند الاطلاق، فمن افسد الاقوال ، فانه يقال : اذا كان اللفظ لم ينطق الا مقيداً ، فانهيسبق الى الذهن فى كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع ، واما اذااطلق ، فهو لايستعمل فى الكلام مطلقا قط ، فلم يبق له حال اطلاق محض حتى يقال : ان الذهن يسبق اليه أم لا .

وايضا ، فاى ذهن ؟ فان العربى الذى يفهم كلام العرب ، يسبق الى ذهنه من اللفظ ما لا يسبق الى ذهن ذاك النبطى الذى صار يستعمل الالفاظ فى غير معانيها ، ومن هنا غلط كثير من الناس ، فانهم قد تعرفوا ما اعتادوه،

اما من خطاب عامتهم ، واما من خطاب علمائهماستعمال اللفظ فى معنى ، فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم البهم النبطية ، وعادتهم الحادثة ، وهذا مما دخل به الغلط على طوائف ، بل الواجب ان يعرف اللغة والعادة والعرف الذى نزل فى القرآن والسنة ، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ ، فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله ، لابما حدث بعد ذلك .

وايضا ، فقد بينا فى غير هذا الموضع أن الله ورسوله لم يدع شيئا من القرآن والحديث الا بين معناه للمخاطبين ، ولم يحوجهم الى شىء آخر كما قد بسطنا القول فيه فى غير هذا الموضع . فقد تبين أن مايدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ، لايوجد الا مقدراً فى الأذهان ، لا موجوداً فى الكلام المستعمل ، كما أن مايدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد الا مقدراً فى الذهن ، لا يوجد فى الخارج شىء موجود خارج عن كل قيد . ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم الى تصور وتصديق ، وان التصور هو تصور المعنى الساذج الخالى عن كل قيد لا يوجد . وكذلك ما يدعونه من البسائط التى تتركب منها الأنواع ، وانها أمور مطلقة عن كل قيد لا توجد . وما يدعونه من أن واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل أمر ثبوتى ، لا يوجد فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغى معرفتها لمن ينظر فى هذه العلوم ، فانه بسبب ظن وجودها ضل طوائف فى العقليات والسمعيات ، بل اذا قال العلماء : مطلق ومقيد ، انما يعنون به مطلقاً عن ذلك القيد ، ومقيد بذلك القيد ، كما يقولون : الرقبة مطلقة فى آيه كفارة اليمين ومقيدة فى آية القتل ، أى : مطلقة عن قيد الايمان ، والا فقد قيل : ( فتحرير رقبة ) [ النساء : ٩٢ ] ، فقيدت بأنها رقبة واحدة ، وأنها موجودة ، وأنها تقبل التحرير . والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون : هو الذى لا يتصف بوحدة ولا وجود ولا عدم ، ولا غير ذلك ، بل هو الحقيقة من حيث هى هى، كما يذكره الرازى تلقياً له عن ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة . وقد بسطنا الكلام فى هذا الاطلاق والتقييد ، والكليات والجزئيات فى مواضع غير هذا، وبينا من غلط هؤلاء فى ذلك ما ليس هذا موضعه .

وانما المقصود هنا الاطلاق اللفظى ، وهو أن يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد ، وهذا لا وجود له ، وحينئذ فلا يتكلم احد الا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض ، فتكون تلك قيود ممتنعة الاطلاق . فتبين انه ليس لمن فرق بين الحقية والمجاز فرق معقول يمكن به التميز بين نوعين ، فعلم أن هذا التقسيم باطل وحينئذ فكل لفظ موجود فى كتاب الله ورسوله فانه مقيد بما يبين معناه، فليس فى شيء من ذلك مجاز ، بل كله حقيقة. ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين ان فى القرآن مجازاً وذكروا ما يشهد لهم ، رد عليهم المنازعون جميع ماذكروه فمن اشهر ماذكروه قوله تعالى : ( جداراً يريد أن ينقض ) [ الكهف : ٧٨ ]

قالوا : والجدار ليس بحيوان ، والارادة انما تكون للحيوان ، فاستعمالها فى ميل الجدار مجاز . فقيل لهم : لفظ الارادة قد استعمل فى الميل الذى يكون معه شعور وهو ميل الحى ، وفى الميل الذى لاشعور فيه ، وهو ميل الجماد ، وهو من مشهور اللغة ، يقال : هذا السقف يريد أن يقع ، وهذه الأرض تريد أن تحرث ، وهذا الزرع يريد أن يسقى ، وهذا الثمر يريد أن يقطف ، وهذا الثوب يريد ان يغسل ، وأمثال ذلك .

واللفظ اذا استعمل فى معنيين فصاعداً ، فاما أن يجعل حقيقة فى أحدهما مجازاً فى الآخر ، أو حقيقة فيما يختص به كل منهما ، فيكون مشتركا اشتراكاً لفظياً ، أو حقيقة فى القدر المشترك بينهما ، وهى الأسماء المتواطئة ، وهى الأسماء العامة كلها ، وعلى الاول يلزم المجاز ، وعلى الثانى يلزم الاشتراك، وكلاهما خلاف الأصل ، فوجب أن يجعل من المتواطئة ، وبهذا يعرف عموم الأسماء العامة كلها ، والا قال قائل : هو فى ميل الجماد حقيقة ، وفى ميل الحيوان مجاز ، لم يكن بين الدعويين فرق الا كثيرة الاستعمال فى ميل الحيوان، لكن يستعمل مقيداً بما يبين انه اريد ميل الحيوان ، وهنا استعمل مقيداً بما يبين انه أريد به ميل الجماد . والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة أمر كلى عام لايوجد كلياً عاما الا فى الذهن ، وهو مورد التقسيم بين الأنواع لكن ذلك المعنى العام الكلى كان أهل اللغة لايحتاجون الى التعبير عنه ، لأنهم انما يحتاجون الى ما يوجد فى الخارج،والى ما يوجد فى القلوب فى العادة، وما لا يكون فى الخارج الا مضافاً الى غيره ، لا يوجد فى الذهن مجرداً ، بخلاف

لفظ الايسان والفرس ، فانه لما كان فى الخارج غير مضاف ، تعودت الأذهان تصور مسمى الانسان ، ومسمى الفرس بخلاف تصور الارادة ومسمى العلم، ومسمى الوجود المطلق العام ، فان هذا لا يوجد له فى اللغة لفظ مطلق يدل عليه ، بل لا يوجد لفظ الارادة الا مقيداً بالمريد ، ولا لفظ العلم الا مقيداً بالعالم ، ولا لفظ القدرة الا مقيداً بالقادر ، بل وهكذا سائر الأعراض لما لم توجد لا فى محالها مقيدة بها ، لم يكن لها فى اللغة لفظ الا كذلك .

فلا يوجد فى اللغة لفظ السواد والبياض ، والطول والقصر ، الا مقيداً بالأسود والابيض ، والطويل والقصير ونحو ذلك ، الا مجرداً عن كل قيد، وانما يوجد مجرداً فى كلام المصنفين فى اللغة ، لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة مايريدون به من القدر المشترك ، ومنه قوله تعالى : ( فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ) [ النحل : ١١٢ ] . فان من الناس من يقول : الذوق حقيقة فى الذوق بالفم ، واللباس بما يلبس على البدن ، وانما استعير هذا وهذا،وليس كذلك ، بل قال الخليل : الذوق فى لغة العرب هو وجود طعم الشىء ، والاستعمال يدل على ذلك ، قال تعالى : ( ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ) [ السجدة : ٢١ ] . وقال : ( ذق انك أنت العزيز الكريم ) [ الدخان : ٤٩ ] . وقال : ( فذاقت وبال أمرها ) [ الطلاق : ٩ ] . وقال : ( فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ) [ آل عمران : ١٠٦ ] . وقال: ( فذوقوا عذابى ونذر ) [ القمر : ٣٩ ] ( لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ) [ الدخان : ٥٦ ] (لايذوقون فيها برداً ولا شراباً الا حميما وغساقا) [ النبأ : ٢٤ ، ٢٥ ] وقال النبى ﷺ : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله رباً ، وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا » (١) . وفى بعض الأدعية : أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك .

فلفظ الذوق يستعمل فى كل مايحس به ، ويجد ألمه أو لذته ، فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه ، لكن ذاك مقيد فيقال:

---

(١) رواه مسلم .

ذقت الطعام ، وذقت هذا الشراب ، فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم ، واذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الايسان بباطنه ، أو بظاهره، حتى الماء الحميم يقال : ذاقه ، فالشراب اذا كان بارداً أو حاراً يقال : ذقت حره وبرده .

واما لفظ اللباس : فهو مستعمل فى كل ما يغشى الانسان ، ويلتبس به ، قال تعالى : ( وجعلنا الليل لباساً [ النبأ : ١٠ ] . وقال : ( ولباس التقوى ذلك خير ) [ الأعراف : ٢٥ ] . وقال : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) [ البقرة : ١٨٧ ] . ومنه يقال : لبس الحق بالباطل ، اذا خلطه به حتى غشيه فلم يتميز . فالجوع الذى يشمل ألمه جميع الجائع : نفسه وبدنــه ، وكذلك الخوف الذى يلبس البدن . فلو قيل : فأذاقها الله الجوع والخوف، لم يدل ذلك على أنه شامل لجميع أجزاء الجائع ، بخلاف ما اذا قيل : لباس الجوع والخوف . ولو قال : فألبسهم لم يكن فيه مايدل على أنهم ذاقوا مايؤلمهم الا بالفعل من حيث انه يعرف أن الجائع الخائف يألم بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف ، فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم ، واذا اضيف الى الملذ دل على الاحساس به ، كقوله ﷺ : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا . » (١) .

فان قيل : فلم يصف نعيم الجنة بالذوق ؟ قيل : لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ، ويقال : ذاق الطعام ، لمن وجد طعمه وان لم يأكله . وأهل الجنة نعيمهم كامل تام يقتصر فيه على الذوق ، بل استعمل لفظ الذوق فى النفى ، كما قال عن اهل النار : ( لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً )[ النبأ: ٢٤ ] . أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق ، وقال عن أهل الجنه : ( لايذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ) [ الدخان : ٥٦ ] .

وكذلك ما ادعوا انه مجاز فى القرآن كلفظ المكر والأستهزاء والسخرية المضاف الى الله ، وزعموا انه مسمى باسم مايقابله على طريق المجاز ، وليس

---

(١) تقدم قريباً .

كذلك ، بل مسميات هذه الأسماء اذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له ، وأما اذا فعلت بمن فعلها بالمجنى عليه عقوبة له بمثل فعله ، كانت عدلاً ، كما قال تعالى : ( كذلك كدنا ليوسف ) [ يوسف : ٧٦ ] . فكاد له كما كانت اخوته لما قال له أبوه : ( لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً [ يوسف : ٥ ] . وقال تعالى : ( انهم يكيدون كيداً واكيد كيداً ) [ الطارق : ١٥، ١٦ ] .وقال تعالى :(ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون، فانظر كيف كان عاقبه مكرهم ) [ النمل : ٥٠ ، ٥١ ] . وقال : ( الذين يلمزون المطعون من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لايجدون الا جهدهم فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ) [ التوبة : ٨٠ ] ولهذا كان الاستزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم ، كما روى عن ابن عباس : انه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار فيسرعون اليه فيغلق ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق ، فيضحك منهم المؤمنون ، قال تعالى:( فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ) [ المطففين : ٣٤، ٣٥ ] .

وعن الحسن البصرى : اذا كان يوم القيامة ، خمدت النار لهم كما تخمد الاهالة من القدر فيمشون فيخسف بهم . وعن مقاتل : اذا ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فيبقون فى الظلمة فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . وقال بعضهم : استهزاؤه استدراجه لهم . وقيل : ايقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم . وقيل: انه يظهر لهم فى الدنيا خلاف ما أبطن فى الآخرة ، وقيل : هو تجهليهم وتخطئتهم فيما فعلوه ، وهذا كله حق وهو استهزائهم حقيقة (١) .

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن : ( واسأل القرية )

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية ما نصه :
وفى بعض الآثار : الله سبحانه يأمر من الناس الى الجنة حتى اذا رأوها وشاهدوا ما فيها من الكرامة قال الله للملائكته : اصرفوهم عنها لاحظ لهم فيها. قالوا : ياربنا لو ادخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون فى عذابنا قال الله : ذلك أردت بكم اذا لقسم الناس ليقيتموهم مخبتين متواضعين ، واذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم اجللتم الناس ولم تجلونى ، وعظمتم الناس ولم

[ يوسف : ٨٢ ] . قالوا المراد به أهلها ، فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ، فقيل لهم : لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب ، وامثال هذه الأمور التى فيها الحال والمحل وكلاهما داخل فى الاسم ، ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان وكذلك فى النهر يقال : حفرت النهر ، وهو المحل ، وجرى النهر ، وهو الماء ، ووضعت الميزاب ، وهو المحل ، وجرى الميزاب ، وهو الماء ، وكذلك القرية ، قال تعالى : ( وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ) [ النحل : ١١٢ ] . وقوله : ( وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ، فما كان دعواهم اذا جاءهم بأسنا الا أن قالوا انا كنا ظالمين ) [ الأعراف : ٣ — ٤ ] . وقال فى آية أخرى : ( أفأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً أوهم نائمون ) [ الأعراف : ٦٠ ] . فجعل القرى هم السكان . وقال : ( وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ) [ محمد: ١٣ ] . وهم السكان . وكذلك قوله تعالى : ( وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ) [ الكهف : ٦٠ ] . وقال تعالى : ( أو كالذى مر على قريه وهى خاوية على عروشها ) [ البقرة : ٢٦٩ ] . فهذا المكان لا السكان ، لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكوناً ،فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى، مأخوذ من القرى وهو الجمع ، ومنه قولهم : قريت الماء فى الحوض اذا جمعته فيه .

ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ، ثم الأحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما ، فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت ، واذا خربت كان عذاباً لأهلها ، فما يصيب أحدهما من الشر ، ينال الآخر ، كما ينال البدن والروح مايصيب أحدهما ، فقوله : ( واسأل القرية ) [ يوسف: ٨٢ ] . مثل قوله : ( قرية كانت مطمئنة ) [ النحل : ١١٢ ] فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف فهذا بتقدير أن يكون فى اللغة مجاز ،

---

تعظمونى ، وخفتم الناس ولم تخافونى ، فاليوم أذيقكم اليم عذابى ، كما حرمتكم جزيل وابى ذكره ابن ابى الدنيا وغيره .

فلا مجاز فى القرآن . بل وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف ، والخلف فيه على قولين ، وليس النزاع فيه لفظ ، بل يقال : نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ، ولهذا كان ما يذكرونه من الفروق تبين أنها فروق باطلة ، وكلما ذكر بعضهم فرقاً أبطله الثانى ، كما يدعى المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها الى داخل فى ماهيتها الثابتة فى الخارج ، والى خارج عنها لازم للماهية ، ولازم خارج للوجود (١) . وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة ، لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له ، بل ما يجعلونه داخلا يمكن جعله خارجاً ، وبالعكس كما قد بسط فى موضعه .

وقولهم : اللفظ ان دل بلا قرينة فهو حقيقة ، وان لم يدل الا معها فهو مجاز ، قد تبين بطلانه ، وانه ليس فى الألفاظ الدالة ما يدل مجرداً عن جميع القرائن ، ولا فيها ما يحتاج الى جميع القرائن . واشهر أمثلة المجاز لفظ الأسد والحمار والبحر ، ونحو ذلك مما يقولون انه استعير للشجاع والبليد والجواد . وهذه لاتستعمل الا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية ، كما تستعمل الحقيقة ، كقوله أبى بكر الصديق عن أبى قتادة لما طلب غيره سلب القتيل: لاها الله اذاً لايعمد الى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله يعطيك سلبه . فقوله : يعمد الى اسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، وصف له بالقوة للجهاد (١) فى سبيله ، وقد عينه تعييناً أزال اللبس وكذلك قول النبى ﷺ : « ان خالداً سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » ، وأمثال ذلك .

وان قال القائل : القرائن اللفظية موضوعة ، ودلالتها على المعنى حقيقة ، لكن القرائن الحالية مجاز ، قيل : اللفظ لا يستعمل قط الا مقيداً بقيود لفظية موضوعة ، والحال حال المتكلم والمستمع لابد من اعتباره فى جميع الكلام ، فانه اذا عرف المتكلم ، فهم من معنى كلامه مالا يفهم اذا لم يعرف ،

---

(١) وعلى هامش الهندية : ونسخة ( للموجود )

(١) على هامش الهندية : وفى نسخة ( بالقوة فى الجهاد ) .

لأنه بذلك يعرف عادته فى خطابه ، واللفظ انما يدل اذا عرف لغة المتكلم التى بها يتكلم ، وهى عادته وعرفه الذى يعتاده فى خطابه ، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية ارادية اختيارية ، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى، فاذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها ، عرف عادته فى خطابه ، وتبين له من مراده مالا يتبين لغاه .

ولهذا ينبغى أن يقصد اذا ذكر لفظ من القرآن والحديث ، أن يذكر نظائر ذلك اللفظ (٢) ، ماذا عنى بها الله ورسوله ، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث ، وسنة الله ورسوله التى يخاطب بها عباده ، وهى العادة المعروفة من كلامه ، ثم اذا كان لذلك نظائر فى كلام غيره ، وكانت النظائر كثيرة ، عرف

وعلى هامش النسخة الهندية : وفى لفظ نسخة ( من نظائر اللفظ ).

أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة ، لايختص بها هو ﷺ ، بل هى لغة قومه، ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده فى الخطاب لم يكن معروفة فى خطابه وخطاب أصحابه ، كما يفعله كثير من الناس ، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك فى زمانه ، ولهذا كان استعمال القياس فى اللغة ، وان جاز فى الاستعمال ، فانه لا يجوز فى الاستدلال ، فانه قد يجوز للانسان أن يستعمل هو اللفظ فى نظير المعنى الذى استعملوه فيه مع بيان ذلك على مافيه من النزاع ، لكن لا يجوز أن يعمد الى ألفاظ قد عرف استعمالها فى معان فيحملها على غير تلك المعانى ، ويقول : انهم أرادوا تلك بالقياس على تلك ، بل هذا تبديل وتحريف . فاذا قال : « الجار أحق بسقبه » (١) فالجار هو الجار ليس هو الشريك ، فان هذا لا يعرف فى لغتهم ، لكن ليس فى اللفظ مايقتضى أنه يستحق الشفعة ، لكن يدل على أن البيع له أولى .

وأما الخمر ، فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة أنها كانت اسماً لكل مسكر ، لم يسم النبيذ خمراً بالقياس ، وكذلك النباش كانوا

---

(١) رواه البخارى .

يسمونه سارقاً ، كما قالت عائشة : سارق موتانا كسارق أحيائنا ، واللائط عندهم كان اغلظ من الزانى بالمرأة ، ولا بد فى تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربية التى خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الالفاظ على المعانى ، فان عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ، فانهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على مايدعون انه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ويجعلون هذه الدلالة حقيقة ، وهذه مجازاً ، كما أخطأ المرجئة فى اسم الايمان . جعلوا لفظ الايمان حقيقة فى مجرد التصديق ، وتناوله للأعمال مجازاً .

فيقال : ان لم يصح التقسيم الى حقيقة ومجاز ، فلا حاجة الى هذا، وان صح ، فهذا لا ينفعكم ، بل هو عليكم لا لكم ، لأن الحقيقة هى اللفظ الذى يدل باطلاقه بلا قرينة ، والمجاز انما يدل بقرينة ، وقد تبين أن لفظ الايمان حيث أطلق فى الكتاب والسنة ، دخلت فيه الأعمال ، وانما يدعى خروجها منه عند التقييد ، وهذا يدل على أن الحقيقة قوله : « الايمان بضع وسبعون شعبه » .

واما حديث جبريل ، فان كان أراد بالايمان ماذكر مع الاسلام ، فهو كذلك . وهذا هو المعنى الذى أراد النبى ﷺ قطعاً ، كما أنه لما ذكر الاحسان أراد مع الايمان والاسلام ، لم يرد أن الاحسان مجرد عن ايمان واسلام . ولو قدر انه اريد بلفظ الايمان مجرد التصديق ، فلم يقع ذلك الا مع قرينة ، فيلزم أن يكون مجازاً ، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث ، بخلاف كون لفظ الايمان فى اللغة مرادفاً للتصديق ، ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله ، بل أراد به ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص ولا تقييد ، فان هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما ، فلا يعارض اليقين ، كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين ، وأنها من أفسد الكلام .

وأيضاً فليس لفظ الايمان فى دلالته على الأعمال المأمور بها بدون لفظ

الصلاة والصيام والزكاة والحج ، فى دلالته على الصلاة الشرعية ، والصيام الشرعى ، والحج الشرعى ، سواء قيل : ان الشارع نقله ، أو اراد الحكم دون الاسم ، أو أراد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل العرف ، أو خاطب بالاسم مقيداً لا مطلقاً .

فان قيل : الصلاة والحج ونحوهما ، لو ترك بعضها بطلت ، بخلاف الايمان ، فانه لا يبطل عند الصحابه وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب ، قيل : ان أريد بالبطلان انه لاتبرأ الذمة منها كلها ، فكذلك الايمان الواجب اذا ترك منه شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله ، وان أريد به وجوب الاعادة ، فهذا ليس على الاطلاق ، فان فى الحج واجبات اذا تركها لم يعد ، بل تجبر بدم، وكذلك فى الصلاة عند أكثر العلماء اذا تركها سهوا أو مطلقا وجبت الاعادة ، فانما تجب اذا أمكنت الاعادة ، والا فما تعذرت اعادته يبقى مطالباً به كالجمعة ونحوها ، وان أريد بذلك أنه لا يثاب على مافعله ، فليس كذلك ، بل قد يبين النبى ﷺ فى حديث المسىء فى صلاته أنه اذا لم يتمها يثاب على مافعل، ولايكون بمنزلة من لم يصل ، وفى عدة أحاديث أن الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل ، فاذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على أنه يعتمد له بما فعل منها ، فكذلك الايمان اذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله ، ان كان محرما تاب منه ، وان كان واجباً ، فعله ، فاذا لم يفعله ، لم تبرأ ذمته منه، واثيب على ما فعله كسائر العبادات ، وقد دلت النصوص على أنه يخرج من النار من قلبه مثقال ذرة من الايمان .

وقد عدلت المرجئة فى هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم باحسان ، واعتمدوا على رأيهم ، وعلى ماتأولوه بفهمهم اللغة ، وهذه طريقة أهل البدع ، ولهذا كان الامام أحمد يقول : اكثر مايخطىء الناس من جهة التأويل والقياس .

ولهذا نجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم ، وما تأولوه من اللغة ، ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبى ﷺ والصحابة والتابعين وائمة المسلمين ،

فلا يعتمدون لا على السنة ، ولا على اجماع السلف وآثارهم ، وانما يعتمدون على العقل واللغة ، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف ، وانما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التى وضعتها رؤوسهم ، وهذه طريقة الملاحدة أيضاً ، انما يأخذون ما فى كتب الفلسفة، وكتب الأدب واللغة ، وأما كتب القرآن والحديث والآثار ، فلا يلتفتون اليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء اذ هى عندهم لا تفيد العلم ، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبى ﷺ وأصحابه ، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره فى انكار هذا وجعله طريقة أهل البدع .

واذا تدبرت حججهم ، وجدت دعاوى لايقوم عليها دليل ، والقاضى أبو بكر الباقلانى نصر قول جهم فى مسألة الايمان لأبى الحسن الاشعرى . وكذلك اكثر أصحابه ، فأما أبو العباس القلانسى ، وابو على الثقفى ، وابو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضى أبى بكر وصاحب أبى الحسن ، فانهم نصروا مذاهب السلف ، وابن كلاب نفسه ، والحسين بن الفضل البجلى ونحوهما كانوا يقولون : هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبى سليمان ، ومن اتبعه مثل أبى حنيفة وغيره أ

## فصل

وأبو الحسن الاشعرى نصر قول جهم فى الايمان ، مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة من أنه يستثنى فى الايمان ، فيقول : أنا مؤمن ان شاء الله لانه نصر مذهب أهل السنة فى انه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، ولا يخلدون فى النار ، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك ، وهو دائما ينصر فى المسائل التى فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث ، ولكنه لم يكن خبيرا بمأخذهم ، فينصره على ما يراه هو من الاصول التى تلقاها عن غيرهم، فيقع فى ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل فى مسألة الايمان، ونصر فيها قول جهم مع نصره للاستثناء ، ولهذا خالفه كثير من أصحابه فى كما سنذكر مأخذه فى ذلك ، واتبعه اكثر اصحابه على نصر قول جهم فى ذلك ، ومن لم يقف الا على كتب الكلام ، ولم يعرف ما قاله السلف وائمة السنة فى هذا الباب،

فيظن أن ما ذكروه هو قول أهل السنة ، وهو قول لم يقله أحد من أئمة السنة، بل قد كفر بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم فى الايمان الذى نصره ابو الحسن ، وهو عندهم شر من قول المرجئة ، ولهذا صار من يعظم الشافعى من الزيدية والمعتزلة ونحوهم يطعن فى كثير ممن ينتسب اليه يقولون : الشافعى لم يكن فيلسوفاً ولا مرجئا ، وهؤلاء فلاسفة اشعرية مرجئة ، وغرضهم ذم الارجاء ، ونحن عملتهم لكونه مشهوراً عند كثير من المتأخرين المنتسبين الى السنة .

قال القاضى أبو بكر فى « التمهيد » : فان قالوا : فخبرونا ما الايمان عندكم ؟ قيل : الايمان هو التصديق بالله وهو العلم ، والتصديق يوجد بالقلب فان قال : فما الدليل على ما قلتم ؟ قيل : اجماع أهل اللغة قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن وبعثة النبى ﷺ هو التصديق ، لايعرفون فى اللغة ايماناً غير ذلك ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ( وما أنت بؤمن لنا ) [ يوسف: ١٧ ] ، أى بمصدق لنا ، ومنه قولهم : فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان لايؤمن بعذاب القبر ، أى لايصدق بذلك ، فوجب أن الايمان فى الشريعة هو الايمان المعروف فى اللغة ، لأن الله ما غير اللسان العربى ولا قلبه ، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله ، وتوفرت دواعى الامة على نقله ، ولغلب اظهاره على كتمانه ، وفى علمنا بأنه لم يفعل ذلك ، بل اقرار اسماء الأشياء والتخاطب باسره على ما كان ، دليل على أن الايمان فى الشريعة هو الايمان اللغوى، ومما يبين ذلك قوله تعالى : ( وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ) [ ابراهيم : ٣ ] وقوله : ( انا جعلنا قرآناً عربيا ) [ الزخوف : ٣ ] . فأخبر أنه أنزل القرآن بلغة العرب ، وسمى الأسماء بمسمياتهم ، ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة لا سيما مع القول بالعموم ، وحصول التوقيف على أن القرآن نزل بلغتهم ، فدل على ماقلناه من أن الايمان ماوصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات ، هذا لفظه .

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية فى مسألة الايمان ، وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة .

أحدها : قول من ينازعه فى أن الايمان فى اللغة مرادف للتصديـق ، ويقول : هو بمعنى الاقرار وغيره .

الثانى : قول من يقول : وان كان فى اللغة هو التصديق ، فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما قال النبى ﷺ : « والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

والثالث : ان يقال ليس هو مطلق التصديق ، بل هو تصديق خاص مقيد بقيود اتصل بها ، وليس هذا نقلا للفظ ولا تغيراً له ، فان الله لم يأمرنا بايمان مطلق ، بل بايمان خاص وصفه وبينه .

والرابع : ان يقال : وان كان هو التصديق ، فالتصديق ، فالتصديق التام القائم مستلزم لما وجب من اعمال القلب والجوارح ، فان هذه لـوازم الايمان التام ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ، ويقول : ان هـذه اللوازم تدخل فى مسمى اللفظ تاره وتخرج عنه أخرى .

الخامس : قول من يقول : ان اللفظ باق على معناه فى اللغة ، ولكن الشارع زاد فيه أحكاماً .

السادس : قول من يقول : ان الشارع استعمله فى معناه المجازى ، فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوى .

السابع : قول من يقول : انه منقول .

فهذه سبعة أقوال : الأول : قول من ينازع فى أن معنـاه فى اللغـة التصديق ، ويقول : ليس هو التصديق ، بل بمعنى الاقرار وغيره . قوله: اجماع أهل اللغة قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن هو التصديـق ، فيقال له : من نقل هذا الاجماع ؟ ومن أين يعلم هذا الاجماع ؟ وفى أى كتاب ذكر هذا الاجماع ؟ .

---

(١) هو عجز حديث أخرجه الشيخان عن أبى هريرة .

الثانى : أن يقال : اتعنى بأهل اللغة نقلتها ، كأبى عمرو ، والأصمعى، والخليل ، ونحوهم ، أو المتكلمين بها ؟ فان عنت الاول ، فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الاسلام باسناد ، وانما ينقلون ما سمعوه من العرب فى زمانهم، وما سمعوه فى دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالاسناد ، ولانعلم فيما نقلوه لفظ الايمان فضلا عن أن يكونوا اجمعوا عليه ، وان عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الاسلام ، فهؤلاء لم نشهدهم ، ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك .

الثالث : أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم انهم قالوا : الايمان فى اللغة: هو التصديق ، بل ولا عن بعضهم ، وان قدر أنه قاله واحد او اثنان ، فليس هذا اجماعاً .

الرابع : أن يقال : هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا : معنى هذا اللفظ كذا وكذا ، وانما ينقلون الكلام المسموع من العرب ، وأنه يفهم منه كذا وكذا ، وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلاماً عن العرب يفهم منه أن الايمان هو التصديق ، لم يكن ذلك ابلغ من نقل المسلمين كافة للقرآن عن النبى ﷺ، واذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده ، فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى .

الخامس : أنه لو قدر أنهم قالوا هذا ، فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التو تر، والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة ، واين التواتر الموجــود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن انهم كانوا لايعرفون للايمان معنى غــير التصديق ؟

فان قيل: هذا يقدح فى العلم باللغة قبل نزول القرآن ، قيل : فليكن، ونحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه به من القرآن ان نعرف اللغــة قبل نزول القرآن ، والقرآن نزول بلغة قريش ،والذين خوطبوا به كانوا عرباً، وقد فهموا ما أريد به وهم الصحابة ، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه الى التابعين حتى انتهى الينا ، فلم يبق بنا حاجة الى أن تتواتر عندما تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظاً ومعنى ، وعرفنا

انه نزل بلغتهم ، عرفنا انه كان فى لغتهم لفظ السماء والأرض ، والليل والنهار، والشمس والقمر ، ونحو ذلك على ما هو معناها فى القرآن ، والا فلو كلفنا نقلا متواتراً لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن ، لتعذر علينا ذلك فى جميع الألفاظ ، لا سيما اذا كان المطلوب أن جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى ، فان هذا يتعذر العلم به ، والعلم بمعانى القرآن ليس موقوفا على شىء من ذلك ، بل الصحابة بلغوا معانى القرآن ، كما بلغوا لفظه . ولو قدرنا أن قوماً سمعوا كلاما عجميا ، وترجموه لنا بلغتهم ، لم نحتج الى معرفة اللغة التى خوطبوا بها أولا .

السادس : أنه لم يذكر شاهداً من كلام العرب ما ادعاه عليهم ، وانما استدل من غير القرآن بقول الناس : فلان يؤمن بالشفاعة ، وفلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان يؤمن بعذاب القبر ، وفلان لا يؤمن بذلك ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن ، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة ، لما صار من الناس اهل البدع يكذبون الشفاعة وعذاب القبر ومرادهم ذلك لايؤمن هو مرادهم بقوله : فلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان لا يؤمن بذلك ، والقائل لذلك وان كان تصديق القلب دللا فى مراده ، مليس مراده ذلك وحده ، بل مراده التصديق بالقلب واللسان ، فان مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه .

السابع : أن يقال : من قال ذلك ، فليس مراده التصديق بمايرجى ويخاف بدون بدون خوف ولا رجاء ، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه، ويصدق بالشفاعه ويرجوها ، والا فلو صدق بأنه يعذب فى قبره ، ولم يكن فى قلبه خوف من ذلك أصلا ، لم يسموه مؤمنا به ، كما أنهم لايسمون مؤمنا بالجنة والنار الا من رجا الجنة وخاف النار ، دون المعرض على ذلك بالكلية مع علمه بانه حق ، كما لايسمون أبليس مؤمنا بالله ، وان كان مصدقا بوجوده وربوبيته ولا يسمون فرعون مؤمنا ، وان كان عالما بأن الله بعث موسى ، وأنه هو

فيلكن ، ونحن لاحاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن ، والقرآن نزل بلغة قريش ، والذين خوطبوا به كانوا عرباً ، وقد فهموا ما أريد به وهم الصحابة ، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه الى التابعين حتى انتهى الينا ، فلم يبق بنا حاجة الى أن تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظاً ومعنى ، وعرفنا انه نزل بلغتهم ، عرفنا أنه كان فى لغتهم لفظ السماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك على ما هو معناها فى القرآن ، والا فلو كلفنا نقلا متواتراً لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن ، لتعذر علينا ذلك فى جميع الألفاظ ، لاسيما اذا كان المطلوب أن جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى ، فان هذا يتعذر العلم به ، والعلم بمعانى القرآن ليس موقوفاً على شىء من ذلك ، بل الصحابة بلغوا معانى القرآن ، كما بلغوا لفظه . ولو قدرنا ان قوماً سمعوا كلاما عجميا ، وترجموه لنا بلغتهم ، لم نحتج الى معرفة اللغة التى خوطبوا بها أولا .

السادس : انه لم يذكر شاهداً من كلام العرب على ما ادعاه عليهم ، وانما استدل من غير القرآن بقول الناس : فلا يؤمن بالشفاعة ، وفلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان يؤمن بعذاب القبر ، وفلان لايؤمن بذلك ومعلوم آن هذا ليس من الفاظ العرب قبل نزول القرآن ، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة ، لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر ، ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله : فلان يؤمن بالجنة والنار ، وفلان لايؤمن بذلك ، والقائل لذلك وان كان تصديق القلب داخلا فى مراده ، فليس مراده ذلك وحده ، بل مراده التصديق بالقلب واللسان ، فان مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه .

السابع : أن يقال : من قال ذلك ، فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولارجاء ، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه ، ويصدق بالشفاعة ويرجوها ، والا فلو صدق بأنه يعذب فى قبره ، ولم يكن فى قلبه

خوف من ذلك اصلا ، لم يسموه مؤمناً به ، كما انهم لا يسمون بالجنة والنار الا من رجا الجنة وخاف النار ، دون المعرض عن ذلك بالكلية مع علمه بانه حق ، كما لا يسمون ابليس مؤمناً وان كان عالما بأن الله بعث موسى ، وانه هو الذى أنزل الآيات ، وقد استيقنت بها مع جحدهم لها بالسنتهم ، ولا لا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول، وان كانوا يعرفون انه حق ،كما يعرفون أبناءهم.فلا يوجد قط فى كلام العرب أن من علم وجود شىء مما يخاف ويرجى ، ويجب حبه ولا يعظمه ، ولا يخافه ولا يرجوه ، بل يجحد به ويكذب به بلسانه ، انهم يقولون : هو مؤمن به ، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه، لم يقولوا : هو مصدق به ، ولو صدق مع العمل بخلاف مقتضاه ، لم يقولوا: هو مؤمن به ، فلا يوجد فى كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه . وقوله : ( وما أنت بمؤمن لنا )— [ يوسف : ١٧ ] — وقد تكلمنا عليها فى غير الموضوع فان هذا استدلال بالقرآن ، وليس فى الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن فان صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على انه مرادف للآخر، كما بسطناه فى موضعه .

الوجه الثامن : قوله : لايعرفون فى اللغة ايمانا غير ذلك من اين لـه هذا النفى الذى لاتمكن الاحاطة به ؟ بل هو قول بلا علم .

التاسع : قوله من يقول : اصل الايمان ماخوذ من الأمن ، كما ستأتى أقوالهم ان شاء الله . وقد نقلوا فى اللغة الايمان بغير هذا المعنى ، كما قاله الشيخ ابو البيان فى قول (١) .

الوجه العاشر : انه لو فرض أن الايمان فى اللغة التصديق ، فمعلوم أن الايمان ليس هو التصديق بكل شىء ، بل بشىء مخصوص وهو ما اخبر به الرسول ﷺ ، وحينئذ فيكون الايمان فى كلام الشارع أخص من الايمان فى اللغة ، ومعلوم أن الخاص ينضم اليه قيود لاتوجد فى جميع العام ، كالحيوان اذا بعض أنواعه وهو الانسان ، كان فيه المعنى العام ، ومعنى اختص به،

(١) هنا بياض فى الأصل . هكذا كتب فى سائر النسخ التى بين ايدينا.

وذلك المجموع ليس هو المعنى العام ، فالتصديق الذى هو الايمان ، أدنى احواله أن يكون نوعاً من التصديق العام ، فلا يكون مطابقا له فى العموم والخصوص من غير تغيير اللسان ولا قلبه ، بل يكون الايمان فى كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص ، كالانسان الموصوف بأنه حيوان وانه ناطق .

الحادى عشر ان القرآن ليس فيه ذكر ايمان مطلق غير مفسر ، بل لفظ الايمان فيه أما مقيد ، وأما مطلق مفسر ، فالمقيد كقوله : ( يؤمنون بالغيب ) [ البقرة : ٣ ] . وقوله : ( فما آمن لموسى الا ذرية من قومه ) [ يونس : ٨٣ ] . والمطلق المفسر كقوله تعالى : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) [ الأنفال : ١ ] . وقوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ] . ونحو ذلك . وقوله : ( فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ) [ النساء : ٦٤ ] وأمثال هذه الآيات . وكل ايمان مطلق فى القرآن فقد بين فيه انه لا يكون الرجل مؤمناً الا بالعمل مع التصديق ، فقد بين فى القرآن أن الايمان لابد فيه من عمل مع التصديق ، كما ذكر مثل ذلك فى اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فان قيل : تلك الأسماء باقية ، ولكن ضم الى المسمى أعمالا فى الحكم لا فى الاسم ، كما يقول القاضى أبو يعلى وغيره ، قيل : ان كان هذا صحيحاً قيل مثله فى الايمان ، وقد أورد هذا السؤال لبعضهم ، ثم لم يجب عنه بجواب صحيح ، بل رغم أن القرآن لم يذكر فيه ذلك ، وليس كذلك ، بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على ان الرجل لايثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق . وهذا فى القرآن اكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة ، فان تلك انما فسرتها السنة ، والايمان بين معناه الكتاب والسنة ، واجماع السلف .

الثانى عشر : انه اذا قيل : ان الشارع خاطب الناس بلغة العرب، فانما خاطبهم بلغتهم المعروفة ، وقد جرى عرفهم أن الاسم يكون مطلقاً وعاما،

ثم يدخل فيه قيد أخص من معناه ، كما يقولون : ذهب الى القاضى والوالى والأمير ، يريدون شخصاً معينا يعرفونه (١) دلت عليه اللام مع معرفتهما به. وهذا الاسم فى اللغة اسم جنس لايدل على خصوص شخص ، وأمثال ذلك، فكذلك الايمان والصلاة والزكاة ، انما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف ، وقد عرفهم قبل ذلك أن المراد الايمان الذى صفته كذا وكذا ، والدعاء الذى صفته كذا وكذا ، فبتقدير أن يكون فى لغتهم التصديق ، فانه قد بين أنه لايكتفى بتصديق القلب واللسان ، فضلا عن تصديق القلب وحده ، بل لابد أن يعمل بموجب ذلك التصديق ، كما فى قوله تعالى : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ) [ الحجرات : ١٥ ] . ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) [ الأنفال : ٢ ] . وفى قوله ﷺ : لاتؤمنون حتى تكونوا كذا ، وفى قوله تعالى : ( لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ) [ المجادلة : ٢٢ ] . وفى قوله : ( ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم أولياء ) [ المائدة : ٨٤ ] . ومثل هذا كثير فى الكتاب والسنة ، كقوله عليه السلام : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وقوله : « لايؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » . وأمثال ذلك .

فقد بين لهم أن التصديق الذى لايكون الرجل مؤمناً الا به ، هو أن يكون تصديقاً على هذا الوجه ، وهذا بين فى القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها .

الثالث عشر : أن يقال : بل نقل وغير ، قوله : لو نقل لتواتر ، قيل: نعم وقد تواتر أنه أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة ، وأراد بالايمان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من أن العبد لايكون مؤمناً الا به ، كقوله : ( انما المؤمنون ) [ الأنفال : ٢ ] . وهذا متواتر فى القرآن «والسنن»، ومتواتر أيضاً أنه لم يكن يحكم لأحد بحكم الايمان الا أن يؤدى الفرائض .

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : صوابه معروفا بـه : كما فى نسخة خطية .

ومتواتر عنه أنه أخبر أنه : من مات مؤمناً دخل الجنة ولم يعذب ، وأن الفساق لا يستحقون ذلك ، بل هم معرضون للعذاب . فقد تواتر عنه من معانى اسم الايمان وأحكامه ما لم يتواتر عنه فى غيره ، فأى تواتر ابلغ من هذا ؟! وقد توفرت الدواعى على نقل ذلك واظهاره، ولله الحمد . ولا يقدر احد أن ينقل عن النبى ﷺ نقلا يناقض هذا . لكن اخبر أنه يخرج منها من كان معه شيء من الايمان ، ولم يقل : ان المؤمن يدخلها ، ولاقال : ان الفساق مؤمنون ، لكن ادخلهم فى مسمى الايمان فى مواضع ، كما ادخل المنافقين فى اسم الايمان فى مواضع مع القيود ، وأما الاسم لمطلق الذى وعد اهله بالجنة فلم يدخل فيه لاهؤلاء ولا هؤلاء .

الرابع عشر : ولا وجه للعدول ــ بالآيات التى تدل على انه عربى ــ عن ظاهرها ، فيقال له : الآيات التى فسرت المؤمن ، وسلبت الايمان عمن لم يعمل ، اصرح واجبن واكثر من هذه الآيات ، ثم اذا دلت على أنه عربى ، فما ذكر لايخرجه عن كونه عربياً ، ولهذا لما خاطبهم بلفظ الصلاة والحج وغير ذلك ، لم يقولوا : هذا ليس بعربى ، بل خاطبهم باسم المنافقين ، وقد ذكر اهل اللغة أن هذا الاسم يكن يعرف فى الجاهلية ، ولم يقولوا: انه ليس بعربى ، لأن النافق مشتق من نفق اذا خرج ، فاذا كان اللفظ مشتقاً من لغتهم ، وقد تصرف فيه المتكلم به كما جرت عادتهم فى لغتهم ، لم يخرج ذلك عن كونه عربياً .

الخامس عشر : انه لو فرض أن هذه الألفاظ ليست عربية ، فليس تخصيص عموم هذه الألفاظ بأعظم من اخراج لفظ الايمان عما دل عليه الكتاب والسنة واجماع السلف ، فان النصوص التى تنفى الايمان عمن لا يحب الله ورسوله ، ولا يخاف الله ولا يعمل شيئاً من الواجب ، ولا يترك شيئاً من المحرم ، كثيرة صريحة ، فاذا قدر انها عارضها آية ، كان تخصيص اللفظ القليل العام اولى من رد النصوص الكثيرة الصريحة .

السادس عشر : ان هؤلاء واقفة فى الفاظ العموم لايقولون بعمومها،

والسلف يقولون : الرسول وقفنا على معانى الايمان ، وبينه لنا ، وعلمنا مراده منه بالاضطرار،وعلمنا من مراده علماً ضروريا أن من قيل:انه صدق ولم يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ، ولاصلى ولاصام،ولاأحب الله،بل كان مبغضاً له يقاتله ، أن هذا ليس بؤمن ، كما قد علمنا أن الكفار من المشركين واهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله ، وفعلوا ذلك معه، كانوا عنده كفاراً لا مؤمنين ، فهذا معلوم عندنا بالاضطرار أكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربى ، فلو قدر التعارض ، لكان تقديم ذلك العلم الضرورى أولى .

فان قالوا : من علم ان الرسول كفره ، علم انتفاء التصديق (١) من قلبه .

قيل لهم : هذه مكابرة ، ان ارادوا انهم كانوا شاكين مرتابين ، وأما ان عنى التصديق الذى لم يحصل معه عمل ، فهو ناقص كالمعدوم ، فهذا صحيح . ثم انما يثبت ، اذا أن الايمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، وذاك انما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التى منها هذا ، فلا تثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها . ثم يقال : قد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله ، وكان يحكم بكفرهم ، فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته فى القلب ، اذا لم يعمل بهذا التصديق ، بحيث يحبه ويعظمه ، ويسلم لما جاء به .

ومما يعارضون به أن يقال ، هذا الذى ذكرتموه ، ان كان صحيحاً ، فهو أدل على قول المرجئة ، بل على قول الكرامية (١) منه على قولكم ، وذلك أن الايمان اذا كان كما ذكرتم ، فالتصديق نوع من أنواع الكلام ، فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك فى المعنى واللفظ ، بل فى اللفظ الدال على المعنى ، اكثر فى اللغة من استعماله فى المعنى المجرد عن اللفظ ، بل لايوجد

---

(١) وعلى هامش النسخة وفى نسخة : علم انتفاء ايمانه .

قط اطلاق اسم الكلام ولا انواعه ، كالخبر او التصديق والتكذيب والأمر والنهى أ على مجرد المعنى من غير شىء يقترن به من عبارة ولا اشارة ولا غيرهما ، وانما يستعمل مقيداً . واذا كان الله انما انزل القران بلغة العرب، فهى لاتعرف التصديق والتكذيب وغيرهما من الأقوال الا ما كان معنى ولفظا ، أو لفظاً يدل على معنى ، ولهذا لم يجعل الله احداً مصدقا للرسل بمجرد العلم والتصديق الذى فى قلوبهم ، حتى يصدقوهم بألسنتهم ، ولايوجد فى كلام العرب ان يقال : فلان صدق فلاناً أو كذبه ، اذا كان يعلم بقلبه انه صادق أو كاذب ولم يتكلم بذلك ، كما لايقال : أمره او نهاه ، اذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ أو اشارة أو نحوها ولما قال النبى ﷺ : « ان صلاتنا هذه لايصلح فيها شىء من كلام الناس » (٢) وقال : «ان الله يحدث من أمره ما شاء ، وان مما احدث أن لا تكلموا فى الصلاة » (١) . اتفق العلماء على انه اذا تكلم فى الصلاة عامداً لغير مصلحتها ، بطلت صلاته ، واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب ، لايبطل الصلاة ، وانما يبطلها التكلم بذلك ، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام .

وأيضاً ففى « الصحيحين » عن النبى ، ﷺ ، انه قال : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به او تعمل به » (٢) فقد اخبر ان الله عفا عن حديث النفس الا أن تتكلم ، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام ، واخبر انه لايؤاخذ به حتى يتكلم به ، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء ، فعلم أن هذا هو الكلام فى اللغة لأن الشارع كما قرر انما خاطبنا بلغة العرب .

وأيضاً ففى « السنن » أن معاذاً قال له : يارسول الله ! وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو قال : على

(١) وعلى هامش النسخة الهندية وفى نسخة : علم انتقاء ايمانه .
(١) وعلى هامش النسخة الهندية : فالكرامية يقولون : هو النطق باللسان فقط .

مناخرهم الا حصائد السنتهم ».(٣) . فبين أن الكلام انما هو مايكون باللسان؛ فى « الصحيح » عن النبى ﷺ انه قال : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : الا كل شىء ما خلا الله باطل .

وفى « الصحيحين » انه قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» وقد قال الله تعالى : ( وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً ) [ الكهف : ٤و٥ ] . وفى « الصحيح » عن النبى ﷺ انه قال : « افضل الكلام بعد القرآن اربع كلمات وهن فى القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله اكبر » . رواه مسلم . وقال تعالى : ( اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ) [ فاطر : ١٠ ] . ومثل هذا كثير .

وفى الجملة ، حيث ذكر الله فى كتابه عن أحد من الخلق من الأنبياء ، أو أتباعهم ، أو مكذبيهم ، أنهم قالوا ، ويقولون ، وذلك قولهم ، وأمثال ذلك، فانما يعنى به المعنى مع اللفظ ، فهذا اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وأمر ، ومصدر واسم فاعل ، من لفظ القول والكلام ونحوهما ، انما يعرف فى القرآن والسنة ، وسائر كلام العرب ، اذا كان لفظاً ومعنى ،وكذلك انواعه ، كالتصديق والتكذيب ، والأمر والنهى ، وغير ذلك وهذا مما لايمكن احداً جحده ، فانه أكثر من أن يحصى . ولم يكن فى مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وتابعيهم لا من اهل السنة ، ولا من أهل البدعة ، بل أول من عرف فى الاسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط . هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهو متأخر فى زمن محنة أحمد حنبل ، وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة ، وعلماء البدعة ، فيمتنع أن يكون الكلام الذى هو

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) حديث صحيح بطرقه كما بينته فى التعليق على كتاب « الايمان » لابن أبى شيبة رقم (١) و (٢) .

اظهر صفات بنى آدم ، كما قال تعالى : ( فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون ) [ الذاريات : ٢٣ ] . ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة، لم يعرفه احد من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولا لم يسبقه اليه أحد من المسلمين فان قالوا : فقد قال الله تعالى : ( ويقولون فى انفسهم ) [ المجادلة : ٨ ] وقال : ( وأذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ) [ الأعراف : ٢٠٥ ] . ونحو ذلك .

قيل : ان كان المراد انهم قالوا بألسنتهم سراً ، فلا حجة فيه ، وهذا هو الذى ذكره المفسرون ، قالوا : كانوا يقولون : سام عليك ، فاذا خرجوا يقولون فى انفسهم ، اى : يقول بعضهم لبعض : لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول ، وان قدر أنه أريد بذلك انهم قالوا فى قلوبهم ، فهذا قول مقيد بالنفس ، مثل قوله : « عما حدثت بها أنفسها » ولهذا قالوا : ( لولا يعذبنا الله بما نقول ) فأطلقوا لفظ القول هنا ، والمراد به ما قالوه بألسنتهم ، لأنه النجوى والتحية التى نهوا عنها كما قال تعالى : ( ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول، واذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ) [ المجادلة : ٨ ] مع أن الأول هو الذى عليه أكثر المفسرين وعليه تدل نظائره ، فان النبى ﷺ قال : « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » (١) ، ليس المراد أنه لايتكلم به بلسانه ، بل المراد انه ذكر الله بلسانه .

وكذلك قوله : ( واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول ) هو الذكر باللسان والذى يقيد بالنفس لفظ الحديث ، يقال : حديث النفس ، ولم يوجد عنهم أنهم قالوا : كلام النفس ، كما قالوا : حديث النفس، ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الأحلام التى ترى فى المنام ، كقول يعقوب عليه السلام : ( ويعلمك من تأويل الأحاديث ) [ يوسف : ٦ ] : وقول يوسف :

---

(١) متفق عليه .

( علمتنى من تأويل الأحاديث ) [ يوسف : ١٠١ ] وتلك فى النفس ، لاتكون يعرف انه أريد به ما فى النفس فقط .

وأما قوله تعالى : ( واسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ) [ الملك : ١٣ ] فالمراد به القول الذى تارة يسر به فلا يسمعه الانسان ، وتارة يجهر به فيسمعونه ، كما يقال : أسر القراءة وجهر بها ، وصلاة السر وصلاة الجهر ، ولهذا لم يقل : قولوه بألسنتكم او او بقلوبكم ، وما فى النفس لايتصور الجهر به ، وانما يجهر بما فى اللسان .

وقوله : ( انه عليم بذات الصدور ) من باب التنبيه ، يقول : انه يعلم ما فى الصدور ، فكيف لا يعلم ، كما قال فى الآية الأخرى : ( وان بجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى ) [ طه : ٧ ] فنبه بذلك على انه يعلم الجهر ، ويدل على ذلك انه قال : ( واسرو قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ) فلو أراد بالقول ما فى النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور ، لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر وان قيل : نبه ، قيل : بل نبه على القسمين ، وقوله تعالى : ( آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزاً ) [آل عمران:٤١]

قد ذكر هذا فى قوله : ( ثلاث ليال سويا ) [ مريم : ١٠ ] وهناك لم يستثن شيئاً ، والقصة واحدة ، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع ، والمعنى آيتك الا تكلم الناس ، لكن ترمز لهم رمزاً ، كنظائره فى القرآن ، وقوله : ( فأوحى اليهم ) [ مريم : ١١ ] هو الرمز ولو قدر أن الرمز استثناء متصل لكان قد دخل فى الكلام المقيد بالاستثناء ، كما فى قوله : ( وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) [ الشورى : ٥١ ] .

ولا يلزم من ذلك أن يدخل فى لفظ الكلام المطلق ، فليس فى لغة القوم

اصلا ما يدل على أن ما فى النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق ، فضلا عن التصديق والتكذيب ، فعلم أن من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى فى لغة القوم مؤمناً ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقول عمر رضى الله عنه : زورت فى نفسى مقالة أردت أن اقولها ، حجة عليهم . قال أبو عبيد : التزوير : اصلاح الكلام وتهيئته ، قال : وقال ابو زيد : المزور من الكلام والمزوق واحد ، وهو المصلح الحسن ، وقال غيره زورت فى نفسى مقالة ، أى : هيأتها لأقولها ، فلفظها يدل على أنه قدر فى نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعلم أنه لا يكون قولا الا اذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولا ، لكن كان مقدراً فى النفس يراد أن يقال ، كما يقدر الانسان فى نفسه أنه يحج وأنه يصلى ، وأنه يسافر الى غير ذلك ، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة فى النفس ، ولكن لا يسمى قولا وعملا الا اذا وجدت فى الخارج ، كما أنه لا يكون حاجاً ومصليا الا اذا وجدت هذه الأفعال فى الخارج ، ولهذا كان ما يهم به المرء من الاقوال المحرمة وافعال المحرمة لا تكتب عليه حتى يقوله ويفعله ، وما هم به من القول الحسن والعمل الحسن انما يكتب له به حسنة واحدة ، فاذ صار قولا وفعلا كتب له به عشر حسنات الى سبعمائة ، وعوقب عليه ( اذا قال أو فعل ) (١) كما قال النبى ﷺ : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به أو تعمل » (٢) . وأما البيت الذى يحكى عن الأخطل أنه قال :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما ❋ جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فمن الناس من انكر ان يكون هذا من شعره ، وقالوا : انهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه ، وهذا يروى عن أبى محمد بن الخشاب ، وقال بعضهم : لفظه :

---

(١) زيادة من هامش النسخة الهندية .
(٢) متفق عليه .

ان البيان لفى الفؤاد . . . .

— ١٩ —

ولو احتج محتج فى مسالة بحديث أخرجاه فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ لقالوا : هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله باسناد صحيح لا واحد ولا اكثر من واحد ، ولا تلقاه اهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به أدنى شىء من اللغة ، فضلا عن مسمى الكلام ثم يقال : مسمى الكلام والقول ونحوها ليس هو مما يحتاج فيه الى قول شاعر : فان هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة ، وعرفوا معناه فى لغتهم ، كما عرفوا مسمى الراس واليد الرجل .

وايضا فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للألفاظ فى معانيها ، لا بما يذكرونه من الحدود ، فان اهل اللغة الناطقين لا يقول أحد منهم : ان الراس كذا ، واليد كذا ، والكلام كذا ، واللون كذا ، بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على معانيها ، فتعرف لغتهم من استعمالهم .

فعلم ان الأخطل لم يرد بهذا ان يذكر مسمى الكلام ، ولا أحد من الشعراء يقصد ذلك البتة ، وانما أراد — ان كان قال ذلك — ما فسره به المفسرون للشعر ، اى : اصل الكلام من الفؤاد ، وهو المعنى ، فاذا قال الانسان بلسانه ما ليس فى قلبه فلا تثق به ، وهذا كالأقوال التى ذكرها الله عن المنافقين ، ذكر أنهم يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ولهذا قال :

لا يعجبنك من اثير خطبة ❋ حتى يكون مع الكلام أصيلا
ان الكلام لفى الفؤاد وانما ❋ جعل اللسان على الفؤاد دليلا

نهاه أن يعجب بقوله الظاهر حتى يعلم ما فى قلبه من الأصل ، ولهذا قال حتى يكون مع الكلام أصلا . وقوله : « مع الكلام » دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلاما ، وان لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه ، وهذا حجة عليهم، فقد اشتمل شعره على هذا وهذا ، بل قوله : « مع الكلام » مطلق ، وقوله:

« ان الكلام لفى الفؤاد » أراد به أصله ومعناه المقصود به ، واللسان دليل على ذلك .

وبالجملة فمن احتاج الى ان يعرف مسمى الكلام فى لغة العرب ،والفرس والروم ، والترك ، وسائر أجناس بنى آدم بقول شاعر ، فانه من أبعد الناس عن معرفة طرق العلم ، ثم هو من المولدين ، وليس من الشعراء القدماء وهو نصرانى كافر مثلث ، واسمه الأخطل ،والخطل فساد فى الكلام ، وهو نصرانى ، والنصارى قد اخطئوا فى مسمى الكلام ، فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله .

فتبين أنه كان الايمان فى اللغة هو التصديق ، والقرآن انما أراد به مجرد التصديق الذى هو قول ، ولم يسم العمل تصديقاً ، فليس الصواب الا قول المرجئة : انه اللفظ والمعنى ، أو قول الكرامية : انه قول باللسان فقط ، فان تسمية قول اللسان قولا أشهر فى اللغة من تسمية معنى فى القلب قولا ، كقوله تعالى : ( يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ) [ الفتح : ١١ ]. وقوله : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ) [ البقرة : ٨ ] . وأمثال ذلك بخلاف ما فى النفس ، فانه انما يسمى حديثاً . والكرامية (١) يقولون : المنافق مؤمن وهو مخلد فى النار ، لأنه آمن ظاهراً لاباطناً ، وانما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطنا .

قالوا : والدليل على شمول الايمان له انه يدخل فى الاحكام الدنيوية

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : قوله : الكرامية . بفتح الكاف وتشديد الراء ، نسبة الى امامهم ابى عبد الله محمد بن كرّام النيسابورى ، وكان والده يحفظ الكلام فقيل له : الكرام ، وكان ابو عبد الله هذا من أهل نيسابور ثم اخرج عنها ، وانتقل الى بيت المقدس وسكنها ومات بها سنة ٢٤٤ .سمع على بن حجر وأحمد بن حرب وغيرهما ، روى عن ابراهيم بن سفيان ، وابراهيم بن الحجاج وغيرهما ، قال ابن حبان : خذل حتى التقط من المذاهب أرداها ، ومن الأحاديث أوهاها . وقال الذهبى : ساقط الحديث عن بدعته .

المعلقة باسم الايمان كقوله تعالى : ( فتحرير رقبة مؤمنة ) [ النساء : ٩٢ ]، ويخاطب فى الظاهر بالجمعة ، والطهارة ، وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا .

واما من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه ،فانه لا يعلق به شيء من أحكام الايمان ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يدخل فى خطاب الله لعباده بقوله : ( يا أيها الذين آمنوا ) [ البقرة : ١٠٤ ] فعلم أن قول الكرامية فى الايمان وان كان باطلا مبتدعاً لم يسبقهم اليه احد ، فقول الجهمية أبطل منه ، واولئك أقرب الى الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية .

والكرامية توافق المرجئة والجهمية فى أن ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون فى الايمان . بل يقولون : هو مؤمن حقاً لمن أظهر الايمان ، واذا كان منافقاً ، فهو مخلد فى النار عندهم ، فانه انما يدخل الجنة من آمن باطنـــا وظاهراً ، ومن حكى عنهم أنهم يقولون : المنافق يدخل الجنة ، فقد كذب عليهم، بل يقولون : المنافق مؤمن لا أن الايمان هو القول الظاهر ، كما يسميه غيرهم مسلماً ، اذ الاسلام : هو الاستلام الظاهر ولا ريب أن قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعاً ولغة وعقلا .

واذا قيل : قول الكرامية قول خارج عن اجماع المسلمين ، قيل : وقول جهم فى الايمان قول خارج عن اجماع المسلمين قبله ، بل السلف كفروا من يقول بقول جهم فى الايمان ، وقد احتج الناس على فساد قول الكراميـــة بحجج صحيحة ، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية اكثر ، مثـــل قوله تعالى : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بؤمنين ) [ البقرة : ٨ ] . قالوا فقد نفى الله الايمان عن المنافقين .

فنقول : هذا حق ، فان المنافق ليس بمؤمن ، وقد ضل من سماه مؤمناً، وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه ، كاليهود وغيرهم ، سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط ، ولادخلوا فى شيء مـــن

أحكام الايمان ، بخلاف المنافق فانه يدخل فى أحكام الايمان الظاهرة فى الدنيا بل قد نفى الله الايمان عمن قال بلسانه وقلبه اذا لم يعمل ، كما قال تعالى: ( قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ) [الحجرات : ١٤] الى قوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ]. فنفى الايمان عمن سوى هؤلاء وقال تعالى : ( ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين ) [ النور : ٤٧ ] والتولى : هو التولى عن الطاعة كما قال تعالى : ( ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فان تطيعوا يؤتكم الله اجراً حسناً ، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليما ) [ الفتح : ١٦ ] وقال تعالى: ( فلا صدق ولاصلى ، ولكن كذب وتولى ) [ القيامة : ٣١ ، ٣٢ ] . وقد قال تعالى ( لايصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى ) [ الليل : ١٥،١٦ ]. وكذلك قال موسى وهارون : ( انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ) [ طه : ٤٨ ] . فعلم أن التولى ليس هو التكذيب ، بل هو التولى عن الطاعة ، فان الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما اخبر ويطيعوه فيما أمر ، وضد التصديق التكذيب ، وضد الطاعة التولى ، فلهذا قال : (فلا صدق ولاصلى ولكن كذب وتولى ) [ القيامة : ٣١ ، ٣٢ ] . وقد قال تعالى: ( ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ) [ النور : ٤٧ ] ، فنفى الايمان عمن تولى عن العمل ، وان كان قد اتى بالقول ، وقال تعالى : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ) [النور: ٦٢ ] . وقال : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) [الأنفال:١]

ففى القرآن والسنة من نفى الايمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة، كما نفى فيها الايمان عن المنافق ، واما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة ، فهذا لم يسم قط مؤمناً ، وعند الجهمية اذا كان العلم فى قلبه فهو

مؤمن كامل الايمان ، ايمانه كأيمان النبيين ، ولو قال وعمل ماذا عسى إن يقول ويعمل ، ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنه الايمان الا اذا زال ذلك العلم من قلبه .

ثم أكثر المتأخرين الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء فى الايمان ويقولون : الايمان فى الشرع : هو مايوافى به العبد ربه ، وان كان فى اللغة اعم من ذلك ، فجعلوا فى مسألة الاستثناء مسمى الايمان ماادعوا أنه مسماه فى الشرع ، وعدلوا عن اللغة ، فهلا فعلوا هذا فى الأعمال ، ودلالة الشرع على أن الاعمال الواجبة من تمام الايمان لاتحصى كثرة ، بخلاف دلالته على أنه يسمى ايمانا ، الا مامات الرجل عليه ، فانه ليس فى الشرع مايدل على هذا ، وهو قول محدث لم يقله احد من السلف ، لكن هؤلاء ظنوا أن الذين استثنوا فى الايمان من السلف كان هذا مأخذهم ، لان هؤلاء وأمثالهم لم يكونوا خبرين بكلام السلف ، بل ينصرون ما يظهر من اقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم من أهل البدع ، فيبقى الظاهر قول السلف ، والباطن قول الجهمية الذين هم أفسد الناس مقالة فى الايمان ، وسنذكر — ان شاء الله — أقوال السلف فى الاستثناء فى الايمان ، ولهذا لما صار يظهر لبعض اتباع أبى الحسن فساد قول جهم فى الايمان ، خالفه كثير منهم ، فمنهم ، من تبع السلف .

قال أبو القاسم الانصارى شيخ الشهرستانى فى شرح « الارشاد » لابى المعالى ، بعد أن ذكر قول أصحابه قال : وذهب أهل الاثر الى أن الايمان جميع الطاعات ، فرضها ونقلها ، وعبروا عنه بأنه اتيان ما أمر به فرضاً ونقلا ، والانتهاء عما نهى عنه تحريما وادبا (١) . قال : وبهذا كان يقول أبو على الثقفى من متقدمى اصحابنا ، وابو العباس القلانسى .

وقد مال الى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد قال : وهذا قول مالك بن أنس امام دار الهجرة ، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) فى الهندية : تحريما واذناً .

وكانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، واقرار باللسان ، وعمل بالاركان .

ومنهم من يقول بقول المرجئة : انه التصديق بالقلب واللسان .

ومنهم من قال : اذا ترك التصديق باللسان عناداً كان كافراً بالشرع ، وان كان فى قلبه التصديق والعلم ، وكذلك قال ابو اسحاق الاسفرييني . على قولهم : المعاند كافر شرعاً ، فيجعل الكفر تارة بانتفاء الايمان الذى فى القلب ، وتارة بالعناد ، ويجعل هذا كافراً فى الشرع وان كان معه حقيقة الايمان هو التصديق ، ويلزمه أن يكون كافراً فى الشرع ، مع أن معه الايمان الذى هو مثل ايمان الأنبياء والملائكة ، والحذاق فى هذا المذهب ، كأبى الحسن، والقاضى ، ومن قبلهم من اتباع جهم ، عرفوا أن هذا تناقض يفسد الأصل فقالوا : لايكون واحد كافراً الا اذا ذهب ما فى قلبه من التصديق ، والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره ، فانه ليس فى قلبه شىء من معرفة الله ولامعرفة رسوله ،ولهذا انكر هذا عليهم جماهير العقلاء،وقالوا:هذا مكابره وسفسطة.

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى : ( لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ) الى قوله : (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان) [ المجادلة : ٢٢ ] الآية . قالوا : ومفهوم هذا أن من لم يعمل بمقتضاه لم يكتب فى قلوبهم الايمان .

قالوا : فان قيل : معناه : لايؤمنون ايماناً مجزئا معتداً به ، أو يكون المعنى : لا يؤدون حقوق الايمان ، ولا يعلمون بمقتضاه ، قلنا : هذا عام لايخصص الا بدليل .

فيقال لهم : هذه الآية فيها نفى الايمان عمن يواد المحادين لله ورسوله ، وفيها أن من لايواد المحادين لله ورسوله فان الله كتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه ، وهذا يدل على مذهب السلف انه لابد فى الايمان من محبة

القلب لله ورسوله : ومن بغض من يحاد الله ورسوله ، ثم لم تدل الآية على أن العلم الذى فى قلوبهم بأن محمداً رسول الله يرتفع لايبقى منـــه شىء ، والايمان الذى كتب فى القلب ليس هو مجرد العلم والتصديق ، بل هو تصديق القلب وعمل القلب ، ولهذا قال : ( وايدهم بروح منه ويدخلهم جناب تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا حزب الله المفلحون ) فقد وعدهم بالجنة ، وقد اتفق الجميع على ان الوعد بالجنة لايكون الا مع الاتيان بالمأمور به وترك المحظور ، فعلم أن هؤلاء الذين كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، قد أدوا الواجبات التى بها يستحقون ماوعد الله به الأبرار المتقق ،ودل هذا على أن الفساق لم يدخلوا فى هذا الوعد، ودلت هذه الآية على انه لايوجد مؤمن يواد الكفار ، ومعلوم أن خلقاً كثـــيراً من الناس يعرف من نفسه أن التصديق فى قلبه لم يكذب الرسول ، وهو مع هذا يواد بعض الكفار ، فالسلف يقولون : ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الايمان الواجب من القلب ، لكن قد يكون ذلك يزوال عمل القلب الذى هو حب الله ورسوله ، وخشية الله ونحو ذلك لايستلزم أن لايكون فى القلب من التصديق شىء . وعند هؤلاء كل من نفى الشرع ايمانه دل على أنه ليس فى قلبه شىء من التصديق أصلا ، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء .

وكذلك حكى ابن فورك عن أبى الحسن قال : الايمان هو اعتقاد صدق المخبر فيما يخبر به اعتقاداً هو علم ، ومنه اعتقاد ليس بعلم ، والايمان بالله وهو اعتقاد صدقه انما يصح اذا كان عالماً بصدقه فى اخباره ، وانما يكون كذلك اذا كان عالماً بانه يتكلم ، والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حى ، والعلم بأنه حى بعد العلم بأنه فاعل ، والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل ، وهـــو كون العالم فعلا له ، وقال : وكذلك يتضمن العلم بكونه قادراً وله قـــدرة ، وعالماً وله علم ، ومريداً وله ارادة ، وسائر مالا يصح العلم بالله الا بعـــد العلم به من شرائط الايمان .

قلت : هذا مما اختلف فيه قول الأشعرى ، وهو أن الجهل ببعض الصفات ، هل يكون جهلا بالموصوف ، أم لا ؟ على قولين ، والصحيح الذى عليه الجمهور وهو قوليه ، أنه لايستلزم الجهل بالموصوف ، وجعل اثبات الصفات من الايمان مما خالف فيه الأشعرى جهماً ، فان جهما غال فى نفى الصفات ، بل وفى الأسماء .

قال أبو الحسن : ثم السمع ورد بضم شرائط اخر اليه ، وهو أن لايقترن به ما يدل على كفر من يأتيه فعلا وتركاً ، وهو أن الشرع أمره بترك العبادة والسجود للصنم ، فلو أتى به دل على كفره ، وكذلك من قتل نبياً أو استخف به ، دل على كفره ، وكذلك لو ترك تعظيم المصحف أو الكعبة دل على كفره ا قال : وأوحد ما استدللنا به على كفره مامنع الشرع أن يقرنه بالايمان أو أوجب ضمه الى الايمان لو وجد ، دلنا ذلك على ان التصديق الذى هو الايمان مفقود من قلبه ، وكذلك كل ماكفر به المخالف من طريق التأويل فانما كفرناه به لدلالته على فقد ماهو ايمان من قلبه ، لاستحالة أن يقضى السمع بكفر من معه الايمان والتصديق بقلبه .

فيقال : لاريب أن الشرع لايقضى بكفر من معه الايمان بقلبه ، لكن دعواكم أن الايمان هو التصديق وان تجرد عن جميع أعمال القلب ،غلط،ولهذا قالوا : أعمال التصديق والمعرفة من قلبه ، الا ترى أن الشريعة حكمت بكفره، والشريعة لاتحكم بكفر المؤمن المصدق ، لهذا نقول : ان كفر ابليس لعنه الله كان اشد من كفر كل كافر ، وانه لم يعرف الله بصفاته قطعاً ، ولا آمن به ايماناً حقيقا باطنا وان وجد منه القول والعبادة ، وكذلك اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الكفر لم يوجد فى قلوبهم حقيقة الايمان المعتد به فى حال حكمنا لهم، قال الله تعالى : ( ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى ومانزل اليه ما اتخذوهم أولياء ) [ المائدة : ٨٤ ] . وقوله : ( فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ) [ النساء : ٦٥ ] . الآية فجعل الله هذه الأمور

شرطاً فى ثبوت حكم الايمان ، فثبت ان الايمان المعرفة بشرائط لا يكون معتداً به دونها .

فيقال : ان قلتم : انه ضم الى معرفة القلب شروطاً فى ثبوت الحكم او الاسم ، لم يكن هذا قول جهم ، بل يكون هذا قول من جعل الايمان كالصلاة، والحج وهو وان كان فى اللغة بمعنى القصد والدعاء ، لكن الشارع ضم اليه اموراً أما فى الحكم ، واما فى الحكم والاسم ، وهذا القول قد سلم صاحبه ان حكم الايمان المذكور فى الكتاب والسنة لايثبت بمجرد تصديق القلب . بل لابد من تلك الشرائط ، وعلى هذا فلايمكنه جعل الفاسق مؤمناً الا بدليل يدل على ذلك ، لابمجرد قوله : ان معه تصديق القلب ، ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول : كل كافر فى النار ليس معه من التصديق بالله شيء ، لابمجرد قوله : ان معه تصديق القلب ، ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول : كل كافر فى النار ليس معه من التصديق بالله شيء ، لا مع ابليس ولا مع غيره وقد قال الله تعالى : ( واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد ) [ غافر : ٤٧ ، ٤٨ ] . وقال تعالى : ( وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاؤوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ) [ الزمر : ٧١ ] . فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم ، وتلت عليهم آيات ربهم ، وأنذرتهم لقاء يومهم هذا ، فقد عرفوا لله ورسوله واليوم الآخر وهم فى الاخرة كفار . وقال تعالى : ( كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء ) [ الملك : ٧ ، ٩ ] . فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيلة . وأما فى الآخرة فعرفوا الجميع . وقال تعالى : ( ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ) [ الأنعام : ٣ ] . وقال تعالى : ( وجاءت سكرة الموت

بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ) [ ق : ١٩ ] الى قوله : ( لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ) [ ق : ١٩ ] . الى آيات أخر كثيرة تدل على أن الكفار فى الآخرة يعرفون ربهم ، فان كان مجرد المعرفة ايمانا كانوا مؤمنين فى الآخرة .

فان قالوا : الايمان فى الآخرة لا ينفع ، وانما الثواب على الايمان فى الدنيا

قيل : هذا صحيح ، لكن اذا لم يكن الايمان الا مجرد العلم ، فهذه الحقيقة لاتختلف ، فان لم يكن العمل من الايمان ، فالعارف فى الآخرة لم يفته شىء من الايمان ، لكن أكثر ما يدعونه أنه حين مات لم يكن فى قلبه من التصديق بالرب شىء ، ونصوص القرآن فى غير موضع تدل على أن الكفار كانوا فى الدنيا مصدقين بالرب ، حتى فرعون الذى اظهر التكذيب كان فى باطنه مصدقاً . قال تعالى : ( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ) [ النمل : ١٤ ] . وكما قال موسى لفرعون : ( لقد علمت ما أنـزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ) [ الاسراء : ١٠٢ ] . ومع هذا لم يكن مؤمناً ، بل قال موسى : ( ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ) [ يونس : ٨٨ ] . قال الله : ( قد أجيبت دعوتكما ) [يونس: ٨٩] . ولما قال فرعون : ( آآمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ) [يونس : ٩٠] . قال الله : ( آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ) [ يونس : ٩١ ] . فوصفه بالمعصية ولم يصفه بعدم العلم فى الباطن ، كما قال : ( فعصى فرعون الرسول ) [ المزمل : ١٦ ] . وكما قال عن ابليس : ( فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ) [ ص : ٧٣،٧٤ ] . فلم يصفه الا بالاباء والاستكبار ومعارضته الأمر ، لم يصفه بعدم العلم ، وقد أخبر الله عن الكفار فى غير موضع أنهم كانوا معترفين بالصانع فى مثل قوله : ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) [الزخرف : ٨٧]

ثم يقال لهم : اذا قلتم : هو التصديق بالقلب ، أو باللسان ، أو بهما ، فهل هو التصديق المجمل ؟ أو لابد فيه من التفصيل ؟ فلو صدق أن محمداً رسول الله ، ولم يعرف صفات الحق ، هل يكون مؤمناً أم لا ؟ فان جعلوه

مؤمنا ، قيل : فاذا بلغه ذلك فكذب به ، لم يكن مؤمناً باتفاق المسلمين ، فصار بعض الايمان اكمل من بعض ، وان قالوا :لايكون مؤمناً ، لزمهم ان لا يكون احد مؤمناً حتى يعرف تفصيل كل ماأخبر به الرسول ، ومعلوم أن أكثر الأمة لايعرفون ذلك . وعندهم الايمان لايتفاضل الا بالدوام فقط .

قال ابو المعالى : فان قال القائل : أصلكم يلزمكم أن يكون ايمان المنهمك فى فسقه كايمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

قلنا : الذى يفضل ايمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله اياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب ، والتصديق عرض من الأعراض لايبقى ، وهو متوال للنبى ﷺ ثابت لغيره فى بعض الأوقات ، وزائل عنه فى أوقات الفترات ، فيثبت للنبى ﷺ اعداد من التصديق ، ولا يثبت لغيره الا بعضها، فيكون ايمانه لذلك اكثر وافضل ، قال : ولو وصف الايمان بالزيادة والنقصان واريد به ذلك كان مستقيما .

قلت : فهذا هو الذى يفضل به النبى غيره فى الايمان عندهم ، ومعلوم ان هذا فى غاية الفساد من وجوه كثيرة ، كما قد بسط فى مواضع أخرى .

## فصل

قال الذين نصروا مذهب جهم فى الايمان من المتأخرين ــ كالقاضى أبى بكر وهذا لفظه :

فان قال قائل : وما الاسلام عندكم ؟ قيل له : الاسلام : الانقياد والاستسلام ، فكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فيها لأمره ، فهى اسلام ؛ والايمان : خصلة من خصال الاسلام ، وكل ايمان اسلام ، وليس كل اسلام ايماناً ، فان قال : فلم قلتم : ان معنى الاسلام ما وصفتم ؟ قيل : لاجل قوله تعالى : ( قالت الاعراب آمنا ل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) [الحجرات : ١٤ ] فنفى عنهم الايمان واثبت لهم الاسلام ، وانما أراد بما أثبته الانقياد والاستسلام ، ومنه : ( والقوا اليكم السلم ) [ النساء : ٩٠ ] وكل

من استسلم لشىء فقد أسلم ، وان كان أكثر ما يستعمل ذلك فى المستسلم لله ولنبيه .

قلت : وهذا الذى ذكروه مع بطلانه ومخالفته للكتاب والسنر هو تناقض ، فانهم جعلوا الايمان خصلة من خصال الاسلام ، فالطاعات كلها اسلام ، وليس فيها ايمان الا التصديق ، والمرجئة وان قالوا : ان الايمان يتضمن الاسلام ، فهم يقولون : الايمان : هو تصديق القلب واللسان ، واما الجهمية ، فيجعلونه تصديق القلب ، فلا تكون الشهادتان ، ولا الصلاة ، ولا الزكاة ، ولا غيرهن من الايمان ، وقد تقدم ما بينه الله ورسوله ، من أن الاسلام داخل فى الايمان ، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون مسلما ، كما ن الايمان داخل فى الاحسان ، فلا يكون محسناً حتى يكون مؤمنا

وأما التناقص ، فانهم اذا قالوا : الايمان خصلة من خصال الاسلام ، كان من اتى بالايمان انما أتى بخصلة من خصال الاسلام ، لا بالاسلام الواجب جميعه ، فلا يكون مسلماً حتى يأتى كله ، كما لا يكون عندهم مؤمنا ، حتى يأتى بالايمان كله ، والا فمن أتى ببعض الايمان عندهم لايكون مؤمناً ، ولا فيه شىء من الايمان ، فكذلك يجب أن يقولوا فى الاسلام ، وقد قالوا : كل ايمان اسلام ، وليس كل اسلام ايماناً ، وهذا أن أرادوا به أن كل ايمان هو الاسلام الذى أمر الله به ، ناقض قولهم : ان الايمان خصلة من خصاله ، فجعلوا الايمان بعضه ولم يجعلوه اياه ، وان قالوا : كل ايمان فهو اسلام ، أى هو طاعة لله ، وهو جزء من الاسلام الواجب ، وهذا مرادهم . قيل لهم : فعلى هذا يكون الاسلام متعدداً بتعدد الطاعات ، وتكون الشهادتان وحدهما اسلاماً ، والصلاة وحدها اسلاماً ، والزكاة اسلاما ، بل كل درهم تعطيه للفقير اسلاما ، وكل سجدة اسلاما ، وكل يوم تصومه اسلاما ، وكل تسبيحة تسجها فى الصلاة أو غيرها اسلاماً .

ثم المسلم ان كان لايكون مسلماً الا بفعل كل ما سميتموه اسلاما ، لزم أن

يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين ، فجعلتم المؤمنين الكاملـــى الايمان عندكم ليسوا مسلمين وهذا شر من قول الكرامية ، ويلزم أن الفساق من اهل القبلة ليسوا مسلمين ،وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم، بل وأن يكون من ترك التطوعات ليس مسلماً ، اذ كانت التطوعات طاعة لله، ان جعلتم كل طاعة فرضاً او نفلا اسلاما .

ثم هذا خلاف ماالحتججتم به من قوله للأعراب : ( لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ) [ الحجرات : ١٤ ] فأثبت لهم الاسلام دون الايمان،وأيضاً فاخراجكم الفساق من اسم الاسلام ان أخرجتموهم ، أعظم شناعة من اخراجهم من اسم الايمان ، فوقعتم فى أعظم ما عبتموه على المعتزلة ، فان نصوص الكتاب والسنة تنفى عنهم اسم الايمان اعظم مما تنفى اسم الاسلام ، واسم الايمان فى الكتاب والسنة اعظم .

وان قلتم : بل كل من فعل طاعة سمى مسلماً ، لزم أن يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلماً ، ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه أن يكون مسلما عندكم من تكلم . بالشهادتين وما أتى بشىء مـــن اتى بالاسلام ، ويكون مسلماً عندكم من تكلم . بالشهادتين وما أتى بشىء من الأعمـــال .

واحتجاجكم بقوله :(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قلتم : نفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام ،فيقال : هذه الآية حجة عليكم ، لانه لما أثبت لهم الاسلام مع انتفاء الايمان ، دل ذلك على أن الايمان ليس جزء من الاسلام ، اذ لو كان بعضه لما كانوا مسلمين ان يأتوا به ، وان قلتم : أردنا بقولنا : أثبت لهم الاسلام أى : اسلاماً ما ، فان كل طاعة من الاسلام اسلام عندنا ، لزمكم ما تقدم من أن يكون صوم يوم اسلاماً ، وصدقة درهم اسلاما، وأمثال ذلك .

وهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، قالوا : هذا من حيث الاطلاق ، والا فالتفصيل ما ذكرناه من أن الايمان خصلة من خصال

الاسلام والدين ، وليس هو جميع الاسلام والدين،فان الاسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة للأمر ، والايمان اعظم خصلة من خصال الاسلام ، واسم الاسلام شامل لكل طاعة انقاذ بها العبد لله ، من ايمان ، وتصديق ، وفرض ؛ ونقل ، غير انه لايصلح التقرب بفعل ما عدا الايمان من الطاعات دون تقديم فعل الايمان ، قالوا : والدين ماخوذ من التدين ، وهو قريب من الاسلام فى المعنى .

فيقال لهم : اذا كان هذا قولكم ، فقولكم : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً يناقض هذا ، فان المسلم هو المطيع لله ، ولا تصح الطاعة من احد الا مع الايمان ، فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئاً من الاسلام الا وهو مؤمن، ولو كان ذلك أدنى الطاعات ، فيجب أن يكون كل مسلم مؤمناً ، سواء أريد بالاسلام فعل جميع الطاعات ، أو فعل واحدة منها ، وذلك لايصح كله الا مع الايمان ، وحينئذ فالآية حجة عليكم لالكم .

ثم قولكم : كل مؤمن مسلم ان كنتم تريدون بالايمان تصديق القلب فقط فيلزم أن يكون الرجل مسلماً ولو لم يتكلم بالشهادتين وما أتى بشىء من الأعمال المأمور بها ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام ، بل عامة اليهود والنصارى يعلمون أن الرجل لا يكون مسلماً حتى يأتى بالشهادتين أو ما يقوم مقامهما ، وقولكم : كل مؤمن مسلم ، لايريدون انه اتى بالشهادتين ولا بشىء من المبانى الخمس ، بل أتى بما هو طاعة وتلك طاعة باطنة ، وليس هذا هو المسلم المعروف فى الكتاب والسنة ، ولا عند الائمة الاولين والآخرين، ثم استدللتم بالآية ، والأعراب انما أتوا باسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين، سواء كانوا صادقين أو كاذبين ، فأثبت الله لهم الاسلام دون الايمان ، فيظن من لايعرف حقيقة الأمر أن هذا هو قول السلف الذى دل عليه الكتاب والسنة من أن كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وبينهما من التباين اعظم مما بين قول السلف . وقول المعتزلة فى الايمان والاسلام أقرب من قول الجهمية بكثير ، ولكن قولهم فى تخليد أهل القبلة أبعد عن قول السلف من قول الجهمية فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم فى مسألة الايمان يظهرون قول السلف فى

هذا وفى الاستثناء ، وفى انتفاء الايمان الذى فى القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك . وذلك كله موافق للسلف فى مجرد اللفظ ، والا فقولهم فى غاية المباينة لقول السلف ، ليس فى الأقوال أبعد عن السلف منه ، وقول المعتزلة والخوارج والكرامية فى اسم الايمان والاسلام اقرب الى قول السلف من قول الجهمية ، لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة ، وهذا ابعد عن قول السلف من كل قول ، فهم اقرب فى الاسم وأبعد فى الحكم ، والجهمية وان كانوا فى قولهم : بأن الفساق لايخلدون أقرب فى الحكم الى السلف ، فقولهم فى مسمى الاسلام والايمان وحقيقتهما أبعد من كل قول عن الكتاب والسنة ، وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة ما لا يوجد مثله لغيرهم .

## فصل

ومما يدل من القرآن على ان الايمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى : ( انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون ) [ السجدة : ١٥ ] فنفى الايمان عن غير هؤلاء ، فمن كان اذا ذكر بالقرآن لايفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين ، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين ، واما سجود التلاوة ، ففيه نزاع ، وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه ، لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة ، فهذه الآية مثل قوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم ) [ الحجرات : ١٥ ] ، وقوله : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) [ الأنفال : ٢ ] ، وقوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ) [ النور : ٦٢ ] ، ومن ذلك قوله تعالى : ( عفا الله عنك لم لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم واله عليم بالمتقين ، وانما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبم يترددون ) [ التوبة : ٤٣ — ٤٥ ] .

وهذه الآية مثل قوله : ( لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون

من حاد الله ورسوله ) [ المجادلة : ٢٢ ] . وقوله : ( ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ) [ المائدة : ٨٤ ] بين سبحانـــه أن الايمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله ، ومن أضداده استئذانه فى ترك الجهاد، ثم صرح بأن استئذانه انما يصدر من الذين لايؤمنون بالله والآخر ، ودل قوله: ( والله عليم بالمتقين على أن المتقين هم المؤمنون .

ومن هذا الباب قوله ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » (١) وقوله : « لا يؤمن جاره بوائقه » (٢) وقوله : « لاتؤمنوا حتى تحابوا » (٣) . وقوله:«لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٤) وقوله : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفســـه » (٥) . وقوله : « من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا » (٦) .

## فصـــل

وأما اذا قيد الايمان ، فقرن بالاسلام أو بالعمل الصالح ، فانه قد يراد به ما فى القلب من الايمان باتفاق الناس ، وهل يراد به أيضا المعطوف عليه، ويكون من باب عطف الخاص على العام ، أو لا يكون حين الاقتران داخلا فى مسماه ؟ بل يكون لازماً له على مذهب أهل السنة ، أو لا يكون بعضا ولا لازما، هذا فيه ثلاثة أقوال للناس ، كما سيأتى ان شاء الله ، وهذا موجود فى عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ، مثال ذلك اسم المعروف والمنكـــر اذا أطلق كما فى قوله تعالى :( يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ) [الأعراف: ١٥٦ ] وقوله : ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ) [ آل عمران : ١١٠ ] . وقوله : ( والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ) [ التوبة : ٧١ ] يدخل فى المعروف

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه وقد تقدم .
(٣) رواه مسلم وتقدم .
(٤) متفق عليه .
(٥) متفق عليه .
(٦) رواه مسلم .

كل خير ، وفى المنكر كل شر ، ثم قد يقرن بما هو أخص منه كقوله : ( لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ) [ النساء : ١١٤ ] . فغاير بين المعروف وبين الصدقة والاصلاح بين الناس كما غاير بين اسم الايمان العمل ، اسم الايمان والاسلام ، وكذلك قوله تعالى: ( ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) [ العنكبوت : ٤٥ ] غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء فى المنكر فى قوله : ( وينهون عن المنكر ) [ التوبة : ٧١ ] ثم ذكر مع المنكر اثنين فى قوله : ( ان الله يأمر بالعدل والاحسان واتياء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ) [ النحل : ٩٠ ] . جعل البغى هنا مغايراً لهما ، وقد دخل المنكر فى ذنيك الموضعين .

ومن هذا الباب لفظ العبادة ، فاذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل فى عبادته كل ما امر الله به ، فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به ،فيدخل ذلك فى مثل قوله : ( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ) وفى قوله : ( واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ) [ الذاريات : ٥٦ ] ، وفى قوله : (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ) [ النساء : ٣٦ ]، وقوله : ( ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ) [ البقرة : ٢١ ] ، وقوله : ( انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ) [ الزمر : ٢ ] . ( قل الله أعبد مخلصا له دينى ) [ الزمر : ١٤ ] ، وقوله : ( افغير الله تأمرونى اعبد أيها الجاهلون ) [الزمر : ٦٤ ] ، ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله : ( اياك نعبد واياك نستعين ) [ الفاتحة : ٥ ] . وقوله : ( فاعبده وتوكل عليه ) [ هود : ١١٣ ] . وقول نوح : ( أن اعبدوا الله واتقوا واطيعون ) [ نوح : ٧٣ ] وكذلك اذا افرد اسم طاعة الله دخل فى طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة فى طاعته ، وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به ، وترك كل محظور .

قال طلق بن حبيب : التقوى : ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله ، وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله، وهذا كما فى قوله : (ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) [ القمر : ٥٤ — ٥٥ ] وقد يقرن بها اسم آخر كقوله : ( ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه )

[ الطلاق : ٣٤٢ ] وقوله : ( انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين ) [ يوسف : ٩٠ ] . وقوله : (اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) [ النساء : ١ ] . وقوله : ( اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ) [ الأحزاب : ٧٠ ] وقوله : ( اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ) [ التوبة : ١١٩ ] . وقوله : ( اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ) [ آل عمران : ١٠٢ ] وامثال ذلك .

فقوله : ( اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ) [ الأحزاب : ٧٠ ] مثل قوله : ( آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ) [ الحديد : ٧ ] وقوله : ( آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين احد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ) [ البقرة : ٢٨٥ ] فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوى ، ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد، وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول ، وكذلك قوله: ( آمنوا بالله ورسوله ) [ الحديد : ٧ ] ، واذا أطلق الايمان بالله فى حق امة محمد دخل فيه الايمان بالرسول ، وكذلك قوله : (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ) [ البقرة : ٢٨٥ ] . واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع ، وكذلك قوله : ( والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك ) [ البقرة : ٤ ] . وقوله : (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم) [ البقرة : ١٣٦ ] .

واذا قيل قوله : ( فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ) [الاعراف :١٥٨]، دخل فى الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والنبيين ، وكذلك اذا قيل : ( وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ) [ الحديد : ٢٨ ] واذا قيل : (آمنوا بالله ورسولهوانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ) دخل فى الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله ، والانفاق يدخل فى قوله فى الآية الأخرى : ( آمنوا بالله ورسوله ) [ الحديد : ٧ ] كما يدخل القول السديد فى مثل قوله . , ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب ) [ النساء : ١٣٠ ] .

وكذلك لفظ البر اذا اطلق تناول جميع ما أمر الله به كما فى قوله : (ان الأبرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم ) [ الانفطار : ١٣ ، ١٤ ] ، وقوله : ( ولكن البر من اتقى ) [ البقرة : ١٨٩ ] . وقوله : ( ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون ) [ البقرة : ١٧٧ ] ، فالبر اذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى ، والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ، ثم قد يجمع بينهما كما فى قوله تعالى : ( وتعاونوا على البر والتقوى ) [ المائدة : ٢ ] .

وكذلك لفظ الاثم اذا اطلق دخل فيه كل ذنب ، وقد يقرن بالعدوان كما فى قوله تعالى : ( ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ) [ المائدة : ٢ ] . وكذلك لفظ الذنوب اذا اطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم ، كما فى قوله: ( ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جمعياً ) [ الزمر : ٥٣ ] . ثم قد يقرن بغيره كما فى قوله : ( ربنا اغفر ذنوبنا واسرفنا فى أمرنا ) [ آل عمران : ١٤٧ ] . وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً ، فيدخل فيه كل ما أمر ا به كما فى قوله : ( اهدنا الصراط المستقيم ) ، والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً وكذلك قوله : ( هدى للمتقين ) المراد به أنهم يعاملون ما فيه ويعلمون به ، ولهذا صاروا مفلحين ، وكذلك قول أهل الجنة : ( الحمد لله الذى هدانا لهذا ) [ الأعراف : ٢ ] . وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ، ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله : ( واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ) [ الأنعام : ٨٧ ] ، وكما فى قوله : ( شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه ) [ النحل : ١٢١ ] . ( الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ) [ الشورى : ١٢ ] وكذلك قوله تعالى : ( هو الذى ارسل

رسوله بالهدى ودين الحق ) [ الفتح : ٢٨ ] والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام ، واذا أطلق الهدى ، كان كالايمان المطلق يدخل فيه هـذا وهـذا .يه

ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى ؛ سواء كان عمداً أو جهلا ، ولزم أن يكون معذباً كقوله : ( انهم الفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ) [ الصافات : ٦٩ ، ٧٠ ] . وقوله ( ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ) [ الاحزاب ٦٧،٦٨ ] . وقوله : ( فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ) [ طه ١٢٣ ] . ثم قد بالغى أو الغضب كما فى قوله : ( ماضل صاحبكم وما غوى ) [ النجم : ٢ ] وفى قوله : ( غير المغضوب عليهم ولا الضالين ) وقوله: ( ان المجرمين فى ضلال وسعر ) [ القمر : ٤٧ ] . وكذلك لفظ الغى اذا أطلق تناول كل معصية لله كما فى قوله عن الشيطان : لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ) [ الحجر : ٣٩ ، ٤٠ ] . وقد يقرن بالضلال كما فى قوله : ( ماضل صاحبكم وما غوى ) [ النجم : ٢ ] .

وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين ،واذا أطلق لفظ المسكين، تناول الفقير ، واذا قرن بينهما ، فأحدهما غير الآخر ، فالأول كقوله : ( وان تخفوها وتؤترها الفقراء فهو خير لكم ) [ البقرة : ٢٧١ ] . وقوله : ( فكفارته اطعام عشرة مساكين ) [ المائدة : ٩٢ ] ، والثانى كقوله : ( انما الصدقات للفقراء والمساكين ) [ التوبة : ٦٠ ] .

وهذه الأسماء التى تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما اعم من الآخر ، كاسم الايمان والمعروف مع العمل ومع الصدق ، وكالمنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك ، وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص ، كلفظ الايمان والبر والتقوى ، ولفظ الفقير والمسكين ، فأيها أطلق تناول ما يتناوله الآخر ، وكذلك لفظ التلاوة ، فانها اذا أطلقت فى مثل قوله : ( الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ) [ البقرة : ١٢١ ] ، تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود

وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا : يتلونه حق تلاوته : يتبعونه حق اتباعه، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ،وقيل: هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله : ( والقمر اذا تلاها ) [ الشمس : ٢ ]. وهذا يدخل فيه من لم يقرأه ، وقيل : بل من تمام قراءته أن يفهم معناه ويعمل به ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

وقوله : ( الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ) [ البقرة : ١٢١ ]. قد فسر بالقرآن وفسر بالتوراة ، وروى محمد بن نصر باسناده الثابت عن ابن عباس : ( يتلونه حق تلاوته ) . قال : يتبعونه حق اتباعه ، وروى أيضاً عن ابن عباس : يتلونه حق تلاوته ، قال : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه ، وعن قتادة : ( يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ) قال : أولئك أصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه ، وعملوا بما فيه ، ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول : ان حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وان نقرأه كما أنزل الله ، ولا نحرفه عن مواضعه . وعن الحسن : ( يتلونه حق تلاوته ) قال : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم الى عالمه ، وعن مجاهد : يتبعونه حق اتباعه ، وفى رواية : يعملون به حق عمله .

ثم قد يقرن بالتلاوة وغيرها كقوله : ( اتل ما أوحى اليك من الكتاب ، واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[العنكبوت:٤٥] ،قال أحمدبن حنبل وغيره : تلاوة الكتاب : العمل بطاعة الله كلها ، ثم خص الصلاة بالذكر كما فى قوله : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ) [ الأعراف : ١٧٠ ]. وقوله : ( فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى ) [ طه : ١٤ ] ، وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات ، كقوله : ( اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ) [ الأعراف : ٣ ] وقوله : من اتبع هداى فلا

يضل ولا يشقى ) [ طه : ١٢٣ ] . وقوله : ( وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ) [ الأنعام : ١٥٣ ] وقد يقرن به غيره ، كقوله : ( وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ) [ الأنعام : ١٥٥ ] ، وقوله : ( اتبع ما أوحى اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين ) [ الأنعام : ١٠٦ ] وقوله : ( واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ) [ يونس : ١٠٩ ] .

وكذلك لفظ « الأبرار » اذا أطلق دخل فيه كل تقى من السابقين والمقتصدين ، واذا قرن بالمقربين كان اخص ، قال تعالى فى الاول : ( ان الابرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم ) [ الانفطار : ١٣ ، ١٤ ] ، وقال فى الثانى : ( ان كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون ) [ المطففين : ١٨ — ٢١ ] وهذا باب واسع يطول استقصاؤه .

ومن أنفع الأمور فى معرفة دلالة الالفاظ مطلقاً وخصوصا الفاظ الكتاب والسنة ، وبه تزول شبهات كثيرة فيها نزاع الناس ، من جملتها مسألة الايمان والاسلام ، فان النزاع فى مسماهما أول اختلاف وقع ، افترقت الأمة لاجله ، وصاروا مختلفين فى الكتاب والسنة ، وكفر بعضهم بعضاً وقاتل بعضهم بعضاً كما قد بسطنا هذا مواضع أخر ، اذ المقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله باقامة الدلائل الدالة ، لا بذكر الأقوال التى تقبل بلا دليل وترد بلا دليل ، أو يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول ، فان الواجب أن يقصد معرفة ما جاء به الرسول واتباعه بالأدلة الدالة على ما بينه الله ورسوله .

ومن هذا الباب أقوال السلف وائمة السنة فى تفسير الايمان ، فتارة يقولون : هو قول وعمل ، وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية ، وتارة يقولون : قول وعمل ونية واتباع السنة ، وتارة يقولون : قول باللسان واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، وكل هذا صحيح ، فاذا قالوا : قول وعمل ، فانه

يدخل فى القول قول القلب (١) واللسان جميعاً ، وهذا هو المفهوم من لفظ الكلام ، ونحو ذلك اذا أطلق ، والناس لهم فى مسمى الكلام والقول عند الاطلاق أربعة اقوال ، فالذى عليه السلف والفقهاء والجمهور انه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً ، كما يتناول لفظ « الانسان » للروح والبدن جميعا وقيل :بل مسماه ، بل هو مدلول مسماه وهذا قول كثير من اهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنسبين الى السنة ، وهو قول النحاة ، لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ ، وقيل : بل مسما ههو المعنى ، واطلاق الكلام على اللفظ مجاز ، لأنه دال عليه ، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه ، وقيل : بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى ، وهو قول بعض المتاخرين من الكلابية ، ولهم قول ثالث يروى عن ابى الحسن انه مجاز فى كلام الله ، حقيقة فى كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين تقوم بهم ، فلا يكون الكلام قلقاً بغير المتكلم ، بخلاف الكلام القرآنى ، فانه لايقوم عنده بالله ، فيمتنع أن يكون كلامه ، ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا أن من قال من السلف : الايمان قول وعمل ، اراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لايفهم منه الا القول الظاهر ، أو خاف ذلك ، فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال: قول وعمل ونية ، قال يتناول الاعتقاد وقول اللسان ، وأما العمل فقد لايفهم منه النية ، فزاد ذلك ، ومن زاد اتباع السنة ، فلأن ذلك كله لايكون محبوباً لله الا باتباع السنة ، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل ، انما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال ، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط ، فقالوا : بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة أقسام

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : وقول القلب : هو اقراره ومعرفته وتصديقة ، وعمله انقياده لما صدق به .

فسروا مرادهم ، كما سئل بن عبد الله التسترى عن الايمان ما هو ؟ فقال : قول وعمل ونية وسنة ، لأن الايمان اذا كان قولا بلا عمل ، فهو كفر واذا كان قولا وعملا بلا نية ، فهو نفاق ، واذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة .

## فصل

وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب اعلاها ان يكونا متباينين ليس احدهما هو الآخر ولا جزؤه ، ولا يعرف لزومه له ، كقوله : ( خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ) [ الفرقان : ٥٩ ] ونحو ذلك ، وقوله : ( وجبريل وميكال ) [ البقرة : ٩٨ ] وقوله : ( وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان ) [آل عمران : ٣ ] ، وهذا هو الغالب ، ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله : ( ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق ) [البقرة : ٤٢] ، وقوله : ( ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ) [ النساء : ١١٥ ] ، وقوله : ( ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله ) [ النساء : ١٣٦ ] ، فان من كفر بالله ، فقد كفر بهذا كله ، فالمعطوف لازم للمعطوف عليه ، وفى الآية التى قبلها المعطوف عليه لازم ، فانه من يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وفى الثانى نزاع ، وقوله : ( ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق ) [ البقرة : ٤٢ ]، هما متلازمان ، فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به ، خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل ، فصار ملبوساً ، ومن كتم الحق ، احتاج أن يقيم موضعه باطلا ، فليبس الحق بالباطل ، ولهذا كان كل من كتم من اهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا

وهكذا أهل البدع لاتجد أحداً ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ، ولاتجد صاحب بدعة الا ترك شيئاً من السنة كما

جاء فى الحديث : « ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها » رواه الامام احمد ، وقد قال تعالى : ( فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء ) [ المائدة : ١٤ ] ، فلما تركوا حظاً مما ذكروا به ، اعتاضوا بغيره، فوقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وقال تعالى : ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين [ الزخرف : ٣٦ ] ، اى : عن الذكر الذى أنزله الرحمن ، وقال تعالى : ( فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى)[طه:١٢٣،١٢٤]، وقال : ( اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ) [ الاعراف : ٣ ] ، فامر باتباع ما انزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن لم يتبع احدهما اتبع الآخر ، ولهذا قال : (ويتبع غير سبيل المؤمنين ) ، [ النساء : ١١٥ ] ، قال العلماء : من لم يكن متبعاً سبيلهم ، كان متبعا غير سبيلهم ،فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب، فليس لأحد أن يخرج عما اجمعوا عليه .

وكذلك من لم يفعل المأمور ، فعل بعض المحظور ، ومن فعل المحظور ، لم يفعل جميع المأمور ، فلا يمكن الانسان أن يفعل جميع ما أمر به مؤ فعله لبعض ما حظر مع تركه لبعض ما أمر ، فأن ترك ما خطر من جملة ما أمر به ، فهو مأمور ، ومن المحظور ترك المأمور ، فكل ماشغله عن الواجب ، فهو محرم، وكل ما لايمكن فعل الواجب الا به ، فعليه فعله ، ولهذا كان لفظ الأمر اذا أطلق يتناول النهى ، واذا قيد بالنهى كان نظير ما تقدم ، فاذا قال تعالى عن الملائكة : ( لايعصون الله ما أمرهم ) [ التحريم : ٦ ] دخل فى ذلك انه اذا نهاهم عن شىء اجتنبوه ، واما قوله : ( ويفعلون ما يؤمرون ) ، فقد قيل : لا يتعدون ماأمروا به ، وقيل : يفعلونه فى وقته لايقدمونه ولا يؤخرونه .

وقد يقال : هو لم يقل : ولا يفعلون الا ما يؤمرون ، بل هذا دل عليه قوله : ( لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ) [ الأنبياء : ٢٧ ] وقد قيل :

يعصون ما أمرهم به فى الماضى ، ويفعلون ما يؤمرون فى المستقبل ، وقد يقال: هذه الآية جبر عما سيكون ، ما أمروا به هنا ماضياً بل الجميع مستقبل ، فانه قال : ( قوا انفسكم واهليكم ناراً ) وما يتقى به انما يكون مستقبلا ، وقد يقال: ترك المأمور تارة يكون لمعصية المأمور وتارة يكون لعجزه ، فاذا كان قــادراً مريداً ، لزم وجود المأمور المقدور ، فقوله : ( لايعصون ) اى : لايمتنعون عن الطاعة ، وقوله : ( ويفعلون ما يؤمرون ) [ التحريم : ٦ ] ، اى : هم قادرون على ذلك لايعجزون عن شىء منه ، بل يفعلونه كله ، فيلزم وجود كل ما امروا به ، وقد يكون فى ضمن ذلك أنهم لايفعلون الا المأمور به ، كما يقول القائل : انا افعل ما امرت به ، اى : افعله ، ولا اتعداه الى زيادة ولا نقصان .

وايضا فقوله : ( لا يعصون الله ما أمرهم ) [ التحريم : ٦ ] ان كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك من أمره ، وان كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعــل ما لم ينهوا عنه .

والمقصود أن لفظ الأمر اذا اطلق تناول النهى ، ومنه قوله : ( اطيعــوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر ) [ النساء : ٩ ] ، اى اصحاب الأمر ، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهى ، ووجبت طاعته فى هذا وهذا ، فالنهى داخل فى الأمر ، وقال موسى للخضر : ( ستجدنى ان شاء الله صابراً ولااعصى لك مراً قال فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا ، ولما خرق السفينة قال له موسى : ( اخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً امــراً ) [ الكهف : ٧١ ] ، فسأله قبل احداث الذكر ، وقال فى الغلام : ( اقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئاً نكراً ) [ الكهف : ٧٤ ] ، فسأله قبل احداث الذكر ، وقال وقال عن الجدار : ( لوشئت لاتحذت عليه اجراً ) [ الكهف : ٧٨ ] ، وهذا سؤال من جهة المعنى ، فان السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول : لو نزلت عندنا لأكرمناك ، فان بت الليلة عندنا احسنت الينــا ، ومنه قول آدم : ( ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكــونن مــن

الخاسرين ) [الأعراف : ٢٣] . وقول نوح : (رب انى اعوذ بك ان اسالك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ) [ هود : ٤٧ ] . ومثله كثير ولهذا قال موسى : ( ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ) [ الكهف : ٧٧ ] ، فدل على انه سأله الثلاث قبل أن يحدث له الذكر ، وهذا معصية لنهيه وقد دخل فى قوله : ( ولا اعصى لك أمراً ) [الكهف: ٧١] ، فدل على ان عاصى النهى عاصى الأمر ، ومنه قوله تعالى : (الاله الخلق والأمر ) [الأعراف : ٥٤ ] . وقد دخل النهى فى الامر ، ومنه قوله : ( فليحذر الذين يخالفون عن أمره ) [ النور : ٦٣ ] . وقوله : ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم )[الأحزاب: ٣٦] فان نهيه داخل فى ذلك .

وقد تنازع الفقهاء فى قول الرجل لامر أته : اذا عصيت أمرى فانت طالق، اذا نهاها فعصته هل يكون ذلك داخلا فى قوله ؟ على قولين : قيل : لايدخل ، لأن حقيقة النهى غير حقيقة الأمر ، وقيل : يدخل ، لان ذلك يفهم منه فى العرف معصية الأمر والنهى ، وهذا هو الصواب ، لأن ما ذكر فى العرف هو حقيقة الامر ، وقيل : يدخل ، لان ذلك يفهم منه فى العرف معصية الامر والنهى ، وهذا هو الصواب ، لان ما ذكر فى العرف هو حقيقة فى اللغة والشرع ، فان الأمر المطلق فى كل متكلم فى العرف هو حقيقة فى اللغة والشرع ، فان الأمر المطلق فى كل متكلم اذا قيل : أطع أمر فلان ، أو فلان يطيع أمر فلان ، أو لا يعصى أمره ، فانه يدخل فيه النهى ، لأن الناهى آمر بترك المنهى عنه ، فلهذا قال سبحانه : ( ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون ) [البقرة : ٤٢ ] . ولم يقل : لاتكتموا الحق فلم ينه عن كل منهما لتلازمهما ، وليست هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم ، فانه كان يكون المعنى : لاتجمعوا بينهما فيكون وحدة غير منهى عنه .

وأيضا فتلك انما تجيء اذا ظهر الفرق كقوله : ( ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ) [ آل عمران : ١٤٢ ] ، وقوله : ( أو يوبقهن

بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص ) [ الشورى : ٣٤ ، ٣٥ ] ومن عطف الملزوم قوله تعالى : ( أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الأمر منكم ) [ النساء : ٥٨ ] فانهم اذا أطاعوا الرسول فقد اطاعوا الله كما قال تعالى : ( من يطع الرسول فقد اطاع الله ) [ النساء : ٨٠ ] ، واذا أطاع الله من بلغته رسالة محمد ، فانه لابد أن يطيع الرسول ، فانه لا طاعة لله الا بطاعته ، والثالث عطف بعض الشيء عليه ، كقوله: ( حافظوا على الصلوت والصلاة الوسطى ) [ البقرة : ٢٣٨ ] ، وقوله : ( واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ) [الاحزاب: ٧] ، وقوله : ( من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ) [ البقرة : ٩٨ ] ، وقوله : ( وأورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وارضاً لم تطؤوها ) [ الأحزاب : ٢٧ ] ، والرابع : عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين ، كقوله : ( سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى اخرج المرعى ) [ الأعلى : ١ — ٤ ] ، وقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ) [ البقرة : ٣ — ٤ ] ، وقد جاء فى الشعر ما ذكر أنه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله :

والفى قولها كذباً ومينا

ومن الناس من يدعى أن مثل هذا جاء فى كتاب الله كما يذكرونه فى قوله : ( شرعة ومنهاجا ) [ المائدة : ٤٨ ] ، وهذا غلط ، مثل هذا لايجىء فى القرآن، ولا فى كلام فصيح ، وغاية ما يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ ، كما ادعى بعضهم أن من هذا قوله :

الا حبذا هند وأرض بها هند
وهند أتى من دونها النأى والبعد

فزعموا انهما بمعنى واحد ، واستشهدوا بذلك على ما ادعوه من أن الشرعة : هى المنهاج ، فقال لهم المخالفون لهم : النأى أعم من البعد ، فان

النأى كلما قل بعده او كثر كانه مثل المفارقة ، والبعد انما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته ، وقد قال تعالى : ( وهم ينهون عنه وينأون عنه ) [ الأنعام : ٢٦ ] ،وهم مذمومون على مجانبته والتنحى عنه سواء كانوا قريبين أو بعيدين، وليس كلهم كان بعيداً عنه ، ولاسيما عند من يقول : نزلت فى ابى طالب ، وقد قال النابغة :

والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمـــة ، اى صار كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيداً منها .

## فصـــل

فاذا تبين هذا ، فلفظ الايمان اذا أطلق فى القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر ، وبلفظ التقوى ، وبلفظ الدين كما تقدم ، فان النبى ﷺ بـــين أن « الايمان بضع وسبعون شعبة ، افضلها قول : لا اله الا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، فكان كل ما يحبه الله يدخل فى اسم الايمان ، وكذلك لفظ التقوى ، وكذلك الدين أو دين الاسلام ، وكذلك روى انهم سألوا عن الايمان فانزل الله هذه الآية ( ليس البر أن تولوا وجوهكم ) [ البقرة : ١٧٧ ] ، وقـــد فسر البر بالايمان ، وفسر بالتقوى ، وفسر بالعمل الذى يقـــرب الى الله ، والجميع حق ، وقد روى مرفوعاً الى النبى ﷺ انه فسر البر بالايمان .

قال محمد بن نصر : حدثنا اسحاق بن ابراهيم ، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرى والملائى ، قالا : حدثنا المسعودى (١) عن القاسم قال : جاء رجل الى ابى ذر ، فسأله عن الايمان فقال : ( ليس البر أن تولوا وجوهكم ) الى آخر الآية ، فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال : جاء رجل الى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى عنه ، فقرأ عليه الذى قرأت عليك ، فقال لـــه الذى

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله وكان اختلط .

قلت لى ، فلما ابى أن يرضى قال له : « ان المؤمن الذى اذا عمل الحسنة سرته ورجاثوابها ، واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها » .

وقال : حدثنا اسحاق ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن مجاهد أن أباذر سأل النبى ﷺ عن الايمان فقرأ عليه : ( ليس البر ان تولوا وجوهكم ) [ البقرة : ١٧٧ ] الى آخر الآية (١) وروى باسناده عن عكرمة قال : سئل الحسن بن على بن ابى طالب مقبله من الشام عن الايمان فقرأ : ( ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ) وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال : قلت لسالم الأفطس : رجل أطاع الله فلم يعصه ، ورجل عصى الله فلم يطعه ، فصار المطيع الى الله فأدخله النار ، هل يتفاضلان فى الايمان ؟ قال : لا ، قال فذكرت ذلك لعطاء فقال : سهلم الايمان طيب أو خبيث ؟ فان الله قال : ( ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ) [ الأنفال : ٣٧ ] ، فسألتهم فلم يجبيونى فقال بعضهم : ان الايمان يبطن ليس معه عمل ، فذكرت ذلك لعطاء فقال : سبحان الله أما يقرؤون الآية التى فى البقرة : ( ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ) قال : ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال : ( وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ــ الى قوله ــ وأولئك هم المتقون) فقال : سلهم هل دخل هذا العمل فى هذا الأسم ، وقال : ( ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ) [ الاسراء : ١٩ ] ،فالزم الاسم العمل والعمل الاسم.

والمقصود هنا انه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل ، لا على ايمان

---

(١) قلت : هذا سند صحيح . وسيأتى من طريق أخرى عن مجاهد نحوه أتم منه.

خال عن عمل ، فاذا عرف أن الذم والعقاب واقع فى ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه ، بل يكون نزاعاً لفظياً ، مع أنهم مخطئون فى اللفظ ، مخالفون للكتاب والسنة ، وان قالوا : انه لايضره ترك العمل ، فهذا كفر صريح ، وبعض الناس يحكى هذا عنهم وانهم يقولون : ان الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولايضرهم تركها ، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون : لايدخل النار من أهل التوحيد أحد ، لكن ما علمت معيناً أحكى عنه هذا القول ، وانما الناس يحكونه فى الكتب ولايعنون قائلة ، وقد يكون قول من لا خلاق له من الفساق والمنافقين يقولون : لايضر مع الايمان ذنب أو مع التوحيد ، وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا ، ويدل على ذلك قوله تعالى فى آخر الآية : ( أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ) [ البقرة : ١٧٧ ] ، فقوله : صدقوا ، أى : فى قولهم : آمنا ، كقوله : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) [ الحجرات : ١٤ ] ، الى قوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ] ، أى : هم الصادقون فى قولهم : آمنا بالله ، بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم : ( اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ) [ المنافقون : ١ ] ، وقال تعالى : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ) [ البقرة : ٨ - ١٠ ] ، وفى ( يكذبون ) قراءتان مشهورتان (١) فانهم كذبوا فى قولهم : آمنا بالله واليوم والآخر ، وكذبوا الرسول فى الباطن وان

---

(١) قراءة الجمهور «يكذبون» بالتشديد ، وقرأ الكوفيون سوى أبان عن عاصم بالتخفيف مع فتح الياء انظر «زاد المسير» ٣١/١ طبع المكتب الاسمى ٣

صدقوه فى الظاهر ، وقال تعالى : ( الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) [ العنكبوت : ١ــ٣ ] ، فبين انه لابد أن يفتن الناس ، اى : يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم ، يقال : فتنت الذهب : اذا ادخلته النار لتميزه مما اختلط به ، ومنه قول موسى : ( ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء [ الأعراف : ١٥٤ ] ، اى : محنتك وابتلاؤك ، كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره ، وابتليتهم بأرسال الرسل وانزال الكتب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص ، فيجعل ذلك سبباً لضلالة قوم وهدى آخرين .

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق ، والمنافقين بالكذب، لان الطائفتين قالتا بألسنتهما : آمنا ، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ، ومن قال بلسانه ما ليس فى قلبه ، فهو كاذب منافق ، قال تعالى : (وما اصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يؤمئذ اقرب منهم للايمان ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ) [ آل عمران : ١٦٦،١٦٧ ] فلما قال فى آية البر : ( أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ) [ البقرة : ١٧٧ ] ، دل على أن المراد صدقوا فى قولهم: آمنا ، فان هذا هو القول الذى أمروا به وكانوا يقولونه ، ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا : نحن ابرار او بررة ، بل اذا قال الرجل : انا بر فهذا مزك لنفسه ، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة ، فقيل : تزكى نفسها فسماها النبى ﷺ زينب ، بخلاف انشاء الايمان بقولهم : آمنا فان هذا قد فرض عليهم أن يقولوه ، قال تعالى : ( قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل اسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ) [ البقرة : ١٣٦ ] ، وكذلك فى أول آل عمران ( قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ) [ آل عمران: ٨٤ ] ، وقال تعالى : ( آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته و كتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ) [ البقرة : ٢٨٥ ]، فقوله : ( لانفرق ) دليل على أنهم قالوا : آمنا ولانفرق ، ولهذا قال : ( وقالوا سمعنا وأطعنا ) فجمعوا بين قولهم : آمنا وبين قولهم : سمعنا وأطعنا ، وقد قال في آية البر : ( واولئك هم المتقون ) [ البقرة : ١٧٧ ] ، فجعل الأبرار هم المتقين عند الاطلاق والتجريد ، وقد ميز بينهما عند الافتراق والتقييد في قوله: ( وتعاونوا على البر والتقوى ) [المائدة : ٢] ، ودلت هذه الآية على ان مسمى الايمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الاطلاق واحد ، فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار .

ولهذا جاء في أحاديث الشفاعة الصحيحة : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان » ، وفي بعضها : « مثقال ذرة من خير » ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) [ الزلزال : ٧-٨ ] ، وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من ايمان ، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم أهل السعادة المطلقة ، وهم اهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب ، وهؤلاء الذين قال النبي ﷺ : « من غشنا فليس منا ، ومن حمل علينا السلاح فليس منا » (١) فانه ليس من هؤلاء ، بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد أسوة أمثالهم .

## فصل

وهذا النوع من نمط اسماء الله واسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء دينه . قال ا تعالى : ( قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ) [ الاسراء : ١١٠ ] ، وقال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه

(١) رواه مسلم وقد تقدم .

بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ) [ الأعراف : ١٧٩ ] ، وقال الله تعالى : (هو الله الذى لا اله هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ) [ الحشر : ٢٢—٢٤] ، فأسماؤه كلها متفقة فى الدلالة على نفسه المقدسة ، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذى دل عليه الاسم الآخر ، فالعزيز ذدل على نفسه مع عزته ، والخالق يدل على نفسه مع خلقه ، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ، ونفسه تستلزم جميع صفاته فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة ، وعلى احدهما بطريق التضمن ، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم .

وهكذا أسماء كتابه : القرآن والفرقان والكتاب والهدى والبيان والشفاء والنور ونحو ذلك هى بهذه المنزلة ، وكذلك أسماء رسوله : محمد واحمد والماحى والحاشر والمقفى ونبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة ، كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصفة الأخرى ، وهكذا ما يثنى ذكره من القصص فى القرآن ، كقصة موسى وغيرها ، ليس المقصود بها أن تكون سمواً ، بل المقصود بها أن تكون عبراً ، كما قال تعالى : ( لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ) [ يوسف : ١١١ ] ، فالذى وقع شىء واحد وله صفات ، فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من صفات التى يعتبر بها المعتبرون ، وليس هذا من التكرير فى شىء .

وهكذا أسماء دينه الذى أمر الله به ورسوله يسمى ايمانا وبراً وتقوى وخيراً وديناً وعملا صالحاً مستقيما ونحو ذلك ، وهو فى نفسه واحد ، لكن كل اسم يدل على صفة ليست هى الصفة التى يدل عليها الآخر ، وتكون تلك الصفة هى الأصل فى اللفظ والباقى كان تابعاً لها لازماً لها ، ثم صارت دالة

عليه بالتضمن ، فان الايمان أصله الايمان الذى فى القلب،ولابد فيه من شيئين: قول القلب ، قال الجنيد بن محمد : التوحيد قول القلب ، والتوكل : عمل القلب ، فلا بد فيه من قول القلب وعمله ، ثم قول البدن وعمله ، ولا بد فيه من عمل القلب ، مثل حب الله ورسوله ، وخشية الله ، وحب ما يحبه الله ورسوله ، وبغض ما يبغضه الله ورسوله ، واخلاص العمل لله وحده ، وتوكل القلب على الله وحده ، وغير ذلك من أعمال القلب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان .

ثم القلب هو الأصل ، فاذا كان فيه معرفة وارادة سرى ذلك الى البدن بالضرورة ، لايمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهى القلب » (١) .

وقال ابو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فاذا طاب الملك طابت جنوده ، واذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقول أبى هريرة تقريب ، وقول النبى ﷺ أحسن بياناً ، فان الملك وان كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس ، فيكون فيهم صلاح مع فساده ، أو فساد مع صلاحه ، بخلاف القلب فان الجسد تابع له لا يخرج عن ارادته قط ، كما قال النبى ﷺ : «اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد » .

فاذا كان القلب صالحاً بما فيه من الايمان علماً وعملا قلبيا ، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر ، والعمل بالايمان المطلق ، كما قال أهل الحديث قول وعمل ، قول باطن وظاهر ، وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الظاهر ، واذا فسد فسد ، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلى العابث : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » (١) ، فلا بد فى

(١) متفق عليه .

(١) لانعلم له أصلا عن احد من الصحابة ، والمعروف كما قال العراقى — أنه من قول سعيد بن المسيب ، رواه ابن المبارك فى «الزهد» وابن أبى شيبة فى « المصنف » بسند ضعيف ، فيه رجل لم يسم ، وقد روى مرفوعاً الى النبى ﷺ ، لكن فيه رجل وضاع .

ايمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما قال الله تعالى : ( ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ) [ البقرة : ١٦٥ ] ، فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حباً لله من المشركين لأندادهم .

وفى الآية قولان : قيل : يحبونهم كحب المؤمنين الله ، والذين آمنوا اشد حباً لله منهم لأوثانهم . وقيل : يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ، وهذا هو الصواب ، والأول قول متناقص وهو باطل ، فان المشركين لايحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله ، وتستلزم الارادة ، والارادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل ، فيمتنع أن يكون الانسان محباً لله ورسوله، مريداً لما يحبه ا ورسوله ارادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لايفعله ، فاذا لم يتكلم الانسان بالايمان مع قدرته دل على أنه ليس فى قلبه الايمان الواجب الذى فرضه الله عليه .

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا ان الايمان مجرد تصديق القلب وعمله ، لم يجعلوا أعمال القلب من الايمان ، وظنوا إنه قد يكون الانسان مؤمناً كامل الايمان بقلبه ، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى الله ورسوله ، ويعادى أولياء الله ، ويوالى اعداء الله ، ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الاهانة ، قالوا : وهذه كلها معاص لاتنافى الايمان الذى فى قلبه ، بل يفعل هذا وهو فى الباطن عند الله مؤمن قالوا : وانما ثبت له فى الدنيا أحكام الكفار ؛ لأن هذه الأقوال امارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالاقرار والشهود ، وان كان فى الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود ، فاذا أورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر فى نفس الأمر معذب فى الآخرة ، قالوا : فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه ، فالكفر عندهم شىء واحد ، وهو الجهل ، والايمان شىء واحد وهو العلم او تكذيب القلب وتصديقه ، فانهم متنازعون هل تصديق القلب شىء غير العلم أو هو هو ؟ .

وهذا قول مع انه افسد قول قيل فى الايمان ، فقد ذهب اليه كثير من اهل الكلام المرجئة ، وقد كفر السلف — كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبى عبيد وغيرهم — من يقول بهذا القول ، وقالوا : ابليس كافر بنص القرآن وانما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم ، لالكونه كذب خبراً ، وكذلك فرعون وقومه ، قال تعالى فيهم : ( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ) [ النمل : ١٤ ] ، وقال موسى عليه السلام لفرعون : ( لقد علمت ما انزل هؤلاء الا ر بالسموات والأرض بصائر ) [ الاسراء : ١٠٢ ] ، بعد قوله : ( ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنا اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك ياموسى مسحوراً ، قال لقد علمت ماانزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يافرعون مثبوراً ) [ الاسراء : ١٠١—١٠٢ ] ، فموسى وهو الصادق المصدوق يقول : ( لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ) فدل على أن فرعون كان عالماً بأن الله انزل الآيات وهو من اكبر خلق الله عناداً وبغياً لفساد ارادته وقصده لا لعدم علمه ، قال تعالى : ( ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ) [ القصص : ٤ ] ؛ وقال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا) وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ) [ البقرة : ١٤٦ ] وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم : ( فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ) [ الأنعام : ٣٣ ] .

فهؤلاء غلطوا فى أصلين :

احدهما : ظنهم أن الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ، ليس معه عمل ، وحال وحركة وارادة ومحبة ، وخشية فى القلب ، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقاً ، فان أعمال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيهما مما فرضه الله ورسوله ، فهو من الايمان الواجب ، وفيها ما أحبه ولم يفرضه ، فهو من الايمان المستحب ؛ فالأول لابد لكل مؤمن منه ، ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين ، ومن فعله وفعل الثانى كان من المقربين السابقين وذلك مثل

حب الله ورسوله ، بل أن يكون الله أحب اليه مما سواهما ، بل ان يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب اليه من أهله وماله ، ومثل خشية الله وحده دون المخلوقين ، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين ، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين ، والانابة اليه مع خشية كما قال تعالى: ( هذا ماتوعدون لكل اواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ) [ق ٣٢،٣٣]، ومثل الحب فى الله والبغض فى الله والموالاة لله والمعاداة لله .

والثانى : ظنهم أن كل من حكم الشارع بانه كافر مخلد فى النار ، فانما ذاك لانه لم يكن فى قلبه شىء من العلم والتصديق ، وهذا امر خالفوا به الحس والعقل والشرع ، وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمى الفطرة وجماهير النظار ، فان الانسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه ، أو لطلب علوه عليه ،أو يقوى النفس ، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق ، وهو فى قلبه يعلم ان الحق معه ، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وانهم صادقون ، لكن اما لحسدهم واما لارادتهم العلو والرياسة ، وأما لجهم دينهم الذى كانوا وما يحصل لم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة اقوام وغير ذلك ، فيرون فى اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة اليهم أو حصول أمور مكروهة اليهم ، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من اكفر الناس كابليس وفرعون ، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق ، ولهذا لايذكر الكفار حجة صحيحة تقدح فى صدق الرسل، وانما يعتمدون على مخالفة أهوائهم ، كقوله لنوح : ( أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ) [ الشعراء : ١١١ ] ، ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لايقدح فى صدقه ، لكن كرهوا مشاركة أولئك ، كما طلب المشركون من النبى ﷺ ، ابعاد الضعفاء ، كسعد ابن ابى وقاص ، وابن مسعود ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وبلال ونحوهم ، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون فى الصحابة اهل صفة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ( ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم

من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا اهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، اليس الله بأعلم بالشاكرين ) [ الأنعام : ٥٢ — ٥٣ ] .

ومثل قول فرعون : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) [ المؤمنون: ٤٧ ] ، وقول فرعون : ( ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين ) [ الشعراء : ١٨—١٩ ] ، ومثل قول مشركى العرب : ( ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ) [ القصص : ٥٧ ] ، قال الله تعالى : ( أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ) ومثل قول قوم شعيب له : ( أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل آموالنا ما نشاء ) [ هود : ٧٨ ] ، ومثل قول عامة المسركين : ( أنا وجدت آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ) [ الزخرف: ٢٣ ] .

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججا تقدح فى صدق الرسل ، بل تبين انها تخالف ارادتهم واهواءهمو عاداتهم ، فلذلك لم يتبعوهم ، وهؤلاء كلهم كفار ، بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبى ﷺ ويحبون علو كلمته ، وليس عندهم حسد له ، وكانوا يعلمون صدقه ، ولكن كانوا يعلمون أن فى متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم ، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم ، فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بصدق الايمان به بل لهوى انفس ، فكيف يقال : ان كل كافر انما كفر لعدم علمه بالله .

ولم يكف الجهمية أن جعلوا كل كافر جاهلا بالحق حتى قالوا : هو لايعرف أن الله موجود حق ، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأى حق كان ، بل الجهل بهذا الحق المعين . ونحن والناس كلهم يرون خلقاً من الكفار يعرفون فى الباطن أن دين الاسلام حق ، ويذكرون ما يمنعهم من الايمان ، اما معاداة أهلهم واما مال يحصل لهم من جهتهم يقطعونه عنهم ، وأما خوفهم اذا آمنوا أن

لا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم فى دينهم ، وأمثال ذلك من أغراضهم التى يبينون انها المانعة لهم من الايمان ، مع علمهم بأن دين الاسلام حق،ودينهم باطل . وهذا موجود فى جميع الأمور التى هى حق ، يوجد من يعرف بقلبه انها حق وهو فى الظاهر يجحد ذلك ، ويعادى اهله لظنه ان ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة ، قال تعالى : ( ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى انفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ) [ المائدة : ٥٤ـ٥٧ ] .

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الاسلام وفى قلبه مرض ، خاف أن يغلب اهل الاسلام فيوالى الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذى فى قلوبهم ، لالاعتقادهم أن محمداً كاذب واليهود والنصارى صادقون ، واشهر النقول فى ذلك أن عبادة بن الصامت قال : يارسول الله ان لى موالى من اليهود وانى أبرأ الى الله من ولاية يهود ، فقال : عبد الله بن أبى : لكنى رجل أخاف الدوائر ، ولا أبرأ من ولاية يهود، فنزلت هذه الآية .

والمرجئة الذين قالوا : الايمان تصديق القلب ، وقول اللسان ، والأعمال ليست منه ، كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها ، ولم يكن قولهم مثل قول جهم ، فعرفوا أن الانسان لايكون مؤمنا ان لم يتكلم بالايمان مع قدرته عليه ، وعرفوا أن ابليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم ، لكنهم اذا لم يدخلوا أعمال القلوب فى الايمان لزمهم قول جهم ، وان ادخلوها فى الايمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضاً فانها لازمة لها ، ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم ، فانهم رأوا أن الله قد فرق فى كتابه بين

الايمان والعمل ، فقال فى غير موضع : ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) [ البقرة : ٢٧٧ ] ، ورأوا أن الله خاطب الانسان بالايمان قبل وجود الأعمال فقال : ( ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق ) [ المائدة : ٦ ] ، (ياأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) [ الجمعة : ٥ ] ، وقالوا : لو ان رجلا آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل ان يجب عليه شىء من الاعمال مات مؤمنا ، وكان من أهل الجنة ، فدل على أن الأعمال ليست من الايمان . وقالوا : نحن نسلم أن الايمان يزيد ، نعنى انه كان كلما انزل الله آية وجب التصديق بها ، فانضم هذا التصديق الى التصديق الذى كان قبله ، لكن بعد كمال ماأنزل الله ، مابقى الايمان يتفاضل عندهم ، بل ايمان الناس سواء ايمان السابقين الأولين كأبى بكر وعمر ، وايمان أفجر الناس ، كالحجاج وابى مسلم الخراسانى وغيرهما .

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون : ان الأعمال قد تسمى ايماناً مجازاً ، لأن العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ، ولانها دليل عليه ويقولون . قوله : الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة افضلها قول : لا اله الا الله وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، مجاز .

والمرجئة ثلاث اصناف : الذين يقولون : الايمان مجرد مافى القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم اكثر فرق المرجئة كما قد ذكر أبو الحسن الأشعرى اقوالهم فى كتابه ، وذكر فرقاً كثيرة يطول ذكرهم ، لكن ذكرنا جمل اقوالهم ؛ ومنهم من لايدخلها فى الايمان كجهم ومن اتبعه كالصالحى، وهذا الذى نصره هو واكثر أصحابه ، والقول الثانى من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لايعرف لأحد قبل الكرامية ، والثالث : تصديق القلب وقول اللسان ، وهذا هوالمشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم ، وهؤلاء غلطوا من وجوه :

أحدها : ظنهم أن الايمان الذى فرضه الله على العباد متماثل فى حق

العباد ، وأن الايمان الذى يجب على شخص مثله على كل شخص ، وليس الأمر كذلك فان اتباع الانبياء المتقدمين او جب الله عليهم من الايمان مالم يوجبه على امة محمد ، واوجب على امة محمد من الايمان ما لم يوجبه على غيرهم ، والايمان الذى كان يجب قبل نزول جميع القرآن ، ليس هو مثل الايمان الذى يجب بعد نزول القرآن ، والايمان يجب على من عرف ماأخبر به الرسول مفصلا ليس مثل الايمان الذى يجب على من عرف ماأخبر به مجملا ، فانه لابد فى الايمان من تصديق الرسول فى كل ماأخبر ، لكن من صدق الرسول ، او مات عقب ذلك لم يجب عليه من الايمان غير ذلك ، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة ، فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وامر امر ماالايجب على من لم يجب عليه الا الايمان المجمل لموته قبل ان يبلغه شىء آخر .

وايضاً لو قدر انه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ماأمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ماأخبر به ، بل انما عليه ان يعرف مايجب عليه هو وما يحرم عليه ، فمن لامال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل فى الزكاة ، ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ماوجب للزوجة ، فصار يجب من الايمان تصديقاً وعملا على اشخاص مالا يجب على آخرين .

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم : خوطبوا بالايمان قبل الأعمال ، فنقول: ان قلتم : انهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال ، فقبل وجوبها لم تكن من الايمان ، وكانوا مؤمنين الايمان الواجب عليهم قبل ان يفرض عليهم ماخوطبوا بفرضه ، فلما نزل ان لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين ، ولهذا قال تعالى : ( ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ) [ آل عمران : ٩٧ ] ولهذا لم يجىء ذكر الحج فى اكثر الأحاديث التى فيها ذكر الاسلام والايمان ، كحديث وفد عبد القيس ، وحديث الرجل

الرجل النجدى الذى يقال له : ضمام بن ثعلبة وغيرهما ، وانما ذكر الحج فى حديث ابن عمر وجبريل ، وذلك لأن الحج آخر مافرض من الخمس ، فكان قبل فرضه لايدخل فى الايمان والاسلام ، فلما فرض ادخله النبى ﷺ فى الايمان اذا افرد ، وادخله فى الاسلام اذا قرن بالايمان واذا افرد ، وسنذكر ان شاء شاء الله متى فرض الحج .

وكذلك قولهم : من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمناً ، فصحيح ، لأنه اتى بالايمان الواجب عليه ، والعمل لم يكن وجب عليه بعد ، فهذا مما يجب ان يعرف ، فانه تزول به شبهة حصلت للطائفتين .

فاذا قيل : الأعمال الواجبه من الايمان ، فالايمان الواجب متنوع ليس شيئاً واحداً فى حق جميع الناس ، واهل السنة والحديث يقولون :جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الايمان ، اى من الايمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء : الغسل ينقسم الى مجزىء وكامل ، فالمجزىء: ما أتى فيه بالواجبات فقط ، والكامل ما اتى فيه بالمستحبات ، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب ، وقد يراد به الكمال المستحب .

واما قولهم : ان الله فرق بين الايمان والعمل فى مواضع ، فهذا صحيح وقد بينا أن الايمان اذا أطلق ادخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها ، وقد يقرن به الأعمال ، وذكرنا نظائر لذلك كثيرة ، وذلك لأن أصل الايمان هو ما فى القلب ، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك ، لا يتصور وجود ايمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح ، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب ، فصار الايمان متناولا للملزوم واللازم وان كان أصله ما فى القلب ، وحيث عطفت عليه الأعمال ، فانه أريد أنه لايكتفى بايمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة .

ثم للناس فى مثل هذا قولان ، منهم من يقول : المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصاً له ، لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول،

وقالوا : هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام ، كقوله : ( من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ) [ البقرة : ٩٨ ] ، وقوله : ( واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وعيسى بن مريم ) [ الاحزاب : ٧ ] ، وقوله : ( والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما انزل على محمد وهو الحق من ربهم ) [ محمد : ٢ ] ، فخص الايمان بما أنزل على محمد بعد قوله : ( والذين آمنوا ) وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين ، وقوله : ( حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ) [ البقرة : ٢٣٨ ] ، وقوله : ( وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ) [ البينة : ٥ ] ، والصلاة والزكاة من العبادة ، فقوله : ( آمنوا وعملوا الصالحات ) كقوله : ( وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ) ، فانه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم انهما عبادتان واجبتان ، فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما ، وكذلك يذكر الايمان اولا ، لانه الأصل الذى لابد منه ، ثم يذكر العمل الصالح فانه أيضاً من تمام الدين لابد منه ، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد ايمان ليس معه العمل الصالح ، وكذلك قوله : ( آلم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ) [ البقرة : ١ـ٥ ] ، وقد قيل : هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما انزل عليه وما انزل على من قبله ، كابن سلام ونحوه ، وان هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب ، وقد قيل : هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما انزل اليه وما انزل من قبله ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب ، وهم صنف واحد ، وانما عطفوا لتغاير الصفتين كقوله : ( سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى اخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ) [ الأعلى : ١ـ٥ ] ، فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض ، وكذلك قوله : ( والصلاة الوسطى ) [ البقرة : ٢٣٨ ] ، وهى صلاة العصر .

والصفات : اذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح أو الذم ، تقول : هذا الرجل هو الذى فعل كذا وهو فعل كذا وهو الذى فعل كذا ، وتعدد محاسنه ، ولهذا مع الاتباع قد يعطفونها وينصبون ، أو يرفعون ، وهذا القول هو الصواب ، فان المؤمنين بالغيب ان لم يؤمنوا بما أنزل اليه وما أنزل اليه وما أنزل من قبه لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين ، وكذلك الذين آمنوا بما أنزل اليه وما أنزل من قبله ان لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، لم يكونوا على هدى من ربهم ، ولم يكونوا ، مفلحين ولم يكونوا متقين ، فدل على أن الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل الى محمد ﷺ ، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع انها داخلة فيها ، لكن المقصود صفة ايمانهم ، وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه ، لايفرقون بين أحد منهم ، والا فاذا لم يذكر الا الايمان بالغيب ،فقد يقول من يؤمن ببعض ويكفر ببعض : نحن نؤمن بالغيب.

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ، ويقال : انها أول سورة نزلت بالمدينة ، افتتحها الله بأربع آيات فى صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين، وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين ، فانه من حين هاجر النبى ﷺ صار الناس ثلاثة أصناف : اما مؤمن ، وأما كافر مظهر للكفر ، واما منافق . بخلاف ماكانوا وهو بمكة ، فانه لم يكن هناك منافق ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق ، وانما كان النفاق فى قبائل الأنصار ، فان مكة كانت الكفار مستولين عليها ، فلا يؤمن ويهاجر الا من هو مؤمن ، ليس هناك داع يدعو الى النفاق ، والمدينة آمن بها أهل الشوكة ، فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار ، فمن لم يظهر الايمان آذوه ، فاحتاج المنافقون الى اظهار الايمان ، مع أن قلوبهم لم تؤمن ، والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالايمان بجميع ما جاءت به الأنبياء ، فقال فى أولها ما تقدم ، وقال فى وسطها : ( قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من

ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم بــه فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق ) [ البقرة : ١٣٦، ١٣٧ ] الآيتان ، وقال فى آخرها : ( آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، لانفرق بين أحد من رسله وقالوا : سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ) والآية الأخــرى .

وفى «الصحيحين» عن النبى ﷺ أنه قال : « الآيتان من آخر ســورة البقرة : من قرأ بهما فى ليلة كفتاه » والآية الوسطى قد ثبت فى « الصحيــح » أنه كان يقرأ بها فى ركعتى الفجر : وبه ( قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمــة سواء بيننا وبينكم ) [ آل عمران : ٦٤ ] الآية ، تارة : وبـ ( قل يا أيها الكافرون) ( وقل هو الله أحد ) تارة فيقرأ بما فيه ذكر الايمان والاسلام ، أو بما فيه ذكــر التوحيد والاخلاص .

فعلى قول هؤلاء يقال : الأعمال الصالحة المعطوفة على الايمان دخلت فى الايمان ، وعطف عليه عطف الخاص على العام ، أما لذكره خصوصاً بعد عموم ، واما لكونه اذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام ، وقيــل : بل الأعمال فى الأصل ليست من الايمان ، فان أصل الايمان هو ما فى القلب ، ولكن هى لازمة له ، فمن لم يفعلها كان ايمانه منتقياً لأن انتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم ، لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى اسم الايمان اذا أطلق ، كما تقدم فى كلام النبى ﷺ ، فاذا عطف عليه ذكرت ، لئلا يظن الظان أن مجرد ايمانه منتقياً لأن انتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم ، لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى اسم الايمان اذا أطلق ، كما تقدم فى كلام النبى ﷺ ، فاذا عطفــت عليه ذكرت، لئلا يظن الظان أن مجرد ايمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمــة للايمان يوجب الوعد ، فكان ذكرنا تخصيصاً وتنصيصاً ليعلم أن الثــواب الموعود به فى الآخرة ــــ وهو الجنة بلا عذاب ــــ لايكون الا لمن آمن وعمــل صالحاً لا يكون لمن ادعى الايمان ولم يعمل ، وقد بين سبحانه فى غير موضع أن

الصادق فى قوله : آمنت لابد أن يقوم بالواجب . وحصر الايمان فى هـؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم .

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن فى كتاب « الموجز » ، وهـو أن القرآن نفى الايمان عن غير هؤلاء ، كقوله : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) [ الأنفال : ٢ ] ولم يقل : ان هذه الأعمال من الايمان ، قالوا: فنحن نقول : من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمناً ، لأن انتفاؤها دليل على انتفاء العلم من قلبه .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدهما : أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لايمان القلب ، فاذا انتفت لم يبق فى القلب ايمان ، وهذا هو المطلوب ، وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءاً ، نـــزاع لفظى .

الثانى : ان نصوصاً صرحت بأنها جزء ، كقوله : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » .

الثالث أنكم أن قلتم بأن من انتفى عنه هذه الأمور فهو كافر خال مـــن كل ايمان ، كان قولكم قول الخوارج ، وأنتم فى طرف ، والخوارج فى طرف ، فكيف توافقونهم ! ؟ ومن هذه الأمور اقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصـــوم رمضان ، والحج ، والجهاد ، والاجابة الى حكم الله ورسوله ، وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه ؛ وان كفرتموه كان قولكم قول الخوارج .

الرابع : أن قول القائل : ان انتفاء بعض هذه الأعمال يستلـزم أن لايكون فى قلب الانسان شىء من التصديق بأن الرب حق ، قول يعلم فساده بالاضطرار .

الخامس : ان هذا اذا ثبت فى هذه ثبت فى سائر الواجبات ، فيرتفـــع النزاع المعنـــوى .

## فصــل

الوجه الثانى من غلط المرجئة : ظنهم أن مافى القلب من الايمان ليس الا التصديق فقط ، دون أعمال القلوب ، كما تقدم عن جهمية المرجئة .

الثالث : ظنهم أن الايمان الذى فى القلب يكون تاماً بدون شىء من الأعمال ، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الايمان ، ومقتضاه بمنزله السبب مع المسبب ، ولا يجعلونها لازمة له ، والتحقيق أن ايمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع أن يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر ، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقيق الارتباط الذى بين البدن والقلب ، مثل أن يقولوا : رجل فى قلبه من الايمان مثل مافى قلب ابى بكر وعمر ، وهو لايسجد لله سجدة ، ولا يصوم رمضان ، ويزنى بأمه واخته ، ويشرب الخمر نهار رمضان ، يقولون : هذا مؤمن تام الايمان ، فبنفى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الانكار .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا خلف بن حيان (١)،حدثنا معقل بن عبيد الله العبسى قال قدم علينا سالم الأفطس بالارجاء ، فنفر منه أصحابنا نفوراً شديداً ، منهم ميمون بن مهران ، وعبد الكريم بن مالك ، فانه عاهد الله أن لايؤويه واياه سقف بيت الا المسجد ، قال معقل : فحججت ، فدخلت على عطاء بن أبى رباح فى نفر من أصحابى وهو يقرأ : ( حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ) [ يوسف : ١١٠ ] قلت : ان لنا حاجة فأخلنا ، ففعل ، فأخبرته أن قوماً قبلنا قد أحدثوا وتكلموا وقالوا : ان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ، فقال : أو

---

(١)لم أجد فى الرواة من هذه الطبقة من اسمه خلف بن حيان ، حتى ولا فى ولا فى «تعجيل المنفعة» لابن حجر ، وانما رأيت فى «تاريخ بغداد» ( ٨/ ٣٣٠) مانصه : « خلف بن حيان صدقة ، والد وكيع القاضى : ذكر احمد بن كامل انه كان أحد الموصوفين بالشطارة . وحدث عن يزيد بن هارون روى عنه ابنه محمد المعروف بوكيع » . قلت : فهو من طبقة أحمد ، فيبعد أن يكون من شيوخه مع كونه غير معروف بالرواية ، فالله أعلم .

ليس الله تعالى يقول : ( وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ) [ البينة : ٥ ] فالصلاة والزكاة من الدين ، قال : فقلت : انهم يقولون : ليس فى الايمان زيادة ، فقال: او ليس قد قال الله فيما انزل : ( ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ) [ الفتح : ٤ ] هذا الايمان ، فقلت : انهم انتحلوك ، وبلغنى أن ابن ذر دخل عليك فى أصحاب له ، فعرضوا عليك قولهم فقبلته .فقلت هذا الأمر ، فقال ، لا والله الذى لا اله الا هو ، مرتين او ثلاثاً ثم قال : قدمت المدينة ، فجلست الى نافع ، فقلت : يا ابا عبد الله : ان لى اليك حاجة ، فقال : سر أم علانية ب فقلت : لا بل سر، قال : رب سر لاخير فيه ، فقلت : ليس من ذلك ، فلما صلينا العصر قام وأخذ بثوبى ، ثم خرج من الخوخة ولم ينتظر القاص ، فقال : حاجتك ؟ قال : فقلت : اخلنى هذا ، فقال : تنح ، قال : فذكرت له قولهم ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « امرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا : لا اله الا الله ، فاذا قالوا : لا اله الا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » ، قال : قلت : انهم يقولون : نحن نقر بأن الصلاة فرض ولا نصلى ، وبأن الخمر حرام ونشربها ، وأن نكاح الأمهات حرام ونحن ننكح ، فنتر يده من يدى وقال : من فعل هذا فهو كافر .

قال معقل : فرأيت الزهرى فأخبرته بقولهم ، فقال : سبحان الله ، فقد اخذ الناس فى هذه الخصومات ، قال رسول الله ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . قال معقل : فلقيت الحكم بن عتبه فقلت له : ان عبد الكريم وميموناً بلغهما انه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا قولهم عليك فقبلت قولهم ، قال : فقبل ذلك على ميمون ، وعبد الكريم ؟ ! لقد دخل على اثنا عشر رجلا وأنا مريض فقالوا : يا ابا محمد بلغك أن رسول الله ﷺ اتاه رجل بأمة سوداء ، أو حبشية ، فقال: يارسول الله ! على رقبة مؤمنة ، أفترى هذه مؤمنة ؟ فقال لها رسول الله ﷺ: « اتشهدين ان لا اله الا الله ؟ » ؟ فقالت : نعم ، قال : وتشهدين أن محمداً

رسول الله ؟ » قالت : نعم ، قال : « وتشهدين أن الجنة حق والنار حق ؟ » قالت : نعم . قال : « وتشهدين أن الله يبعثك من بعد الموت ؟ » قالت : نعم ، قال : « فأعتقها فانها مؤمنة » : فخرجوا وهم ينتحلون ذلك .

قال معقل : ثم جلست الى ميمون بن مهران ، فقلت ياابا ايوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها ، قال : فقرأ : ( اذا الشمس كورت ) [ التكوير : ١ ] حتى اذا بلغ : ( مطاع ثم أمين ) [ التكوير : ٢١ ] قال : ذاكم جبريل والخيبة لمن يقول : ان ايمانه كايمان جبريل . ورواه حنبل عن أحمد ورواه ايضاً عن ابن أبى مليكة قال : لقد أتى على برهة من الدهر وما أرانى أدرك قوماً يقول أحدهم : انى مؤمن مستكمل الايمان ، ثم مارضى حتى قال : ايمانى على ايمان جبريل وميكائيل ، وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم : انى مؤمن وان نكح اخته وأمه وبنته ، والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبى ﷺ ، ما مات أحد منهم الا وهو يخشى النفاق على نفسه ، وقد ذكر هذا المعنى عنه البخارى فى « صحيحه » قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، مامنهم أحد يقول : ايمانه كايمان جبريل .

وروى البغوى عن عبد الله بن محمد عن ابن (١) مجاهد قال : كنت عند عطاء بن أبى رباح ، فجاء ابنه يعقوب فقال : ياأبتاه ان أصحاباً لى يزعمون أن ايمانهم كايمان جبريل ، فقال : يابنى ليس ايمان من اطاع الله كايمان من عصى الله .

قلت : قوله عن المرجئة : انهم يقولون : ان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ، قد يكون قول بعضهم ، فأنهم كلهم يقولون : ليستا من الايمان ، وأما من الدين فقد حكى ع بعضهم انه يقول : ليستا من الدين ، ولا نفرق بين الايمان والدين ، ومنهم من يقول : بل هما من الدين ، ويفرق بين اسم الايمان واسم

---

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : وفى نسخة خطية : ابى مجاهد

الدين وهذا هوالمعروف من اقوالهم التى يتولونها عن أنفسهم ، ولم ار انـــا فى كتاب أحد منهم أنه قال : الأعمال ليست من الذين ، بل يقولون ليست مـــن الايمان ، وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم ، فان أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الأعمال من الدين ، فذكر قوله : ( اليوم اكملت لكم دينكم ) [ الآية ٣ ] أنها نزلت فى حجة الوداع ، قال ابو عبيد : فأخبر انه أما كمل الدين الآن فى آخـــر الاسلام فى حجة النبى ﷺ ، وزعم هؤلاء انه كان كاملا قبل ذلك بعشرين سنة من أول ما نزل عليه الوحى بمكة حين دعا الناس الى الاقرار ، حتى قـــال : لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه هذه الحجة . . . الى ان قـــال : ان الايمان ليس بجميع الدين ، ولكن الدين ثلاثة أجزاء : الايمان جزء ، والفرائض جزء ، والنوافل جزء .

قلت : هذا الذى قاله هذا هو مذهب القوم ، قال أبو عبيد : وهذا غير مانطق به الكتاب ، الا تسمع الى قوله : ( ان الدين عند الله الاسلام ) [ آل عمران : ١٩ ] وقال : ( ومن يبتغى غير الاسلام ديناً فلن يقبل منـــه ) [ آل عمران : ٨٥ ] وقال : ( ورضيت لكم الاسلام ديناً ) [ المائدة : ٣ ] فأخبر أن الاسلام هو الدين برمته ، ورغم هؤلاء أنه ثلث الدين .

قلت : انما قالوا : ان الايمان ثلث ، ولم يقولوا : ان الايمان ثلث الدين، لكنهم فرقوا بين مسمى الايمان ومسمى الدين ، وسنذكر ان شاء الله تعالـــى الكلام فى مسمى هذا ومسمى هذا ، فقد يحكى عن بعضهم أنه يقول : ليستـــا من الدين ولايفرق بين اسم الايمان والدين ، ومنهم من يقول : بل كلاهما مـــن الدين ، والشافعى رضى الله عنه كان معظماً لعطاء بن أبى رباح ، ويقول : ليس فى التابعين اتبع للحديث منه ، وكذلك أبو حنيفة قال : مارأيت مثل عطاء وقد أخذ الشافعى هذه الحجة عن عطاء ، فروى ابن أبى حاتم فى مناقـــب الشافعى : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الملك بن عبد الحميد الميمونى ، حدثنا ابـــو عثمان بن محمد بن محمد الشافعى ، سمعت أبى يقول ليلة للحميدى : ما يحتج عليهم ) يعنى أهل الارجاء ) بآية أحج من قوله : ( وما امروا الا ليعبـــدوا الله

مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمـــة ) [ البينة : ٥ ] .

وقال الشافعي رضي الله عنه في كتاب « الأم » في باب النية في الصلاة: يحتج بأن لاتجزىء صلاة الا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبي ﷺ : « انما الأعمال بانيلت » ثم قال : وكان الاجماع من الصحابة ، والتابعين من بعدهم ، ومن أدركناهم يقولون : الايمان قول وعمل ونية ، لايجزىء واحد من الثلاث الا بالآخر .

وقال حنبل : حدثنا الحميدي قال : وأخبرت أن ناساً يقولون : من أقـــر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت ، فهو مؤمن مالم يكن جاحداً اذا علم أن تركه ذلك فيه ايمانه اذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة،فقلت : هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين قال الله تعالى : ( وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ) وقال حنبل : سمعت أبا عبد الله أحمد بـــن حنبل يقول : من قال هذا ، فقد كفر بالله ، ورد على أمره وعلى الرسول ماجاء به عن الله .

قلت : وأما احتجاجهم بقوله للأمة : « أعتقها فانها مؤمنة » فهـــو مـــن حججهم المشهورة ، وبه احتج ابن كلاب ، وكان يقول : الايمان هو التصديق والقول جميعاً ، فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه ،وهذا لاحجة فيـــه ، لأن الايمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لايستلزم الايمـــان في الباطن الذي يكن صاحبه من أهل السعادة في الآخرة ، فان المنافقين الذيـــن قالوا : ( آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ) [ البقرة : ٨ ] هم في الظاهر مؤمنون ، يصلون مع الناس ، ويصومون ، ويحجون ، ويغزون ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر ، لا في مناكحتهم ولا موارثتهم

ولا نحو ذلك . بل لما مات عبد الله بن أبى بن سلوك — وهو من اشهر الناس بالنفاق — ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين ، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون . واذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين.

وقد تنازع الفقهاء فى المنافق الزنديق الذى يكتم زندقته ، هل يرث ويورث ؟ على قولين . والصحيح انه يرث ويورث وان علم فى الباطن أنه منافق، كما كان الصحابة على عهد النبى ﷺ لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة ، لا على المحبة التى فى القلوب ، فانه لو علق بذلك لم تمكن معرفته ، والحكمة اذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها ، وهو ما اظهره من موالاة المسلمين . فقول النبى ﷺ : « لايرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » (١) لم يدخل فيه المنافقون وان كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ، بل كانوا يورثون ويرثون ، وكذلك كانوا فى الحقوق والحدود كسائر المسلمين ، وقد أخبر الله عنهم انهم يصلون ويزكون ، ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال : ( وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون ) [ التوبة : ٥٤ ] وقال : ( ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ) [ النساء : ١٤١ ] .

وفى « صحيح مسلم » عن النبى ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر اربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلا » وكانوا يخرجون مع النبى ﷺ فى المغازى ، كما خرج ابن أبى فى غزوة بنى المصطلق ، وقال فيها : ( لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ) [ المنافقون : ٨ ] .

---

(١) أخرجه الشيخان .

وفى « الصحيحين » عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع النبى ﷺ فى سفر اصاب الناس فيه شدة ، فقال عبد الله بن ابى لأصحابه : لاتنفقوا على من حوله ، وقال : ( لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ) فاتيت النبى ﷺ فاخبرته ، فأرسل الى عبد الله بن ابى ، فسأله فاجتهد بيمنه ما فعل ، فقال : كذب زيد رسول الله ، فوقع فى نفسى مما قالوه شدة ، حتى أنزل الله تصديقى ( اذا جاءك المنافقون ) [ المنافقون : ١ ] قال : ثم دعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم . وفى غزوة تبوك استنفرهم النبى ﷺ كما استنفر غيرهم ، فخرج بعضهم معه ، وبعضهم تخلفوا ، وكان فى الذين خرجوا معه من هم بقتله فى الطريق ، هموا بحل حزام ناقته ليقع فى واد هناك ، فجاءه الوحى ، فأسر الى حذيفة اسماءهم ، ولذلك يقال : هو صاحب السر الذى لا يعلمه غيره ، كما ثبت ذلك فى « الصحيح » ، ومع هذا ففى الظاهر تجرى عليهم احكام اهل الايمان .

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد فى هذا المقام ، فان كثيرا من المتأخرين مابقى فى المظهرين للاسلام عندهم الا عدل او فاسق ، واعرضوا عن حكم المنافقين ، والمنافقون مازالوا ولا يزالون الى يوم القيامة ، والنفاق شعب كثيرة ، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على انفسهم .

ففى « الصحيحين » عن النبى ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا ائتمن خان » وفى لفظ لمسلم : « وان صام وصلى وزعم انه مسلم » .

وفى « الصحيحين » عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا ائتمن خان ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » .

وكان النبى ﷺ اولا يصلى عليهم ويستغفر لهم ، حتى نهاه الله عن ذلك

فقال : ( ولا تصل على احد منهم ابداً ولا تقم على قبره ) [ التوبة : ٨٤ ] وقال : ( استغفر لهم أو لاستغفر لهم ، وان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) [ التوبة : ٨٠ ] فلم يكن يصلى عليهم ولا يستغفر لهم ، ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم مايستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الايمان ، فانه ﷺ قال : « أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا، أن لا اله الا الله وانى رسول الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله » (١) ولما قال لأسامة بن زيد : «أقتلته بعدما قال : لا اله الا الله ؟ » وقال : انما قالها تعوذاً : « هلا شققت عن قلبه؟» وقال : « انى لم اومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم » (٢) وكان اذا اسؤذن فى قتل رجل يقول : « اليس يصلى ، اليس يتشهد ؟ » (٣) فاذا قيل له : انه منافق . قال : « ذاك » (٤) ، فكان ﷺ حكمه فى دمائهم وأموالهم كحكمه فى دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً الا بأمر ظاهر ، مع انه كان يعلم نفاق كثير منهم ، وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه ، قال تعالى : ( وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم ) [ التوبة : ١٠٢ ] وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لايعلمون أنه منافق ، ومن علم انه منافق لم يصل عليه . وكان عمر اذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلى عليه حذيفة ، لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم ، وقد قال الله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ) [ الممتحنة : ١٠ ] فأمر بامتحانهن هنا وقال : ( الله أعلم بأيمانهن ) .

والله تعالى لما أمر فى الكفارة بعتق رقبة مؤمنة ، لم يكن على الناس أن أن لا يعتقوا ا من يعلموا أن ايمان فى قلبه ، فان هذا كما لو قيل لهم : اقتلوا الا

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم .
(٣) متفق عليه . (٤) متفق عليه،وهو قطعة من الحديث الذى قبله.

من علمتم أن الايمان فى قلبه ، وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ، فاذا رأوا رجلا يظهر الايمان جاز لهم عتقه ، وصاحب الجارية لما سأل النبى ﷺ هل هى مؤمنة ، وانما اراد الايمان الظاهر يفرق به بين المسلم والكافر ، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن يعتق الا من علم أن الايمان فى قلبه، فانه لا يعلم ذلك مطلقاً ، بل ولا احد من الخلق يعلم ذلك مطلقاً ، وهذا رسول الله ﷺ أعلم الخلق والله يقول له : ( وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ) فأولئك انما كان النبى ﷺ يحكم فيهم كحكمه فى سائر المؤمنين ، ولو حضرت جنازة احدهم صلى عليها ، ولم يكن منهياً عن الصلاة الا على من علم نفاقه،والا لزم أن ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم ، وهذا لايقدر عليه بشر .

ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله : ( ومنهم ، ومنهم ) (١) صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك ، فان الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم ، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم ، وان كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه ، فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة ، بخلاف حالهم لما نزل القرآن ، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق ،ومابقى يمكنهم من اظهاره أحياناً ما كان يمكنهم قبل ذلك ، وانزل الله تعالى : ( لئن لم ينته المنافقون واللذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ) [ الأحزاب : ٦٠—٦٢ ] فلما توعدوا بالقتل اذا أظهروا النفاق ، كتموه .

ولهذا تنازع الفقهاء فى استتابة الزنديق ، فقيل : يستتاب ، واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبى ﷺ يقبل علانيتهم ، ويكل أمرهم الى الله،

---

(١) سورة التوبة ، الآيات ٤٩،٥٨،٧٥،وهى : ( ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ... (٤٩) ومنهم من يلمزك فى الصدقات ... (٥٨) ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ... (٧٥) .

فيقال له : هذا كان فى أول الأمر ، وبعد هذا أنزل الله : ( ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . فعلموا أنهم ان أظهروه كما كانوا يظهرونه قتلوا ، فكتموه.

والزنديق : هو المنافق ، وانما يقتله من يقتله اذا ظهر منه انه يكتم النفاق، قالوا : ولا تعلم توبته ، لأن غاية ما عنده انه يظهر ما كان يظهر وقد كان يظهر الايمان وهو منافق ، ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل الى تقتيلهم ، والقرآن قد توعدهم بالتقتيل .

والمقصود أن النبى ﷺ انما أخبر عن تلك الأمة بالايمان الظاهر الذى علقت به الأحكام الظاهرة ، والا فقد ثبت عنه ان سعداً لما شهد لرجل انه مؤمن قال : أو مسلم . وكان يظهر من الايمان ما تظهره الأمة وزيادة ، فيجب أن يفرق بين احكام المؤمنين الظاهرة التى يحكم فيها الناس فى الدنيا ، وبين حكمهم فى الآخرة بالثواب والعقاب ، فالمؤمن المستحق للجنة لابد أن يكون مؤمنا فى الباطن باتفاق جميع أهل القبلة ، حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمناً ويقولون : الايمان هو الكلمة ، يقولون : انه لاينفع فى الآخرة الا الايمان الباطن.

وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة ، وهو غلط عليهم ، وانما نازعوا فى الاسم لا فى الحكم بسبب شبهة المرجئة فى أن الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل ، ولهذا اكثر ما اشترط الفقهاء فى الرقبة التى تجزىء فى الكفارة العمل الظاهر ، فتنازعوا هل يجزىء الصغير ؟ على قولين معروفين للسلف هما روايتان عن احمد ، فقيل : لايجزىء عتقه ، لأن الايمان قول وعمل، والصغير لم يؤمن بنفسه انما ايمانه تتبع لأبويه فى أحكام الدنيا ، ولم يشترط احد أن يعلم انه مؤمن فى الباطن ، وقيل : بل يجزىء عتقه ، لأن العتق من الاحكام الظاهرة وهو تبع لأبويه ، فكلما أنه يرث منهما ويصلى عليه ، ولا يصلى الا على مؤمن ، فانه يعتق .

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم اذا ماتوا ، ويدفنون فى مقابر المسلمين من عهد النبى ﷺ ، والمقبرة التى كانت للمسلمين

فى حياته فى حياته خلفائه وأصحابه يدفن فيها كل من أظهر الايمان وان كان منافقا فى الباطن ، ولم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين فى شىء من ديار الاسلام ، كما تكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها ، ومن دفن فى مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون،والصلاة لاتجوز على من علم نفاقه بنص القرآن فعلم أن ذلك بناء على الايمان الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وقد كان النبى ﷺ يصلى عليهم ويستغفر لهم حتى نهى عن ذلك ، وعلل ذلك بالكفر ، فكان ذلك دليلا على أن كل من لم يعلم أنه كافر بالباطن جازت الصلاة عليه والاستغفار له وان كانت فيه بدعة وان كان له ذنوب .

واذا ترك الامام أو أهل العلم والدين الصلاة على بعض المتظاهرين ببدعة أو فجور زجراً عنها ، لم يكن ذلك محرماً للصلاة عليه والاستغفار له ، بل قال النبى ﷺ فيمن كان يتمنع عن الصلاة عليه وهو الغال وقاتل نفسه، والمدين الذى لا وفاء له : « صلوا على صاحبكم » وروى أنه كان يستغفر للرجل فى الباطن وان كان فى الظاهر يدع ذلك زجراً عن مثل مذهبه ، كما روى فى حديث محلم بن جثامة .

وليس فى الكتاب والسنة المظهرون للاسلام الا قسمان : مؤمن أو منافق، فالمنافق فى الدرك الأسفل من النار ، والآخر مؤمن ، ثم قد يكون ناقص الايمان فلا يتناوله الاسم المطلق ، وقد يكون تام الايمان ، وهذا يأتى الكلام عليه ان شاء الله فى مسألة الاسلام والايمان ، وأسماء الفساق من أهل الملة ، لكن المقصود هنا أنه لايجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة — ولو دعا الناس اليها — كافراً فى الباطن ، الا اذا كان منافقاً ، فأما من كان فى قلبه الايمان بالرسول وما جاء به وقد غلط فى بعض ما تأوله من البدع ، فهذا ليس بكافر أصلا ، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للأمة وتكفيراً لها ، ولم يكن فى الصحابة من يكفرهم لا على بن أبى طالب ولا غيره ، بل حكموا فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك فى غير هذا الموضع .

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة ، من كان منهم منافقاً فهو كافـــر فى الباطن ، ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن ، لم يكـــن كافراً فى الباطن ، وان أخطأ فى التأويل كائناً ما كان خطوه ،وقد يكون فى بعضهم شعبة من شعب النفاق ، ولايكون فيه النفاق الذى يكون صاحبه فى الـــدرك الأسفل من النار . ومن قال : ان الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفــر كفراً ينقل ن الملة ، فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابه رضوان الله عليهم اجمعين ، بل واجماع الائمة الأربعة وغير الاربعة ، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة ، وانما يكفر بعضهم بعضاً ببعض المقالات، كما قد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

وانما قال الأئمة بكفر هذا ، لأن هذا فرض ما لا يقع ، فيمتنع أن يكون الرجل لايفعل شيئاً مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ويفعـــل ما يقدر عليه من المحرمات ، مثل الصلاة بلا وضوء والى غير القبلة ، ونكاح الامهات ، وهو مع ذلك مؤمن فى الباطن ، بل لايفعل ذلم الا لعدم الايمان الذى فى قلبه ، ولهذا كان اصحاب ابى حنيفة يكفرون أنواعاً ممن يقول كذا وكـــذا وكذا لما فيه من الاستخفاف ، ويجعلونه مرتداً ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظى الذى بين اصحابه وبين الجمهور فى العمل : هل هو داخل فى اســـم الايمان أم لا ؟ ولهذا فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو أن الرجل اذا كان مقراً بوجوب الصلاة فدعى اليها وامتنع واستتيب ثلاثاً مع تهديـــده بالقتل ، فلم يصل حتى قتل ، هل يموت كافرا أو فاسقاً ؟ على قولين .

وهذا الفرض باطل ، فانه يمتنع فى الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه ، وأنه يعاقبه على تركها ويصبر علي القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر فى ذلك ، هذا لايفعله بشر قط ، بل ولايضرب أحد ممن يقـــر بوجوب الصلاة الا صلى ، لا ينتهى الأمر به الى القتل ، وسبب ذلك ان القتـــل ضرر عظيم لايصبر عليه الانسان الا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد انه ان فارقه هلك ، فيصبر عليه حتى يقتل ، سواء كان الدين حقاً أو باطلا ، أمـــا

مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطناً وظاهراً فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط .

ونظير هذا : لو قيل : ان رجلا من اهل السنة قيل له : ترضى عن أبى بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما ، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضى عنهما ، فهذا لا يقع قط . وكذلك لو قيل : ان رجلا يشهد أن محمداً رسول الله باطناً وظاهراً وقد طلب منه ذلك ، وليس هناك رهبة ولا رغبة لأجلها ، فامتنع منها حتى قتل ، فهذا يمتنع أن يكون فى الباطن يشهد أن محمداً رسول الله ، ولهذا كان القول الظاهر من الايمان الذى لا نجاة للعبد الا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين الا الجهمية — جهماً ومن وافقه — فانه اذا قدر أنه معذور لكونه اخرس ، أو لكونه خائفاً من قوم ان أظهر الاسلام آذوه ونحو ذلك ، فهذا يمكن أن لايتكلم مع ايمان فى قلبه ، كالمكره على كلمة الكفر . قال الله تعالى : ( الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ) [النحل: ١٠٦ ] وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ، فانه (١) جعل كل من تكلم بالكفر ، من أهل وعيد الكفار ، الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .

فان قيل : فقد قال تعالى : ( ولكن من شرح بالكفر صدراً ) قيل : وهذا موافق لأولها ، فانه من كفر من غير اكراه فقد شرح بالكفر صدراً ، والا تناقض أول الآية وآخرها ، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره ، وذلك يكون بلا اكراه ، لم يستثن المكره فقط ، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغيره اذا لم يشرح صدره ، واذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً ، فقد شرح بها صدراً وهى كفر ، وقد دل على ذلك قوله تعالى : ( يحذر المنافقين ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزؤوا ان الله مخرج ما تحذرون ، ولئن سألتهم ليقولن

---

انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ) [ التوبة : ٦٤ـــ٦٧ ] فقد اخبر انهم كفروا بعد ايمانهم مع قولهم : انا تكلمنـــا بالكفر من غير اعتقادا له ، بل كنا نخوض ونلعب ، وبين ان الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا الا ممن شرح صدره بهذا الكلام ، ولو كان الايمان فى قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام .

والقران يبين أن ايمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقولـــه تعالى : ( ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتون اليه مذعنين ) الى قوله : ( انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هـــم المفلحون )[ النور : ٤٧ـــ٥١ ] فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ، سمعوا واطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الايمان

## فصـــل

فان قيل : فاذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله ، فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان ، فليزم تكفير أهل الذنوب ، كما تقولـــه الخوارج أو تخليدهم فى النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية، كما تقوله المعتزله، وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة ، فان المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير ، وأما الخوارج والمعتزلة ، فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم .

قيل : أولا ينبغى ان يعرف أن القول الذى لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر فى النار ، فان هـــذا

القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان ، وسائر ائمة المسلمين على انه لايخلد في النار احد ممن في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، واتفقوا ايضاً على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فية من أهل الكبائر من أمته ، ففي « الصحيحين » عنه أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » ، وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها ، وقد نقل بعض الناس عن الصحابة في ذلك خلافاً ، كما روى ابن عباس أن القاتل لاتوبة له ، وهذا غلط على الصحابة ، فانه لم يقل احد منهم أن النبي ﷺ لايشفع لأهل الكبائر ، ولا قال : انهم يخلدون في النار ، ولكن ابن عباس في احدى الروايتين عنه قال : ان القاتل لاتوبة له ، وعن احمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان ايضاً . والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد ، وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمي ، فلهذا حصل فيه النزاع .

واما قول القائل : ان الايمان اذا ذهب كله ، فهذا ممنوع ، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الايمان فانهم ظنوا انه متى ذهب بعضه كله لم يبق منه شيء ، ثم قالت الخوارج والمعتزلة : هو مجموع ما امر الله به ورسوله ، وهو الايمان المطلق كما قاله اهل الحديث ، قالوا : فاذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الايمان شيء فيخلد في النار ، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم : لاتذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئاً من الايمان ، اذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئاً واحداً يستوي فيه البر والفاجر ، ونصوص الرسول واصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه ، كقوله : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » ولهذا كان اهل السنة والحديث على انه يتفاضل ، وجمهورهم يقولون : يزيد وينقص ، ومنهم من يقول : يزيد ولا يقول : ينقص ، كما روى عن مالك في احدى الروايتين ، ومنهم من يقول : يتفاضل ، كعبد الله بن المبارك ، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه عن الصحابة ، ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة ، فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة ، عن أبي جعفر ، عن

جده عمير بن حبيب الخطمى ، وهو من اصحاب رسول الله ﷺ قال : الايمان يزيد وينقص ، قيل له : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال : اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ، واذا غلفلنا ونسينا فتلك نقصانه ، وروى اسماعيل بن عياش ، عن جرير أن عثمان ، عن الحارث بن محمد عن ابى الدرداء قال: الايمان يزيد وينقص .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا يزيد ،حدثنا جرير بن عثمان قال : سمعت أشياخنا او بعض اشياخنا ان ابا الدرداء قال : ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الايمان ام ينقص ؟ وان فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتيه ، وروى اسماعيل بن عياش ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن ربيعة الخضرمى ، ن أبى هريرة قال: الايمان يزيد وينقص ٣

وقال احمد بن حنبل : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن طلحة ، أن زبيد ، عن ذر (١) قال : كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه : هلموا نزداد ايمانا ، فيذكرون الله عز وجل (٢) ، وقال أبو عبيد فى «الغريب» فى حديث على: ان الايمان يبدأ لمظة فى القلب ، كلما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبد الله ، عن عمرو بن هند الجملى عن على ، قال الأصمعى : اللمظة : مثل النكتة او نحوها .

وقال احمد بن حنبل : حدثنا وكيع ، عن شريك ، عن هلال ، عن عبد الله بن عكيم قال : سمعت ابن مسعود يقول فى دعائه : اللهم زدنا ايماناً ويقيناً

---

(١) هو ذر بن عبد الله المرهبى الهمدانى الكوفى .
(٢) ورواه ابن ابى شيبة ايضاً فى كتاب الايمان ورجاله ثقات ، لكنه منقطع بين ذر وعمر .

وفقهاً . وروى سفيان الثورى عن جابع بن شداد عن نؤمن نذكر الله تعالى(١) وروى أبو اليمان : حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد ، وان عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول : قم بنا نؤمن ساعة ، فنجلس فى مجلس ذكر (٢) وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبى ﷺ ونزول القرآن كله .

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان : الإنصاف من نفسه ، والانفاق من الاقتار ، وبذل السلام للعالم ، ذكر البخارى فى «صحيحه» (٣) ، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الايمان، ثم تعلمنا القرآن ايماناً ، والآثار فى هذا كثيرة ، رواها المصنفون فى هذا الباب عن الصحابة والتابعين فى كتب كثيرة معروفة .

[ قال مالك بن دينار : الايمان يبدو فى القلب ضعيفاً ضيئلا كالبقلة ، فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه ، أوشك أن ينمو ويزداد ، ويصير له أصل وفروع ، وثمرة وظل الى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال ، وان صاحبه اهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها ، أو صبى فذهب بها ، واكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها او أيبسها ، كذلك الايمان .

وقال خيثمة بن عبد الرحمن : الايمان يسمن فى الخصب ، ويهزل فى الجدب ، فخصبه العمل الصالح ، وجدبه الذنوب والمعاصى .

وقيل لبعض السلف : يزداد الايمان وينقص ؟ قال : نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال ، وينقص حتى يصير أمثال الهباء .

(١) ورواه ابن أبى شيبه عن الأعمش عن جامع بن شداد به ، وسنده صحيح .

(٢) ورواه ابن ابى شيبة من طريق ابن سابط قال : كان عبد الله بن رواحة ... الحديث نحوه .

(٣) يعنى تعليقاً بدون اسناد ، وقد وصله ابن ابى شيبة بسند صحيح عن عمار موقوفاً ، وقد روى مرفوعاً وله . شواهد كما قال الحافظ فى «الفتح» .

وفى حديث حذيفة الصحيح : « حتى يقال للرجل : ما اجلده ، ما أظرفه، ما أعقله ، وما فى قلبه ، مثقال حبة من خـردل من ايمـان » وفى حديثـه الآخر الصحيح : « تعرض ، الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فاى ذنب اشربها ، نكتت فيه سوداء ، واى قلب انكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : ابيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً ، كالكوز مجخياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً الا ما اشرب من هواه » ، وفى حديث السبعين الفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب كتاية ، فانه من اعظم الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه ، لأنه وصفهم بقوة الايمان وزيادة فى تلك الخصال التى تدل على قوة ايمانهم ، وتوكلهم على الله فى امورهم كلهـا .

وروى ابو نعيم من طريق الليث بن سعد ، عن يزيد بن عبد الله اليزنى، عن ابى رافع انه سمع رجلا حدثه انه سأل رسول الله ﷺ عن الايمان فقال: اتحب ان اخبرك بصريح الايمان ؟ قال : نعم . قال : « اذا اسأت او ظلمت احداً ، عبدك او أمتك ، أو احداً من الناس ، حزنت وسـاءك ذلـك ، واذا تصدقت او احسنت ، استبشرت وسرك ذلك » ورواه بعضهم عن يزيد ، عمن سمع النبى ﷺ انه سأله عن زيادة الايمان فى القلب ونقصانه ، فذكر نحوه ، وقال الزار : حدثنا محمد بن ابى الحسن البصرى ، ثنا هانىء بن المتوكـل ، ثنا عبد الله سليمان ، عن واستكمل الايمان : خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن معصية الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل ، واربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » .

فالخصال الاولى تدل على زيادة الايمان وقوته ، والاربعة الاخر تـدل على ضعفه ونقصانه .

وقال أبو يعلى الموصلى : ثنا عبد الله القواريرى ، ويحى بن سعيد قالا: ثنا يزيد بن زريع ، ويحى بن سعيد قالا : حدثنا عوف ، حدثنى عقبة بن عبد الله المزنى قال يزيد فى حديثه فى مسجد البصرة : حدثنى رجل قد سماه ، ونسى

عوف اسمه قال : كنت بالمدينة فى مسجد فيه عمر بن الخطاب ، فقال لبعض جلسائه : كيف سمعتم رسول الله ﷺ يقول فى الاسلام ؟ فقال : سمعته يقول: الاسلام بدأ جذعاً ، ثم ثنياً ، ثم رباعيا ، ثم سداسيا ، فقال عمر : فما بعد البزول الا النقصان ، كذا ذكره أبو يعلى فى « مسند عمر » وفى « مسند » هذا الصحابى المبهم ذكره أولى .

قال ابو سليمان : من احسن فى ليله كوفىء فى نهاره ، ومن احسن فى نهاره كوفىء فى ليله قال الشيخ ] (١) .

والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات ، كقوله تعالى : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) [ الأنفال : ٢ ] وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات اى وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول ، وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الأيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معاينه من علم الايمان ما لم يكن ، حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ، ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ما لم يكن ، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته ، وهذا زيادة الايمان ، وقال تعالى : ( الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاحشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ) [ آل عمران :١٧٣ ] فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكيلا على الله ، وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق ، بل يخافون الخالق وحده ، وقال تعالى : ( واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم ) [ التوبة : ١٢٥—١٢٦ ] وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم ايماناً بحسب مقتضاها ، فان كانت

(١) ما بين معكفين من الصفحة (٢١٣) حتى هنا زيادة من المخطوطة ، ليست فى النسخ التى بين أيدينا .

امراً بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة ، وان كانت نبياً عن الشيء انتهوا عنه فكرهوه ، ولهذا قال : ( وهم يستشرون ) والاستبشار غير مجرد التصديق ، وقال تعالى : ( والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ) [ الرعد : ٣٨ ] والفرح بذلك من زيادة الايمان ، قال تعالى : ( قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ) [ يونس : ٥٨ ] وقال تعالى : ( ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ) [ الروم : ٤ـ٥ ] وقال تعالى : ( وما جعلنا اصحاب النار ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً ) [ المدثر : ٣١ ] وقال تعالى : ( هو الذى انزل السكينة فى قلوبهم المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ) [ الفتح : ٤ ] وهذه نزلت لما رجع النبى ﷺ واصحابه من الحديبية ، فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان ، والسكينة طمأنينة فى القلب وتصديقه ، ولهذا قال يوم حنين : ( ثم انزل الله سكنيته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها ) [ التوبة : ٢٧ ] وقال تعالى : (ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها) [ التوبة : ٤١ ] ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار ، وانما انزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو ، فلما أنزل السكينة فى قلوبهم مرجعهم من الحديبية ، ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ، دل على أن الايمان المزيد حال للقلب، وصفة له ، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه ، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم ، والريب المنافى لليقين ، يكون ريباً فى العلم ، وريباً فى طمأينتة القلب ، ولهذا جاء فى الدعاء المأثور : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ماتبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

وفى حديث الصديق الذى رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال : « سلوا الله العافية واليقين ، فما أعطى أحد بعد اليقين شيئاً خيراً

من العافية ، فسلوهما الله تعالى » (١) فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب ، وطمأنينته وتسليمه ، وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره ، كما قال تعالى : ( ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ) [ التغابن:١١ ] قال علقمة : ويروى عن ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، وقوله تعالى: ( يهد قلبه) هداه لقلبه : هو زيادة فى ايمانه ، كما قال تعالى : ( والذين اهتدوا زادهم هدى ) [ محمد : ١٧ ] وقال : ( انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ) [ الكهف : ١٣ ] .

ولفظ الايمان أكثر ما يذكر فى القرآن مقيداً ، فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به ، بل يجعل موجباً للوازمه وتمام ما أمر به ، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى : ( آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير ، ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين ، هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ) [ الحديد : ٧—٩ ] وقال تعالى فى آخر السورة : ( ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، والله غفور رحيم ) [الحديد:٢٨] وقد قال بعض المفسرين فى الآية الاولى :انها خطاب لقريش، وفى الثانية : انها خطاب ليهود والنصارى ، وليس كذلك ، فان الله لم يقل قط للكفار : ( يا أيها الذين آمنوا ) ثم قال بعد ذلك : ( لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شىء من فضل الله ) [ الحديد : ٢٩ ] وهذه السورة مدنية باتفاق ، لم يخاطب بها المشركين بمكة ، وقد قال ( وما لكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين ) [الحديد:٨] وهذا لا يخاطب به كافر ، وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم ، وانما أخذ ميثاق

---

(١) وهو حديث صحيح له فى « المسند » طرق .

المؤمنين ببيعتهم له ، فان كل من كان مسلماً مهاجراً ، كان يبايع النبى ﷺ ، كما بايعه الأنصار ليلة العقبة ، وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله ، بأداء مايجب عمله من تمامه باطناً ، كما نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم فى كل صلاة ، وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة ، لكـن الهداية المفصلة فى جميع مايقولونه ويفعلونه فى جميع أمورهم ، لم تحصـل وجميع هذه الهداية المفصلة الخاصر هى من الايمان المأمور به ، وبذلـك يخرجهم الله من الظلمات الى النـور .

## فصـل

وزيادة الايمان الذى امر الله به ، والذى يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه : احدهما : الاجمالى والتفصيل فيما أمروا به ، فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر بـه رسولزهم مجملا ، فمعلوم أنه لايجب فى أول الأمر ماوجب بعد نزول القرآن كله، ولايجب على كل عبد من الايمان المفصل مما أخبر به الرسول مايجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الايمان المفصل بذلك مالا يلزم غيره ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين ، مات مؤمناً بما وجب عليه من الايمان ، وليس ماوجب عليه ولا ماوقع عنه مثل ايمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها ، بل ايمان هذا اكمل وجوباً ووقوعاً ، فان ماوجب عليه من الايمان أكمل ، وما وقـع منه اكمـل .

وقوله تعالى : ( اليوم أكملت لكم دينكم ) [ المائدة : ٣ ] اى فى التشريع بالأمر والنهى ، ليس المراد أن كل واحد من الأمة وجب عليه مايجب على سائر الامة ، وانه فعل ذلك ، بل فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ ، انه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين ، وجعل نقصان عقلها ، أن شهادة امرأتين ، شهادة رجل واحد ، ونقصان دينها أنها اذا حاضت لاتصوم ولاتصلى ، وهذا النقصان

ليس هو نقصاً مما أمرت فلا تعاقب على هذا النقصان ، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله ، كان دينه كاملا بالنسبة الى هذه الناقصة الدين .

الوجه الثانى : الاجمالي والتفصيل فيما وقع منهم ، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط ، لكن اعرض عن معرفة امره ، ونهيه ، وخبره ، وطلب العلم الواجب عليه ، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله ، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ماأمر به فعمل به ، وآخر طلب علمه ، فعلمه ، وآمن به ، ولم يعمل به ، فهؤلاء وان اشتركوا فى الوجوب ، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فايمانه أكمل ممن عرف ماوجب عليه والتزمه ، وأقر به ، لكنه لم يعمل بذلك كله ، وهذا المقر بما جاء به الرسول ، المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل ، أكمل ايماناً ممن لم يطلب معرفة ماأمر به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب ، بل هو فى غفلة عن تفصيل ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنه مقر بنبوته باطناً وظاهراً .

فكلما علم القلب ، ماأخبر به الرسول فصدقه ، وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة فى ايمانه على من لم يحصل له ذلك ، وان كان معه التزام عـــام واقرار عـــام .

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها ، فآمن بها ، كان ايمانه أكمل ممـــن لايعرف تلك الأسماء بل آمن بها ايماناً مجملا ، أو عرف بعضها ، وكلما ازداد الانسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته ، كان ايمانه به أكمل .

الثالث أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه اقوى من بعض ، وأثبت واسعد عن الشك ، وهذا امر يشهده كل احد من نفسه ، كما أن الحسن الظاهر بالشيء الواحد ، مثل رؤية الناس للهلال ، وان اشتركوا فيها ، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض ، وكذلك سماع الصوت الواحد ، وشم الرائحة الواحدة ، وذوق النوع الواحد من الطعام ، فكذلك معرفة القلب وتصديقه ، يتفاضـــل اعظم من ذلك من وجوه متعددة ، والمعانى التى يؤمن بها من معانى اسماء الرب وكلامه ، يتفاضل الناس فى معرفتها ، اعظم من تفاضلهم فى معرفة غيرها .

الرابع : أن التصديق المستلزم لعمل القلب ، أكمل من التصديق الذى لايستلزم عمله ، فالعلم الذى يعمل به صاحبه ، اكمل من العلم الذى لايعمل به ، واذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ، ورسوله حق والجنة حق ، والنار حق ، وهذا علمه اوجب له محبة الله ، وخشيته ، وارغبة فى الجنة ، والهرب من النار ، والآخر علمه لم يوجب ذلك ، فلعم الأول اكمل ، فان قوة المسبب دال على قوة السبب ، وهذه الأمور نشأت عن العلم ، فالعلم بالمجبوب يستلزم صلبه ، والعلم بالمخوف ، يستلزم الهرب منه ، فاذا لم يحصل اللازم ، دل على سعف الملزوم ، ولهذا قال النبى ﷺ « ليس المخبر كالمعاين » (١) فان موسى لما اخبره ربه أن قومه عبدوا العجل ، لم يلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ، ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله ، لكن المخبر وان بصدق المخبر ، فقد لايتصور المخبر به فى نفسه ، كما يتصور اذا عاينه ، بل يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به ، وان كان مصدقاً به ، ومعلوم أنه عند المعاينة ، يحصل له من تصور المخبر به ، مالم يكن عند الخبر ، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق .

الخامس : ان اعمال القلوب ، مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله تعالى ورجائه ، ونحو ذلك ، هى كلها من الايمان ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة داتفاق السلف ،وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا عظيماً .

السادس : ان الأعمال الظاهرة مع الباطنة ، هى ايضاً من الايمان والناس يتفاضلون فيها .

السابع : ذكر الانسان بقلبه ما أمر الله به واستحضاره لذلك ، بحيث لايكون غافلا عنه ، أكمل ممن صدق به وغفل عنه ، فان الغفلة تضاد كمال

---

(١) رواه أحمد وغيره بسند جيد بلفظ « ليس الخبر كالمعاينة » .

العلم ، والتصديق والذكر ، والاستحضار يكمل العلم واليقين ، ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة : اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادة ، واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه ، وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه : اجلسوا بنا ساعة نؤمن ، قال تعالى : ( ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ) [ الكهف : ٢٨ ] وقال تعالى : ( وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ) [ الذريات : ٥٥ ] وقال تعالى : ( سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ) [ الأعلى : ١٠،١١ ] ثم كلما تذكر الانسان ماعرفه قبل ذلك ، وعمل به ، حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك ، وعرف من معاني اسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك ، كما في الأثر : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن .

وفي « الصحيح » ، عن النبي ﷺ : « مثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر ربه ، مثل الحي والميت » . قال تعالى : ( واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً ) [الأنفال : ٢ ] ، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه ، وتزيدهم عملا بذلك العلم ، وتزيدهم تذكراً لما كانوا نسوه ، وعملا بتلك التذكرة ، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق ، وفي انفسهم ، قال تعالى : ( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ) [ فصلت : ٥٣ ] ، أي ان القرآن حق ، ثم قال تعالى : ( أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ) [ فصلت : ٥٣ ] ، فان الله شهيد في القرآن بما أخبر به ، فآمن المؤمن ، ثم اراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ماأخبر به القرآن ، فبينت لهم هذه الآيات ان القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك .

وقال تعالى : ( أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ) [ ق : ٦-٨ ] فالآيات المخلوقة والمتلوة ، فيها تبصرة ، وفيها تذكرة : تبصرة من العمى ، وتذكرة من الغفلة ، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ، ويذكر من عرف ونسي ، والانسان يقرأ

السورة مرات ، حتى سورة الفاتحة ، ويظهر له فى اثناء الحال من معانيها مالم يكن خطر له قبل ذلك ، حتى كأنها تلك الساعة نزلت ، فيؤمن بتلك المعـــانى ويزداد علمه وعمله ، وهذا موجود فى كل من قرأ القرآن بتدبر ، بخلاف مـــن قراه مع الغفلة ، ثم كلما فعل شيئاً مما امر به ، استحضر انه أمر به فصدق الأمر ، فحصل له فى تلك الساعة من التصديق فى قلبه ماكان غافلا عنه وان لم يكن مكذباً .

الثامن : أن الانسان قد يكون مكذباً ومنكراً لأمور لايعلم أن الرسول أخبر بها ، وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر ، بل قلبه جازم بانه لايخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ، ثم يسمع الآية أو الحديث ، أو يتدبر ذلك ، أو يفسر له معناه ، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه ، فيصدق بما كان مكذباً بـــه ، ويعرف ما كان منكراً ، وهذا تصديق جديد ، وايمان جديد ازداد به ايمانه ، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلا ، وهذا وان اشبه المجمل والمفصل لكون قلبـــه سليماً عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل ، وعن معرفة وانكار لشيء من ذلك ، فيأتيه التفصيل بعد الاجمالى على قلب ساذج ، وأما كثير من الناس ، من أهل العلوم والعبادات ، فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف مـــا جاء به الرسول وهم لايعرفون انها تخالف ، فاذا عرفوا رجعوا ، وكل من ابتدع فى الدين قولا اخطأ فيه ، أو عمل عملا اخطأ فيه ، وهو مؤمن بالرسول ، أو عرف ما قاله وآمن به ، لم يعدل عنه ، هو من هذا الباب ، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول ، فهو من هذا الباب ، فمن علم ماجاء به الرسول ، وعمل به، اكمل ممن أخطأ ذلك ، ومن علم الصواب بعد الخطأ ، وعمل به فهو اكمل ممـــن لم يكن كذلك .

## فصـــل

وقد اثبت الله فى القرآن اسلاماً بلا ايمان فى قوله تعالى : ( قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكـــم ، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ) [ الحجرات : ١٤ ] . وقـــد

ثبت فى « الصحيحين » عن سعد بن ابى وقاص ، قال : أعطى النبى ﷺ رهطاً ، وفى رواية : قسم قسماً ، وترك فيهم من لم يعطه ، وهو أعجبهم الى ، فقلت. يارسول الله ، مالك عن فلان فوالله انى لاراه مؤمناً ، فقال رسول الله ﷺ : « أو مسلماً » اقولها ثلاثاً ، ويرددها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ثم قال : « انى لأعطى الرجل ، وغيره احب الى منه ، مخافة أن يكبه الله على وجهه فى النار » ، وفى رواية : فضرب بيده بين عنقى وكتفى ، وقال : « اقتالا أى سعد ؟ » .

فهذا الاسلام الذى نفى الله عن أهله دخول الايمان فى قلوبهم ، هل هو اسلام يثابون عليه ؟ أم هو من جنس اسلام المنافقين ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف : احدهما : أنه اسلام يثابون عليه ، ويخرجهم من الكفر والنفاق ، وهذا مروى عن الحسن ، وابن سيرين ، وابراهيم النخعى ، وأبى جعفر الباقر ، وهو قول حماد بن زيد ، وأحمد بن حنبل ، وسهل ابن عبد الله التسترى ، وأبى طالب المكى ، وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا مؤمل بن اسحاق عن عمار بن زيد قال:سمعت هشاماً يقول : كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن (١) . وقال احمد بن حنبل : حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، قال : قال مالك ، وشريك، وأبو بكر بن عياش ، وعبد العزيز بن ابى سلمة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد : الايمان : المعرفة والاقرار والعمل ، الا أن حماد بن زيد ، يفرق بين الاسلام والايمان ، يجعل الايمان خاصاً ، والاسلام عاماً (٢) .

والقول الثانى : أن هذا الاسلام : هو الاستسلام خوف السبى والقتل،

---

(١) أى ويهابان أن يقولا : هو مؤمن .
(٢) وعلى هامش النسخة الهندية : يجعل الاسلام خاصاً ، والايمان عاماً .

مثل اسلام المنافقين ، قال : وهؤلاء كفار ، فان الايمان لم يدخل فى قلوبهم ، ومن لم يدخل الايمان فى قلبه فهو كافر ، وهذا اختيار البخارى ، ومحمد ابن نصر المروزى ، والسلف مختلفون فى ذلك .

قال محمد بن نصر : حدثنا اسحاق ، انبأنا جرير ، عن مغيرة ، قال : اتيت ابراهيم النخعى ، فقلت : ان رجلا خاصمنى يقال له : سعيد العنبرى — فقال ابراهيم : ليس بالعنبرى ولكنه زبيدى . قوله : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ) فقال : هو الاستسلام ، فقال ابراهيم : لا ، هو الاسلام .

وقال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن مجاهد : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) ، قال : استسلمنا خوف السبى والقتل ، ولكن هذا منقطع ، سفيان لم يدرك مجاهداً.
والذين قالوا : ان هذا الاسلام هو كأسلام المنافقين ، لا يثابون عليه ، قالوا لأن الله نفى عنهم الايمان ، ومن نفى عنه الايمان فهو كافر . وقال هؤلاء: الاسلام هو الايمان ، وكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين ، لزمه ان لا يجعلهم داخلين فى قوله تعالى : ( ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة ) [ المائدة : ٦ ] وفى قوله تعالى : ( ياأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ) [ الجمعة : ٩ ] وأمثال ذلك ، فانهم انما دعوا باسم الايمان ، لا باسم الاسلام ، فمن يكن مؤمناً لم يدخل فى ذلك .

وجواب هذا أن يقال : الذين قالوا من السلف : انهم خرجوا من الايمان الى الاسلام ، ولم يقولوا : انه لم يبق معهم من الايمان شىء ، بل هذا قول الخوارج ، والمعتزلة . واهل السنة الذين قالوا هذا ، يقولون : الفساق يخرجون من النار بالشفاعة ، وان معهم ايماناً يخرجون به من النار ، لكن لا يطلق عليهم اسم الايمان،لأن الايمان المطلق،هو الذى يستحق صاحبه الثواب، ودخول الجنة ، وهؤلاء ليسوا من اهله ، وهم يدخلون فى الخطاب بالايمان ، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل فى الايمان وان لم يستكمله ، فانه انما خوطب

أيفعل تمام الايمان ، فكيف يكون قد اتمه قبل الخطاب ؟ ! والا كنا قد تبينا ان هذا المأمور من الايمان قبل الخطاب ، وانما صار من الايمان بعد ان امروا به، فالخطاب : ( ياأيها الذين آمنوا ) ، غير قوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابو وجاهدوا بأموالهم وانفسهم ) [ الحجرات:١٥ ] ونظائره، فان الخطاب : بـ ( ياأيها الذين آمنوا ) ، يدخل فيه من اظهر الايمـــان ، وان كان منافقاً فى الباطن يدخل فيه فى الظاهر ، فكيف لا يدخل فيه من لم يكـــن منافقاً ، وان لم يكن من المؤمنين حقاً ؟ ! وحقيقة أن من لم يكن من المؤمنـــين حقاً ، يقال فيه : انه مسلم ، ومعه ايمان يمنعه الخلود فى النار ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة ، لكن هل يطلق عليه اسم الايمان ؟ هذا هو الذى تنازعوا فيه ، فقيل : يقال مسلم ، ولا يقال : مؤمن ، وقيل : بل يقال : مؤمن .

والتحقيق أن يقال : انه مؤمن ناقص الايمان ، مؤمن بايمان ، فاســـق بكبيرته ، ولا يعطى اسم الايمان المطلق ، فان الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق ، واسم الايمان يتناوله فيما امر الله به ورسوله ، لأن ذلك إيجـــاب عليه ، وتحريم عليه ، وهو لازم له ، كما يلزمه غيره ا وانما الكلام فى اسم المدح المطلق ، وعلى هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه ثلاث طوائف : يدخل فيه المؤمن حقاً ، ويدخل فيه المنافق فى أحكامه الظاهرة ، وان كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار ، وهو فى الباطن ينفى عنه الاسلام والايمان ، وفى الظاهر يثبت له الاسلام والايمان الظاهر ، ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الايمان فى قلوبهم ، لكن معهم جزء من الايمان واسلام يثابون عليه ، ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم ، وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر ، لكن يعاقبون على ترك المفروضات ، وهـــؤلاء كالأعـــراب المذكورين فى الآية وغيرهم ، فانهم قالوا : آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً ، فد دخلت حقيقة الايمان فى قلوبهم ، ولا جاهدوا فى سبيـــل الله ، وقد كان دعاهم النبى ﷺ الى الجهاد ، وقد يكونون من اهل الكبائـــر المعرضين للوعيد ، كالذين يصلون ، ويزكون ، ويجاهدون ، ويأتون الكبائر

وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام ، بل هم مسلمون ، ولكن بينهم نزاع لفظى : هل يقال : انهم مؤمنون ؟ كما سنذكره ان شاء الله .

وأما الخوارج والمعتزلة ، فيخرجون من اسم الايمان والاسلام ، فــإن الايمان والاسلام عندهم واحد ، فاذا خرجوا من الايمان ، خرجوا من الاسلام، لكن الخوارج تقول : هم كفار ، والمعتزلة تقول : لا مسلمون ولا كفار ،ينزلونهم منزلة بين المنزلتين ، والدليل على أن الاسلام المذكور فى الآية هو اسلام يثابون عليه ، وانهم ليسوا منافقين ، أنه قال : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنــوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) ثم قال : ( وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ) فدل على انهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام ، آجرهم الله على الطاعة ، والمنافق عمله حابط فى الآخرة .

وايضا فانه وصفهم بخلاف صفات المنافقين ، فان المنافقين وصفهم بكفر فى قلوبهم ، وأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، كما قال تعالى : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذيــن آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهــم الله مرضا ) [ البقرة : ٨ــ١٠ ] وقال : ( اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انــك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبــون ) [ المنافقون : ١ ] فالمنافقون يصفهم فى القرآن بالكذب ، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وبأن فى قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه ، وهؤلاء لــم يصفهم بشىء من ذلك ، لكن لما ادعوا الايمان قال للرسول : ( قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا يدخل الايمان فى قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسولــه لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ) .

ونفى الايمان المطلق ، لا يستلزم ان يكونوا منافقين ، كما فى قولــه : ( يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين ) [ الأنفال : ١ ] ثم قال : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلــى

ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً ) [ الانفال : ٢-٤ ] ، ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك ، يكون منافقاً من أهل الدرك الأسفل من النار ، بل لايكون قد اتى بالايمان الواجب ، فنفى عنه ، كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها ، فكذلك الأعراف لم يأتوا بالايمان الواجب ، فنفى عنهم لذلك وان كانوا مسلمين ، معهم من الايمان ما يثابون عليه .

وهذا حال اكثر الداخلين فى الاسلام ابتداء ، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الايمان ، فان الرجل اذا قوتل حتى أسلم ، كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا ، او اسلم بعد الأمن ، أو سمع بالاسلام فجاء فأسلم ، فانه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل الى قلبه المعرفة بحقائق الايمان ، فان هذا انما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك ، اما بفهم القرآن ، واما بمباشرة أهل الايمان ، والاقتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال ، واما بهداية خاصة من الله يهديه بها . والانسان قد ظهر له من محاسن الاسلام ما يدعوه الى الدخول فيه ، وان كان قد ولد عليه وتربى بين أهله ، فانه يحبه ، فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساوىء الكفار . وكثير من هؤلاء قد يرتاب اذا سمع الشبه القادحة فيه ولا يجاهد فى سبيل الله ، فليس هو داخلا فى قوله : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ) وليس هو منافقاً فى الباطن ، مضمراً للكفر ، فلا هو من المؤمنين حقاً ، ولا هو من المنافقين ، ولا هو ايضاً من أصحاب الكبائر ، بل يأتى بالطاعات الظاهرة ، ولا يأتى بحقائق الايمان التى يكون بها من المؤمنين حقاً ، فهذا معه ايمان وليس هو من المؤمنين حقاً ، ويثاب على ما فعل من الطاعات ، ولهذا قال تعالى : ( ولكن قولوا أسلمنا ) ولهذا قال : ( يمنون عليك أن أسلموا ، قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين ) [ الحجرات : ١٧ ] يعنى فى قولهم (آمنا) يقول : ان كنتم صادقين ، فالله يمن عليكم ان هداكم للايمان ، وهذا يقتضى أنهم قد يكونون

صادقين فى قولهم : (آمنا) ، ثم صدقهم ، اما ان يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . واما أن يراد به انهم لم يكونوا كالمنافقين ، بل معهم ايمان ، وان يكن لهم ان يدعوا مطلق الايمان ، وهذا اشبه والله اعلم ، لأن السورة الممتحنات قال فيهن : ( فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ) [ الممتحنة : ١٠ ] ولا يمكن نفى الريب عنهن فى المستقبل ، لأن الله انما كذب المنافقين ، ولم يكذب غيرهم ، وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال : ( لم تؤمنوا ) كما قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، و « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » ، وهؤلاء ليسوا منافقين .

وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم ، لكونهم آمنوا بأسلامهم لجهلهم وجنائهم واظهروا ما فى انفسهم مع علم الله به ، فان الله تعالى قال : (قل اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض )[ الحجرات :١٦] ، فلو لم يكن فى قلوبهم شىء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم ، فان الاسلام الظاهر يعرفه كل احد ، ودخلت الباء فى قوله : ( أتعلمون الله بدينكم ) ، لأنه ضمن .عنى يختبرون ويحدثون ، كأنه قال : أتخبرونه وتحدثونه بدينكم ، وهو يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، وسياق الآية يدل على أن الذى أخبروا به الله ، هو ماذكره الله عنهم من قولهم : ( آمنا ) فانهم أخبروا عما فى قلوبهم .

وقد ذكر المفسرون ، أنه لما نزلت هاتان الآيتان ، أتوا رسول الله ﷺ ، يحلفون انهم مؤمنون صادقون ، فنزل قوله تعالى : ( قل اتعلمون الله بدبنكم ) وهذا يدل على أنهم كانوا صادقين أولا فى دخولهم فى الدين ، لأنه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا به فى الآية ، انما هو كلام قالوه ، وهو سبحانه قال : ( ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) ولفظ : (لما) ينفى به ما يقرب حصوله ويحصل غالباً ، كقوله : ( أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ) [ آل عمران : ١٤٢ ] وقد قال السدى : نزلت هذه الآية

فى اعراب مزينة ، وجهينة ، وأسلم وأشجع ، وغفار ، وهم الذين ذكرهم الله فى سورة الفتح ، وكانوا يقولون : آمنا بالله ليأمنوا على انفسهم،فلما استنفروا الى الحديبية تخلفوا فنزلت فيهم هذه الآية .

وعن مقاتل : كانت منازلهم بين مكة والمدينة ، وكانوا اذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا : آمنا ، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ، فلما سار رسول الله ﷺ الى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه

وقال مجاهد : نزلت فى أعراب بنى اسد بن خزيمة ، ووصف غيره حالهم، فقال : قدموا المدينة فى سنة مجدبة ، فأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين ، وافسدوا طرق المدبنة بالعذرات ، واغلوا أسعارها وكانوا يمنون على رسول الله ﷺ يقولون : أتيناك بالاثقال والعيال ، فنزلت فيهم هذه الآية . وقد قال قتادة فى قوله : ( يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين ) قال : منوا على النبى ﷺ حين جاؤوا فقالوا : انا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، فقال الله لنبيه : ( يمنون عليك أن اسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ) .

وقال مقاتل بن حيان : هم اعراب بنى أسد بنى خزيمة : قالوا : يارسول الله اتيناك بغير قتال ، وتركنا العشائر والأموال ، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرهاً الاسلام ، فلنا بذلك عليك حق فأنزل الله تعالى : ( يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم الايمان ان كنتم صادقين ) فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل الله : (ولا تبطلوا أعمالكم ) [ محمد : ٣٣ ] ويقال : من الكبائر التى ختمت بنار ، كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها .

وهذا كله يبين أنهم يكونوا كفاراً فى الباطن ، ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان ، وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأصناف فقال : ( ان

الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون ) [ الحجرات : ٤ ] ولم يصفهم بكفر ولا نفاق ، لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق ، ولهذا ارتد بعضهم لانهم لم يخالط الايمان بشاشة قلوبهم ، وقال بعد ذلك : ( ياايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ) [ الحجرات : ٦ ] وهذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة . وكان قد كذب فيما اخبر .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى الوليد بن عقبة ، بعثه رسول الله ﷺ الى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم ، وقد كانت بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية، فسار بعض الطريق ثم رجع الى رسول الله ﷺ فقال : انهم منعوا الصدقة وارادوا قتلى ، فضرب رسول الله ﷺ البعث اليهم ، فنزلت هذه الآية . وهذه القصة معروفة من وجوه كثيرة ، ثم قال تعالى فى تمامها : ( واعلموا أن فيكم رسول الله يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ) [ الحجرات : ٧ ] وقال تعالى : ( وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى ) [ الحجرات : ٩ ] ثم نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض ، وعن اللمز والتنابز بالألقاب وقال : ( بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ) [الحجرات:١١] وقد قيل : معناه : لا تسميه فاسقاً ولا كافراً بعد ايمانه ، وهذا ضعيف ، بل المراد : بئس الاسم أن تكونوا فساقاً بعد يمانكم ، كما قال تعالى فى الذى كذب :

( ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ) فسماه فاسقاً .

وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ انه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، يقول : فاذا سابيتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تسموا فساقاً . وقد قال فى آية القذف : ( ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ) [ النور : ٤ ] يقول : فاذا اتيتم بهذه الأمور التى تستحقون بها أن تسموا فساقاً كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الايمان والا فهم فى تنابزهم بما كانوا يقولون : فاسق ، كافر ، فان النبى ﷺ قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً .

وقد قال طائفة من المفسرين فى هذه الآية : لا تسميه بعد الاسلام بذنبه قبل الاسلام ، كقوله اليهودى اذا اسلم : يايهودى ، وهذا مروى عن ابن عباس وطائفة من التابعين ، كالحسن ، وسعيد بن جبير ، وعطاء الخراسانى ، والقرظى ، وقال عكرمة : هو قول الرجل : ياكافر ، يامنافق ، وقال عبد الرحمن بن زيد : هو تسميته بالأعمال : كقوله : يازانى ، ياسارق ، يافاسق ، وفى تفسير العوفى عن ابن عباس قال : هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها ومعلوم أن اسم الكفر ، واليهودية ، والزانى ، والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هى الفاسق ، فعلم أن قوله : ( بئس الاسم الفسوق ) لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق ، فان تسيمته كافراً أعظم ، بل ان الساب يصير فاسقاً : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ثم قال : ( ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ) [ الحجرات : ١١ ] فجعلهم ظالمين اذا لم يتوبوا من ذلك وان كانوا يدخلون فى اسم المؤمنين ، ثم ذكر النهى عن الغيبة ، ثم ذكر النهى عن التفاخر بالأحساب ، وقال : (ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) [ الحجرات : ١٣ ] ثم ذكر الأعراب : ( آمنا ) .

فالسورة تنهى عن هذه المعاصى والذنوب التى فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين ، فالأعراب المذكرون فيها من جنس الباقين اهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ، ليسوا من المنافقين ، ولهذا قال المفسرين : انهم الذين استنفروا عام الحديبية ، وأولئك وان كانوا من أهل الكبائر فلم يكذبوا فى الباطن كفاراً منافقين .

قال ابن اسحاق لما أراد رسول الله ﷺ العمرة — عمرة الحديبية — استنفر من حول المدينة من أهل البدادى والأعراب ليخرجوا معه خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد ، فتثاقل عنه كثير منهم ، فهم الذين عنى الله بقوله : ( سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ) . أى ادع الله يغفر لنا تخلفنا عنك يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم : ) [ الفتح : ١١ ] أى مايبالون ، أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ،

وهذا حال الفاسق الذى لايبالى بالذنب ، والمنافقون قال فيهم : ( واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووارؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لن يغفر الله لهم ) [ المنافقون ٥: ٦ ] ولم يقل مثل هذا فى هؤلاء الأعراب ، بل الآية دليل على : ( ستدعون الى قوم اولى بأس تقاتلونهم او يسلمون . فان تطيعوا يؤتكم الله اجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليماً ) [ الفتح : ١٦ ] . فوعدهم الله بالثواب الداعى الى الجهاد ، وتوعدهم بالتولى عن طاعته .

وهذا كخطاب امثالهم من اهل الذنوب والكبائر بخلاف من هو كافر فى الباطن ، فانه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الأمر حتى يؤمن أولا ، ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة فى الجهاد ، فان كفره أعظم من هذا .

فهذا كله يدل على ان هؤلاء من فساق الملة ، فان الفسق يكون تارة بترك الفرائض ، وتارة بفعل المحرمات ، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذى اضعف ايمانهم ، لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم ، وان كانوا صادقين فى انهم فى الباطن متدينون بدين الاسلام .

وقول المفسرين : لم يكونوا مؤمنين نفى لما نفاه الله عنهم من الايمان كما نفاه عن الزانى ، والسارق ، والشارب ، وعمن لا يأمن جاره بوائقه ، وعمن لايحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ، وعمن لا يجب الى حكم الله ورسوله ، وامثال هؤلاء . وقد يحتج على ذلك بقوله : ( بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ) كما قال : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الايمان ، فدل أن الفاسق لايسمى مؤمناً ، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس اهل الكبائر لامن جنس المنافقين .

وأما ما نقل من انهم أسلموا خوف القتل والسبى ، فهكذا كان اسلام غير المهاجرين والأنصار اسلموا رغبة ورهبة كاسلام الطلقاء من قريش بعد أن قهرهم

النبى ﷺ ، واسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن اهل نجد . وليس كل من اسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم فى الدرك الأسفل من النار ، بل يدخلون فى الاسلام والطاعة ، وليس فى قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول ، ولا استنارت قلوبهم بنور الايمان ولا استبصروا فيه ، وهؤلاء قد يحسن اسلام احدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء ، وقد يبقى من فساق الملة ، ومنهم من يصير منافقاً مرتاباً اذا قال له منكر ونكير : ماتقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى،سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته

وقد تقدم قول من قال : انهم أسلموا بغير قتال ، فهؤلاء كانوا احسن اسلاما من غيرهم ، وان الله انما ذمهم لكونهم منوا بالاسلام وأنزل فيهم ( ولا تبطلوا اعمالكم ) [ محمد : ٣٣ ] . من جنس اهل الكبائر .

وأيضاً قوله : ( ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) (ولما) انما ينفى بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقباً ، كقوله : ( أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ) [ آل عمران:١٤٢ ] وقوله : ( أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ) [ البقرة : ٢١٢ ] .فقوله : ( ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) يدل على ان دخول الايمان منتظر منهم ، فان الذى يدخل فى الاسلام ابتداء لا يكون قد حصل فى قلبه الايمان ، لكنه يحصل فيما بعد ، كما فى الحديث : « كان الرجل يسلم أول النهار رغبة فى الدنيا فلا يجيء آخر النهار الا والاسلام أحب اليه مما طلعت عليه الشمس » . ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الايمان فى قلوبهم بعد ذلك ، وقوله : ( ولكن قولوا أسلمنا ) ، أمر لهم بأن يقولون ذلك، والمنافق لا يؤمر بشيء ، ثم قال : ( وان تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من اعمالكم شيئاً ) والمنافق لاتنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولا .

وهذه الآية مما احتج بها احمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى فى الايمان دون الاسلام وأن أصحاب الكبائر يخرجون من الايمان الى الاسلام قال

الميمونى : سألت أحمد بن حنبل عن رأيه فى : أنا مؤمن ان شاء الله ؟ فقال : أقول : مؤمن ان شاء الله وأقول : مسلم ولا استثنى ، قال : قلت لأحمد :تفرق بين الاسلام والايمان ؟ فقال لى : نعم ، فقلت له : بأى شىء تحتج ؟ قال لى : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ) وذكر اشياء . وقال الشالنجى : سألت احمد عمن قال : أنا مؤمن عند نفسى من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما أنا عند الله ؟ قال : ليس بمرجىء .

وقال أبو أيوب سليمان بن داود الهاشمى : الاستثناء جائز ، ومن قال أنا مؤمن حقاً ، ولم يقل : عند الله ، ولم يستثن ، فذلك عندى جائز وليس بموجىء ، وبه قال أبو خيثمة وابن أبى شيبة ، وذكر الشالنجى أنه سأل احمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبه بجهده ، أى يطلب الذنب بجهده ،الا انه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال هو مصر مثل قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » يخرج من الايمان ويقع فى الاسلام ، ومن نحو قوله : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »،ومن نحو قول ابن عباس فى قوله: ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) [ المائدة : ٤٧ ] فقلت له : ما هذا الكفر ؟ قال : كفر لا ينقل عن الملة ، مثل الايمان بعضه دون بعض ، فكذلك الكفر حتى يجىء من ذلك أمر لايختلف فيه ، وقال ابن أبى شيبة : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » : لايكون مستكمل الايمان ، يكون ناقصاً من ايمانه .

قال الشالنجى : وسألت احمد عن الايمان والاسلام ؟ فقال : الايمان قول وعمل ، والاسلام : اقرار ، قال : وبه قال أبو خثيمة . وقال ابن ابن شيبة : لايكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا بأسلام ، واذا كان على المخاطبة فقال : قد قبلت الايمان ، فهو داخل فى الاسلام ، واذا قال : قد قبلت الاسلام فهو داخل فى الايمان . وقال محمد بن نصر المروزى : وحكى غير هؤلاء انه

سأل احمد بن حنبل عن قول النبى ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فقال : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ، ولااسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك ، يريد دون الكبائر اسميه مؤمناً ناقص الايمان .

قلت : احمد بن حنبل كان يقول تارة بهذا الفرق ، وتارة كان يذكر الاختلاف ويتوقف ، وهو المتأخر عنه ، قال أبو بكر الأثرم فى « السنة » سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء فى الايمان ماتقول فيه ؟ فقال : اما انا فلا اعيبه ؛ أى من الناس من يعيبه . قال ابو عبد الله : اذا كان يقول : ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص فاستثنى مخافة واحتياطاً ، ليس كما يقولون على الشك ، إنما يستثنى للعمل . قال ابو عبد الله : قال الله تعالى :( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله ) [ الفتح : ٢٧ ] . أى ان هذا استثناء بغير شك ، وقال النبى ﷺ فى اهل القبور : « وانا ان شاء الله بكم لاحقوق » (١) اى لم يكن يشك فى هذا ، وقد استثناه ، وذكر قول النبى ﷺ : « وعليها نبعث ان شاء الله » (٢) يعنى من القبر ، وذكر قول النبى ﷺ : « انى لأرجو أن اكون أخشاكم لله »(٣) قال : هذا كله تقوية للاستثناء فى الايمان .

قلت لأبى عبد الله : وكأنك لاترى بأساً أن لايستثنى ؟ فقال : اذا كان ممن يقول : الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، فهو أسهل عندى ، ثم قال أبو عبد الله : ان قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء ، كالتعجب منهم ، وسمعت أبا عبد الله وقيل له : شبابة اى شىء تقول فيه ؟ : فقال : شبابة كان يدعى الارجاء ، قال : وحكى عن شبابة قول اخبث من هذه الأقاويل ، ماسمعت عن قبل أن نعلم أنه يقول بهذا ، قلت لأبى عبد الله : كتبت عنه بعد ؟ قال : لا ولا

---

(١) رواه مسلم وأحمد وغيرهما فى حديث السلام على أهل القبور .

(٢) رواه أحمد وابن ماحة بسند حسن وسيأتى قبل تمام الكتاب بـ(٧) صفحات تقريباً أتم منه .

(٣) رواه مسلم وسعيد المؤلف بتمامه .

احد بمثله ؛ قال عبد الله : قال شبابة : اذا قال ، فقد عمل بلسانه ، كما يقولون ، فاذا قال ، فقد عمل بجارحته ، اى : بلسانه حين تكلم به ، ثم قال ابو عبد الله : هذا قول خبيث ماسمعت أحداً يقول به ولابلغنى ، قيل لأبى عبد الله : كنت كتبت عن شبابة شيئاً ؟ فقال : نعم ، كنت كتبت عنه قديماً يسيراً قبل أن نعلم انه يقول بهذا قلت لأبى عبد الله : كتبت عنه بعد ؟ قال : لاو لا حرف (١) قيل لأبى عبد الله : يزعمون ان سفيان كان يذهب الى الاستثناء فى الايمان ؟ فقال : هذا مذهب سفيان ، المعروف به الاستثناء ، قلت لأبى عبد الله : من يرويه عن سفيان ؟ فقال : كل من حكى عن سفيان فى هذا حكاية كان يستثنى ، قال : وقال وكيع عن سفيان : الناس عندنا مؤمنون فى الأحكام المواريث ، ولاندرى ما هم عند الله ، قلت لأبى عبد الله ، فانت بأى شىء تقول ؟ فقال : نحن نذهب الى الاستثناء .

قلت لأبى عبد الله : فأما اذا قال : أنا مسلم فلا يستثنى ؟ فقال : نعم لا يستثنى اذا قال : أنا مسلم ، قلت لأبى عبد الله : اقول : هذا مسلم ، وقد وقد قال النبى ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وانا أعلم أنه لا يسلم الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهرى ، فنرى ان الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، قال ابو عبد الله : حدثناه عبد الرزاق ، عن معمر، عن الزهرى . قيل لأبى عبد الله : فنقول : الايمان يزيد وينقص ؟ فقال : حديث النبى ﷺ يدل على ذلك ، فذكر قوله : « اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال كذا ، اخرجوا من كان فى قلبه مثقال كذا » فهو يدل على ذلك ، وذكر عند أبى عبد الله عيسى الأحمر ، وقوله فى الارجاء فقال : نعم وذلك خبيث القول، وقال ابو عبد الله : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن زيد ، سمعت هشاماً يقول: كان الحسن ومحمد يقولان : مسلم ، ويهابان : مؤمن .

---

(١) قلت : شبابة ثقة محتج به فى «الصحيحين» وقد روى الخطيب فى ترجمته من «تاريخه» (٢٩٩/٩) عن أبى زرعة انه رجع عن الارجاء ، وقال : الايمان قول وعمل .

قلت لأبى عبد الله : رواه غير سويد ؟ قال : ما علمت بذلك ، وسمعت ابا عبد الله يقول : الايمان قول وعمل ، قلت لأبى عبد الله : فالحديث الذى يروى « اعتقها فانها مؤمنة » ، قال : ليس كل احد يقول : انها مؤمنة ، يقولون : اعتقها ، قال : ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن على لايقول « فانها مؤمنة » (١) وقد قال بعضهم بأنها مؤمنة ، فهى حين تقر بذلك ،فحكمها حكم المؤمنة ، هذا معناه . قلت لأبى عبد الله : تفرق بين الايمان والاسلام ؟ فقال : قد اختلف الناس فيه ، وكان حماد بن زيد زعموا يفرق بين الايمان والاسلام ، قيل له : من المرجئة ؟ قال : الذين يقولون : الايمان قول بلا عمل. قلت : فأحمد بن حنبل لم يرد قط انه سلب جميع الايمان ، فلم يبق معه منه شىء ، كما تقوله الخوارج والمعتزلة ، فانه قد صرح فى غير موضع : بأن اهل الكبائر معهم ايمان يخرجون به من النار ، واحتج بقول النبى ﷺ : « اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » (٢) وليس هذا قوله ولا قول احد ائمة أهل السنة ، بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شىء من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين ، لكن اذا كان معه بعض الايمان لم يلزم ان يدخل فى الاسم المطلق الممدوح ، وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء ، فقال : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » (٣) وقال : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه » (١) وقال : « لايؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » واقسم على

---

(١) قلت : قد رواه يحيى بن ابى كثير عن هلال بن على ، وهو ابن أبى ميمونة بزيادة «فانها مؤمنة» . أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما ، ويحيى ثقة حجة ، فزيادته مقبولة ، وقد جاءت من طرق أخرى عن جماعة من الصحابة ساق احاديثهم الذهبى فى أول كتاب «العلو» فهى زيادة صحيحة مقطوع بثبوتها فلا وجه للتردد فى ذلك .

(٢) تقدم هذا الحديث ، وهو عند الشخين .

(٣) حديث صحيح اخرجه أحمد وغيره من حديث أبى هريرة وأنس وفضالة بن عبيد ، وصححه الترمذى .

ذلك مرات وقال : « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » (١) .

والمعتزلة ينفون عنه اسم الايمان بالكلية ، واسم الاسلام ايضاً ، ويقولون : ليس معه شيء من الايمان والاسلام ، ويقولون : نزله منزلة بين منزلتين ، فهم يقولون : انه يخلد فى النار لايخرج منها بالشفاعة ، وهذا هو الذى انكر عليهم ، والا لو نفوا مطلق الاسم واثبتوا معه شيئاً من الايمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة ، وكل اهل السنة متفقون على أنه قد سلب كمال الايمان الواجب ، فنزال بعض ايمانه الواجب لكنه من أهل الوعيد وانما ينازع فى ذلك من يقول : الايمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة ، فيقولون : انه كامل الايمان ، فالذى ينفى اطلاق الاسم يقول : الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب ، كقولنا : متق ، وبر ، وعلى الصراط المستقيم ، فاذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الأسماء ، فكذلك اسم الايمان، وأما دخوله فى الخطاب ، فلأن المخاطب باسم الايمان كل من معه شيء منه ؛ لأنه أمر لهم ، فمعاصيهم لاتسقط عنهم الأمر .

وأما ما ذكره احمد فى الاسلام ، فاتبع فيه الزهرى حيث قال : فكانوا يرون الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، فى حديث سعد بن ابى وقاص ، وهذا على وجهين ، فانه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الأعمال الظاهرة ، وهذا هو الاسلام الذى بينه النبى ﷺ حيث قال : « الاسلام : أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت » (٢) وقد يراد به الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة . وليس هذا هو الذى جعله النبى ﷺ الاسلام ، لكن قد يقال : اسلام الأعراب كان من هذا ، فيقال : الأعراب وغيرهم كانوا اذا أسلموا على عهد النبى ﷺ الزموا بالأعمال الظاهرة : الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، ولم يكن

(١) تقدم هذا الحديث وهو عند الشيخين .
(٢) متفق عليه كما تقدم .

أحد بترك الكلمة ، بل كان من أظهر المعصية يعاقب عليها ، وأحمد ان كان أراد في هذه الرواية أن الاسلام هو الشهادتان فقط ، فكل من قالها فهو مسلم ، فهذه إحدى الروايات عنه ، والرواية الأخرى : لا يكون مسلماً حتى يأتي بها ويصلي فاذا لم يصل كان كافراً ، والثالثة : انه كافر بترك الزكاة أيضاً ، والرابعة : انه يكفر بترك الزكاة اذا قاتل الامام عليها دون ما اذا لم يقاتله ، وعنه أنه لو قال : انا أؤديها ولا أدفعها الى الامام ، لم يكن للامام أن يقتله ، وكذلك عنه رواية انه يكفر بترك الصيام والحج ، اذا عزم انه لايحج ابداً ، ومعلوم انه على القول بكفر تارك المباني يمتنع أن يكون الاسلام مجرد الكلمة ، بل المراد أنه اذا أتى بالكلمة في الاسلام ، وهذا صحيح ، فانه يشهد له بالاسلام ولا يشهد له بالايمان الذي في القلب ، ولا يستثنى في هذا الاسلام ، لأنه مر مشهور ، لكن الاسلام الذي هو أداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثناء . فالاسلام الذي لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط ، فانها لاتزيد ولا تنقص فلا استثناء فيه .

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال : قيل : هو الايمان وهما إسمان لمسمى واحد ، وقيل : هو الكلمة ، وهذان القولان لهما وجه سنذكره ، لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي ﷺ لما سئل عن الاسلام والإيمان ، ففسر الاسلام بالأعمال الظاهرة ، والايمان بالايمان بالأصول الخمسة ، فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما اجاب به النبي ﷺ ، وأما اذا أفرد اسم الايمان ، فانه يتضمن الاسلام ، واذا افرد الاسلام ، فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع ، وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له : مؤمن ؟ قد تقدم الكلام فيه . وكذلك هل يستلزم الإسلام للايمان ؟ هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه ، والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب انما هو معلق باسم الايمان ، وأما اسم الاسلام مجرداً ، فما علق به في القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه وأخبر انه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبالاسلام بعث الله جميع النبيين ، قال تعالى :( ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ) [ آل عمران :

٨٥ ] وقال : ( ان الدين عند الله الاسلام ) [ آل عمران : ١٩ ] وقال نوح : ( ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بايات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون ، فان توليتم فما سألتكم من أجر ان اجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) [ يونس : ٧١ — ٧٢ ] وقد أخبر انه لم ينج من العذاب الا المؤمنين فقال : ( قلنا أجمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ) [ هود : ٤٠ ] وقال : ( واوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ) [ هود : ٣٦ ] وقال نوح : ( وما انا بطارد الذين آمنوا ) [ هود : ٢٩ ] .

وكذلك اخبر عن ابراهيم ان دينه الاسلام فقال تعالى : ( ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بينه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ) [ البقرة : ١٣٠—١٣٢ ] وقال : ( ومن أحسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا ) [ النساء: ١٢٥ ] وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال : ( بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) [ البقرة : ١١٢ ] كما علقه بالايمان وباليوم الآخر والعمل الصالح فى قوله : ( ان الذين آمنوا والذين هادو والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) [ البقرة : ٦٢ ] وهذا يدل على أن الاسلام الذى هو اخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذى امر الله به ، وهو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان ، فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب ، فان انتفاء الخوف علة تقتضى انتفاء ما يخافه ، ولهذا قال : ( لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ) [البقرة: ٦٢ ] ، لم يقل : لايخافون ، فهم لاخوف عليهم وان كانوا يخافون الله ، ونفى

عنهم أن يحزنوا ، لأن الحزن انما يكون على ماض ، فهم لايحزنون بحال لا فى القبر ولا فى عرصات القيامة ، بخلاف الخوف فانه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ، ولا خوف عليهم فى الباطن كما قال تعالى : ( الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ) [ يونس : ٦٢ ، ٦٣ ] .

واما الاسلام المطلق المجرد ، فليس فى كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما فى كتاب الله تعليق دخول الجنة بالايمان المطلق المجرد ، كقوله :(سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض اعدت للذين آمنوا بالله ورسوله )[ الحديد : ٢١ ] . وقال : ( وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ) [ يونس : ٢ ] . وقد وصف الخليل من اتبعه بالايمان كقوله : ( فآمن له لوط ) [ العنكبوت : ٢٦ ] . ووصفه بذلك فقال : ( فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ) [ الأنعام ٨١، ٨٣ ] . ووصفه بأعلى طبقات الايمان ، وهو أفضل البرية بعد محمد ﷺ . والخليل انما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال : ( وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ) [ البقرة : ١٢٦ ] وقال : ( واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك ) [ البقرة : ١٢٨ ] . وقال موسى : ( ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ) [ يونس : ٨٤ ] . بعد قوله : ( فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم ) [ يونس : ٨٣ ] . وقال : ( وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ) [ يونس : ٨٧ ] . وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمسلمين فى قوله : ( ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ) [ النحل : ٨٩ ] .

وقد وصف الله السحرة بالاسلام والايمان معاً فقالوا : (آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ) [ الأعراف : ١٢١،١٢٠ ] . وقالوا : ( وما تنقم منـا

الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ) [ الأعراف : ١٢٧ ] ، وقالوا : ( انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين ) [ الشعراء : ٥١ ] وقالوا : ( ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ) . ووصف الله أنبياء بنى اسرائيل فى قوله : ( انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا ) [ المائدة : ٤٤ ] والأنبياء كلهم مؤمنون . ووصف الحواريين بالايمان والاسلام فقال تعالى : ( واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ) [ المائدة : ١١١ ] و ( قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ) [ آل عمران : ٥٢ ]

وحقيقة الفرق أن الاسلام دين ، والدين مصدر دان يدين ديناً : اذا خضع وذل ، ودين الاسلام الذى ارتضاه الله ، وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ماسواه ؛ فمن عبده ، وعبد معه الهاً آخر ، لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، والاسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له ، والعبودية له ، هكذا قال اهل اللغة : اسلم الرجل اذا استسلم ، فالاسلام فى الاصل من باب العمل ، عمل القلب والجوارح .

واما الايمان فأصله تصديق واقرار ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له ، فلهذا فسر النبى ﷺ الايمان بايمان القلب وبخضوعه ، وهو الايمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسوله ، وفسر الاسلام باستسلام مخصوص هو المبانى الخمس ، وهكذا فى سائر كلامه ﷺ : يفسر الايمان بذلك النوع ، ويفسر الاسلام بهذا ، وذلك النوع أعلى ، ولهذا قال النبى ﷺ : « الاسلام علانية والإيمان فى القلب » لم فان الأعمال الظاهرة يراها الناس ، وأما مافى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن ، لكن له لوازم قد تدل عليه ، واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوماً ، فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق ، فلا يدل ... (١)

(١) بياض بالأصل فى جميع النسخ التى بين أيدينا .

ففي حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة جميعاً أن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ، ففسّر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه ، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم ، وهذه الصفة أعلى من تلك ، فإن من كان مأموناً سلم الناس منه ، وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً ، فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه ، خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لإيمان في قلبه .

وفي حديث عبيد بن عمير ، عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما الإسلام ؟ قال : « إطعام الطعام ، ولين الكلام » قال : فما الإيمان قال : « السماحة والصبر » ، فإطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة ، وكذلك لين الكلام ، وأما السماحة والصبر فخلقان في النفس قال تعالى : ( وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ) [ البلد : ١٧ ] وهذا أعلى من ذاك ، وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره ، وهذا ضد الذي خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ، فإن ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ولا صبر عند المصيبة .

وتمام الحديث : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قال : يارسول الله أي المؤمنين أكمل إيماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » قال : يارسول الله أي القتل أشرف ؟ قال : « من أريق دمه وعقر جواده » قال يارسول الله فأي أفضل ؟ قال : « الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » قال يارسول الله فأي الصدقة أفضل ؟ قال « جهد المقل » قال : يارسول الله فأي الصلاة أفضل الله ؟ قال : « طول القنوت » ، قال :

يارسول الله فاى الهجرة افضل ؟ قال : « من هجر السوء » (١) وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير ، تارة يروى مرسلا ، وتارة يروى مسنداً ، وفى رواية : اى الساعات افضل ؟ قال : « افضل الايمان السماحة والصبر » يروى من وجه آخر عن جابر عن النبى ﷺ (٢) .

وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد (٣) عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده انه قال : والله يارسول الله ما اتيتك حتى حلفت عد أصابعى هذه أن لا آتيك ، فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : « الاسلام » قال : ما الاسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله وأن توجه وجهك الى الله ، وان تصلى الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد اسلامه » وفى رواية قال : « ان تقول اسلمت وجهى لله وتخليت ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وكل مسلم على مسلم محرم » ، وفى لفظ تقول : « اسلمت نفسى لله وخليت وجهى اليه »؛ وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن ابى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ان للاسلام صوى (٤) ومناراً كمنار الطريق ، من ذلك ان تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وان تقيم الصلاة وتوتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتسلم على بنى آدم اذا لقيتهم ، فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكته ، وان لم يردوا عليك

---

(١) رواه احمد ( ٤/٨٥ ) من طريق شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة به مع اختصار ، وشهر فيه ضعف ، ورواه ( ٤/١١٤ ) من طريق أبى قلابة عن عمرو بن عبسة وسنده صحيح ان كان أبو قلابة سمعه من عمرو بن عبسة وسنده صحيح ان كان ابو قلابة سمعه من عمرو ، فقد رمى بالتدليس ، والحديث صحيح على كل حال ، فان له شواهد فى احاديث متفرقة.

(٢) رواه ابن ابى شيبة فى « الايمان » عن الحسن عن جابر وابن عدى من طريق اخرى عنه .

(٣) واسناده حسن .

(٤) اى علامات .

ردت عليك الملائكة ولعنتهم ان سكت عنهم ، وتسليمك علـى أهل بيتـك اذا دخلت عليهم ، فمـن انتقص منهن شيئا فهو سهم فى الاسلام تركـت ، ومن تركهن فقد نبذ الاسلام وراء ظهره ، (١) .

وقد قال تعالى : ( ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ) [ البقرة: ٢٠٨ ] . قال مجاهد : وقتادة : نزلت فى المسلمين يأمرهم بالدخول فى شرائع الاسلام كلها ، وهذا لاينافى قول من قال : نزلت فيمن أسلم من اهل الكتاب او فيمن لم يسلم ، لأن هؤلاء كلهم مأمورون ايضاً بذلك ، والجمهور يقولون : ( فى السلم ) أى فى الاسلام ، وقالت طائفة : هو الطاعة ، وكلاهما مأثور عن ابن عباس ، وكلاهما حق ، فان الاسلام هو الطاعة كما تقدم انه من باب الاعمال . واما قوله : (كافة فقد قيل : المراد ادخلوا كلكم ، وقيل : المراد به ادخلوا فى الاسلام فى الاسلام جميعة ، وهذا هو الصحيح ، فان الانسان لايؤمر بعمل غيره ، وانما يؤمر بما يقدر عليه ، وقوله : ( ادخلوا ) خطاب لهم كلهم فقوله : (ادخلوا) خطاب لهم كلهم فقوله (كافة) ان أريد به مجتمعين لزم ان يترك الانسان الاسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الاسلام مأموراً بـه الا ادخلوا جميعكم ، فكل أوامر القرآن كقوله : ( آمنوا بالله ورسوله ) [النساء: ١٦٥] . ( واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) [ البقرة : ٤٣ ] كلها من هذا الباب، وما قيل فيها كافة ، وقوله تعالى : ( وقاتلوا المشركين كافة ) [التوبة:٣٦]، أى : قاتلوهم كلهم لاتدعوا مشركاً حتى تقاتلوه ، فانها انزلت بعد نبذ العهود، ليس المراد : قاتلوهم مجتمعين أو جميعكم فان هذا لايجب بل يقاتلون بحسب المصلحة ، والجهاد فرض على الكفاية : فاذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المامورين فيها بكافة ، فكيف يؤكد بذلك فى فروض الكفاية ؟ ! وانما المقصود تعميم المقاتلين وقوله : ( كما يقاتلونكم كافة ) [ التوبة : ٣٦ ] ، فيه احتمالان.

والمقصود أن الله أمر بالدخول فى جميع الاسلام كما دل عليـه هـذا الحديث ، فكل ما كان من الاسلام وجب الدخول فيه ، فان كان واجباً على الأعيان لزمه فعله ، وان كان واجباً على الكفاية اعتقد وجوبه ، وعزم عليه اذا تعين ، أو أخذ بالفضل ففعله ، وان كان مستحباً اعتقد حسنه وأحـب

(١) ورواه الحاكم أيضاً وصححه ووافقه الذهبى .

فعله ، وفي حديث جرير أن رجلا قال : يارسول الله صف لي الاسلام ، قال : « تشهد أن لا اله الا الله وتقر بما جاء من عند الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » قال : أقرر به ، في قصة طويلة فيها انه وقع في اخاقيق (١) جرذان ، وانه قتل وكان جائعاً وملكان يدسان في شدقه من ثمار الجنة . فقوله : « وتقر بما جاء من عند الله » هو الاقرار بأن محمداً رسول الله فانه هو الذى جاء بذلك .

وفي الحديث الذى يرويه ابو سليمان الداراني : حديث الوفد الذين قالوا : نحن المؤمنون ، قال : فما علامة ايمانكم ؟ قالوا : خمس خصلة ؛ خمس امرتنا رسلك أن نعمل بهن ، وخمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها في الإسلام الا أن تكره منها شيئاً ، قال : « فما الخمس التى امرتكم رسلى أن تعلموا بها » ؟ قالوا : أن نشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : « وما الخمس التي أمرتكم أن تؤمنوا بها » ؟ قالوا : أمرتنا أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، والبعث بعد الموت ، قال : « وما الخمس التى تخلقتم بها في الجاهلية وثبتم عليها في الاسلام ؟ » قالوا : الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضى بمر القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال النبى ﷺ : « علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا انبياء » . فقال ﷺ : « وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصله أن كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا ما لاتأكلون ، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء انتم عنه غداً تزولون وعنه منتقلون ، واتقوا الله الذى اليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » (٢) .

---

(١) الأخاخيق : شقوق في الأرض ، كالاخاديد ، واحدها اخقوق كأخدود .

(٢) قلت : هذا حديث منكر أخرجه ابو نعيم وغيره ، وفيه علقمة بن

فقد فرقوا بين الخمس التى يعمل بها ، فجعلوا الاسلام ، والخمس التى يؤمن بها ، فجعلوها الايمان ، وجميع الأحاديث المأثورة عن النبى ﷺ تدل على مثل هذا .

وفى الحديث الذي رواه أحمد (١) من حديث أيوب عن أبى قلابة عن رجل من اهل الشام عن أبيه أن النبى ﷺ قال له : « أسلم تسلم » قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأى الاسلام افضل ؟ قال : الايمان ، قال : وما الايمان ؟ قال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت » قل : فأى الايمان افضل ؟ قال : « الهجرة » قال : وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » قال : فأى الهجرة افضل ؟ قال : « الجهاد » قال : وما الجهاد ؟ قال : « أن تجاهد الكفر اذا لقيتهم ولاتغل ولاتجبن » ثم قال رسول ﷺ : « ثم عملان هما افضل الأعمال الا من عمل بمثلهما » قالها ثلاثا : « حجة مبرورة ، او عمرة » وقوله : « هما أفضل الأعمال » أى بعد الجهاد ، لقوله : « ثم عملان » ، ففى هذا الحديث جعل لايمان خصوصاً فى الاسلام والاسلام اعم منه ، كما جعل الهجرة خصوصاً فى الايمان والايمان اعم منه ، وجعل الجهاد خصوصاً من الهجرة والهجرة أعم منه

فالاسلام أن تعبد الله وحده لاشريك له مخلصاً له الدين ، وهذا دين الله الذى لايقبل من أحد ديناً غيره لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولاتكون عبادته مع ارسال الرسل الينا الا بما أمرت به رسله ، لابما يضاد ذلك ، فان

---

يزيد بن سويد عن أبيه عن جده . قال الذهبى : « لايعرف وأتى بخبر منكر ، فلا يحتج به » قلت : وكأنه يشير الى هذا .

(١) لم جده عنده الا من حديث أيوب عن ابى قلابة عن عمرو بن عبسة قال : قال رجل : يارسول الله ما الاسلام ... الحديث دون قوله « أسلم تسلم » وقوله ولا تغل ولا تجبن وهما ثابتان فى غير هذا الحديث ، وقد سبق الكلام على سنديه قريباً .

ضد ذلك معصية ، وقد ختم الله الرسل بمحمد ﷺ ، فلا يكون مسلماً الا من شهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وهذه الكلمة بها يدخل الانسان فى الاسلام ، فمن قال : الاسلام الكلمة واراد هذا فقد صدق ، ثم لابد من التزام ما أمر به الرسول من الأعمال الظاهرة ، كالمبانى الخمس ، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص اسلامه بقدر مانقص من ذلك ، كما فى الحديث : « من انتقض منهن شيئاً فهو سهم من لاسلام تركه » . وهذه الأعمال اذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فانه يثيبه عليها ، ولا يكون ذلك الا مع اقراره بقلبه انه لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فيكون معه من الايمان هذا الاقرار ، وهذا الاقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين مالا يقبل الريب ، ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذى ليس بمؤمن ، وخلق كثير من المسلمين باطناً وظاهراً معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان ، ولم يصلوا الى اليقين والجهاد ، فهؤلاء يثابون على اسلامهم واقرارهم بالرسول مجملا ، وقد لا يعرفون انه جاء بكتاب ، وقد لايعرفون انه جاءه ملك ، ولا انه اخبر بكذا ، واذا لم يبلغهم ان الرسول اخبر بذلك لم يكن عليهم الاقرار المفصل به ، لكن لابد من الاقرار بانه رسول الله ، وأنه صادق فى كل ما يخبر به عن الله .

ثم الايمان الذى يمتاز به فيه تفصيل وفيه طمانينة ويقين ، فهذا متميز بصفته وقدره فى الكمية والكيفية ، فان أولئك معهم من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وتفصيل المعاد والقدر مالا يعرفه هؤلاء .

وأيضاً ففى قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ماليس مع هؤلاء ، وأولئك هم المؤمنون حقاً ، وكل مؤمن لابد أن يكون مسلماً ، فان الايمان يستلزم الأعمال ، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الايمان المطلق ؛ لأن الاستسلام لله والعمل له لايتوقف على هذا الايمان الخاص ، وهذا الفرق يجده الانسان من نفسه ويعرفه من غيره ، فعامة الناس اذا اسلموا بعد كفر ، او ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من اهل الطاعة لله

ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم ايمان مجمل ، ولكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم انما يحصل شيئاً فشيئاً ان اعطاهم الله ذلك ، والا فكثير من الناس لايصلون لا الى اليقين ولا الى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو امروا بالجهاد لما جاهدوا ، وليسوا كفاراً ولا منافقين ، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه مايدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله مما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء ان عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وان ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم ، فان لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب والا صاروا مرتابين ، وانتقلوا الى نوع من النفاق .

وكذلك اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد ، ولهذا لما قدم النبى ﷺ المدينة ، أسلم عامة اهلها ، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق ، فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم ، قال تعالى ( آلم ، أحسب الناس وأن يتركوا أن يقولون آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) [العنكبوت: ١،٣] وقال تعالى : ( ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ) [ آل عمران : ١٧٩ ] ، وقال : ( ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنه انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ) [ الحج : ١١ ] ولهذا ذم الله المنافقين بأنهم دخلوا فى الايمان ، ثم خرجوا منه بقوله تعالى : ( ان المنافقين لكاذبون، اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ) — الى قوله — ( ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ) [ المنافقون : ١،٣ ] . وقال فى الآية الأخرى ( يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ) — الى قوله — ( قل اَبالله ورسوله كنتم تستهزؤن ، لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، أن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ) [ التوبة : ٦٤،٦٦ ] . فقد أمره أن يقول لهم : قد كفرتم بعد ايمانكم .

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات : انهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم ، لايصح ؛ لأن الايمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد ايمانكم ، فانهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر ، وان اريد انكم اظهرتم الكفر بعد اظهاركم الايمان ، فهم لم يظهروا للناس الا لخواصهم ، وهم مع خواصهم مازالوا هكذا ، بل لما نافقوا وحذروا ان تنزل سورة تبين ما فى قلوبهم من النفاق ، وتكلموا بالاستهزاء ، صاروا كافرين بعد ايمانهم ، ولايدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين ، وقد قال تعالى ( يأايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ، يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله ، فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما فى الدنيا والآخرة ) [ التوبة : ٧٣ ، ٧٤ ] . فهنا قال : ( وكفروا بعد اسلامهم ) ؛ فهذا الاسلام قد يكون من جنس اسلام الأعراب فيكون قوله : بعد ايمانهم ، وبعد اسلامهم سواء ، وقد يكونون ما زالوا منافقين ، فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الايمان شئ ، لكونهم اظهروا الكفر والردة ولهذا دعاهم الى التوبة فقال : ( فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا ) بعد التوبة عن التوبة ( يعذبهم عذابا اليما فى الدنيا والآخرة ) وهذا انما هو لمن اظهر الكفر فيجاهده الرسول باقامة الحد والعقوبة ، ولهذا ذكر هذا فى سياق قوله : ( جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ) ولهذا قال فى تمامها : ( وما لهم فى الأرض من ولى ولانصير ) .

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد اسلامهم غير الذين كفروا بعد ايمانهم ؛ فان هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا ، وقد قالوا كلمة الكفر التى كفروا بها بعد اسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا ، وهو يدل على انهم سعوا فى ذلك ، فلم يصلوا الى مقصودهم ، فانه لم يقل : هموا بما لم يفعلوا ، لكن بما لم ينالوا فصدر منهم قول وفعل ، قال تعالى : ( ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب )

[ التوبة : ٦٥ ] فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل : ( لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم مجرمين ) [التوبة : ٦٦] فدل على انهم لم يكونوا عند انفسهم قد أتوا كفراً بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد ايمانه ، فدل على انه كان عندهم ايمان ضعيف ، ففعلوا هذا المحرم الذى عرفوا انه محرم ، ولكنهم لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به ، فانهم لم يعتقدوا جوازه، وهكذا قال غير واحد من السلف فى صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل فى سورة ، البقرة أنهم أبصروا ثم عموا ، وعرفوا ثم انكروا ، وآمنوا ثم كفروا، وكذلك قال قتادة ومجاهد : ضرب المثل لاقبالهم على المؤمنين ، وسماعهم ما جاء به الرسول ، وذهاب نورهم قال : ( مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لايرجعون ) [ البقرة : ١٧ ، ١٨ ] الى ما كانوا عليه .

واما قول من قال : المراد بالنور ، ما حصل فى الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم ، فاذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب صاحب النور ضوءه ، ملفظ الآية يدل على خلاف ذلك ، فانه قال : ( وتركهم فى ظلمات لايبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون ) ويوم القيامة يكونون فى العذاب كما قال تعالى : (يوم يقول المنافقون والمنافقات الذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم ) [ الحديد : ١٣،١٤ ] الآية وقد قال غير واحد من السلف : ان المنافق يعطى يوم القيامة نوراً ثم يطفأ ، ولهذا قال تعالى : ( يوم لاتخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا ) [ التحريم : ٨ ] .

قال المفسرون : اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ ، سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة .

قال ابن عباس : ليس احد من المسلمين الا يعطى نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره ، وأما المؤمن فيشفق مما رأى من اطفاء نور المنافق، فهو يقول : ( ربنا اتمم لنا نورنا ) ، وهو كما قال : فقد ثبت فى «الصحيحين» من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وهو ثابت من وجوه عن النبى ﷺ ، ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها ، ومن حديث ابى موسى فى الحديث الطويل الذى يذكر فيه انه ينادى يوم القيامة « لتتبع كل امة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفــون ، فيقول : انا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فاذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : انا ربكم، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه » . وفى رواية : « فيكشف عن ساقه » : وفى رواية فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذن له بالسجود، ولايبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلمـــا أراد أن يسجد خر على قفاه فتبقى ظهورهم مثل صياصى البقر ،فيرفعـــون رؤوسهم ، فاذا نورهم بين ايديهم وبأيمانهم ، ويطفأ نور المنافقين فيقولون: ذرونا نقتبس من نوركم .

فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين فى الظاهر ، كما كانوا معهم فى الدنيا ، ثم وقعت الحقيقة ، هؤلاء يسجدون لربهم ، وأولئك لايتمكنون مـــن السجود ، فانهم لم يسجدوا فى الدنيا له ، بل قصدوا الرياء للناس ، والجزاء فى الآخرة هو من جنس لعمل فى الدنيا ، فلهذا ، اعطوا نوراً ثم طفىء ، لأنهم فى الدنيا دخلوا فى الايمان ، ثم خرجوا منه ، ولهذا ضرب الله لهم المثل بذلك، وهذا المثل ، هو لما كان فيهم آمن ثم كفر ، وهؤلاء لذين يعطون فى الآخـــرة نوراً ثم يطفأ ، ولهذا قال : ( فهم لايرجعون ) [ البقرة : ١٨ ] قال قتـــادة

ومقاتل : لايرجعون عن ضلالهم ، وقال السدى : لا يرجعون الى الاسـلام يعنى فى الباطن ، والا فهم يظهرونه ، وهذا المثل انما يكون فى الدنيا ، وهذا المثل مضروب لبعضهم ، وهم الذين آمنوا ثم كفروا ، وأما الذين لم يزالوا منافقين ، فضرب لهم لمثل الآخر ، وهو قوله : (او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ) [ البقرة : ١٩ ] ، وهذا أصح القولين ، فان المفسرين اختلفوا ، هل المثلان مضربان لهم كلهم ، او هذ المثل لبعضهم ؟ على قولين، والثانى هو الصواب ، لأنه قال : ( او كصيب ) وانما يثبت بها أحد الأمرين، فدل ذلك على انهم مثلهم هذا وهذا ، فانهم لايخرجون عن المثلين ، بل بعضهم يشبه ، هذا وبعضهم يشبه هذا ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين ، لم يذكر (او) بل يذكر الواو العاطفة .

وقول من قال : (او) هنا للتخيير ــ كقولهم : جالس الحسن او ابن سيرين ــ ليس بشىء ، لأن التخيير يكون فى الأمر والطلب لايكون فى الخبر ، وكذلك قول من قال و (أو) بمعنى الواو او لتشكيك المخاطبين ، او الابهام عليهم ليس بشىء ، فان الله يريد بالأمثال البيان والتفهيم ، لايريد التشكيك والابهام .

والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم ، ويدل على ذلك انه قال فى المثل الأول: ( صم بكم عمى ) [ البقرة : ١٨ ] ، وقال فى الثانى : ( يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شىء قدير ) [ البقرة : ١٩، ٢٠ ] . فبين فى المثل الثانى ، أنهم يسمعون ويبصرون ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، وفى الأول كانوا يبصرون ، ثم صاروا لايبصرون ، صم بكم عمى، وفى الثانى اذا اصابهم البرق مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، فلهم حالان : حال ضياء ، وحال ظلام ، والأولون بقوا فى الظلمة ، فالأول حال من كان فى ضوء ، فصار فى ظلمة ، والثانى حال من لم يستقر فى ضوء ولا فى

ظلمة ، بل تختلف عليه الأحوال التى توجب مقامه واسترابته .

يبين هذا انه سبحانه ضرب للكفار أيضاً مثلين بحرف «أو» فقال : ( والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوق سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ) [ النور : ٣٩،٤٠ ] . فالأول مثل الكفر الذى يحسب صاحبه أنه على حق ، وهو على باطل ، كمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فانه لايعلم ولا يعلم أنه لايعلم ، فلهذا مثل بسراب بقيعة ، والثانى مثل الكفر الذى لايعتقد صاحبه شيئاً ، بل هو فى ظلمات بعضها فوق بعض ، من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد أنه على حق ، بل لم يزل جاهلا ضالا فى ظلمات متراكمة .

وأيضاً ، فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفاً بهذا الوصف ، فيكون التقسيم فى المثلين لتنوع الأشخاص ، ولتنوع أحوالهم ، وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل ، هو مماثل لما ضرب له هذا المثل ، لاختلاف المثلين صورة ومعنى ، ولهذا لم يضرب للايمان الا مثل واحد ، لأن الحق واحد فضرب مثله بالنور ، وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لاحقيقة له ، كالسراب بالقيعة ، أو بالظلمات المتراكمة ، وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن أبصر ثم عمى،أو هو يسمع ويبصر مالا ينتفع به . فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطناً ، وهذا مما استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسير، أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا ، وكان يجرى ذلك لأسباب : منها أمر القبلة لما حولت ، ارتد عن الايمان لأجل ذلك طائفة ، وكانت محنه امتحن الله بها الناس ، قال تعالى : ( وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ) [ البقرة : ١٤٣ ] قال : أى اذا حولت ، والمعنى ان الكعبة هى القبلة التى كان فى علمنا أن نجعلها قبلتكم ، فان الكعبة ومسجدها وحرمها ،أفضل بكثير من بيت المقدس ، وهى البيت العتيق ، وقبلة ابراهيم وغيره من الأنبياء ،

ولم يأمر الله قط أحداً أن يصلى الى بيت المقدس ، لا موسى ولاعيسى ولا غيرهما ، فلم نكن لنجعلها قبلة دائمة ، ولكن جعلناها أولا قبلة لنمتحن بتحويلك عنها الناس ، فيتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، فكان فى شرعها هذه الحكمة .

وكذلك أيضاً لما انهزم المسلمون يوم أحد ، وشج وجه النبى ﷺ ، وكسرت رباعيته ارتد طائفة نافقوا ، قال تعالى : ( ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ) [ آل عمران: ١٣٩، ١٤١ ] وقال تعالى : ( وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناك ، هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعم بما يكتمون ) [آل عمران:١٦٦، ١٦٧] فقوله: ( وليعلم الذين نافقوا)ظاهر فيمن احدث نفاقاً وهو يتناول من لمينافق قبل،ومن نافق ثم جدد نفاقاً ثانيا ،وقوله:(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان.يبين انهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم ، بل اما ان يتساويا ، وأما ان يكونوا للايمان أقرب ، وكذلك كان ، فان ابن أبى لما انخذل عن النبى ﷺ يوم أحد ، انخذل ثلث الناس قيل : كانوا نحو ثلاثمائة ، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين فى الباطن ، اذ لم يكن لهم داع الى النفاق ، فان ابن ابى كان مظهراً لطاعة النبى ﷺ والايمان به ، وكان كل يوم جمعة يقوم خطيباً فى المسجد يأمر باتباع النبى ﷺ ، ولم يكن ما فى قلبه يظهر الا لقليل من الناس أن نظهر، وكان معظماً فى قومه ، كانوا قد عزموا على أن يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم ، فلما جاءت النبوه بطل ذلك ، فحمله الحسد على النفاق ، والا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو اليه ، وانما كان هذا فى اليهود ، فلما جاء النبى ﷺ بدينه وقد ظهر بحسنه ونوره ، مالت اليه القلوب لاسيما لما نصره الله

يوم بدر ، ونصره على اليهود بنى قينقاع ، صار معه الدين والدنيا ، فكان المقتضى للايمان فى عامة الأنصار قائماً ، وكان كثير منهم يعظم ابن أبى تعظيماً كثيراً ويواليه ، ولم يكن ابن ابى اظهر مخالفة توجب الامتياز ، فلما انخذل يوم احد وقال : يدع رايى ورايه ، ويأخذ برأى الصبيان ، او كما قال ، انخذل معه خلق كثير ، منهم من لم ينافق قبل ذلك .

وفى الجملة ففى الأخبار عمن نافق بعد ايمانه مايطول ذكره هنا ، فأولئك كانوا مسلمين وكان معم ايمان ، هو الضوء الذى ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الاسلام الذى يثابون عليه ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان ، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة ، وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا، واكثرهم اذا ابتلوا بالمحن التى يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص ايمانهم كثيراً ، وينافق اكثرهم او كثير منهم ، ومنهم من يظهر الردة اذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة ، واذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن ايماناً لا يثبت على المحنة .

ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا (آمنا) فقيل لهم : ( قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) [ الحجرات : ١٤ ] أى الايمان المطلق ، الذى أهله هم المؤمنون حقا ، فان هذا هو الايمان اذا أطلق فى كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ، ولهذا قال تعالى : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ) [ الحجرات: ١٥ ] فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الايمان فى القلوب ، والريب يكون فى علم القلب ، وفى عمل القلب بخلاف الشك ، فانه لايكون الا فى العلم ولهذا لايوصف باليقين الا من أطمأن قلبه علماً وعملا ، فاذا كان عالما بالحق، ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعاً عظيماً ، لم يكن صاحب يقين ، قال

تعالى : ( هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ) [ الأحزاب : ١١ ].

وكثيراً ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ، ثم يتوب الله عليه. وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ، ويدفعه الله عنه ، والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان ، وبوساوس الكفر التى يضيق بها صدره ، كما قالت الصحابة : يارسول الله ان أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به ؟ فقال : « ذاك صريح الايمان » (١) وفى رواية : « ما يتعاظم أن يتكلم به » قال : « الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة » (٢) أى حصول هذا الوسواس ، مع هذه الكراهة العظيمة لــه ودفعه عن القلب ، هو من صريح الايمان ، كالمجاهد الذى جاءه العــدو ، فدافعه حتى غلبه ، فهذا أعظم الجهاد ، والصريح الخالص كاللبن الصريح، وانما صار صريحاً ، لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها ، فخلص الايمان فصار صريحاً .

ولا بد لعامة الخلق من هذه الوساوس ، فمن الناس من يجيبها فيصير كافراً أو منافقاً ، ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بهـا الا اذا طلب الدين ، فاما أن يصير مؤمناً واما أن يصير منافقاً ، ولهذا يعرض للناس من الوساوس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا ، لأن الشيطان يكثر تعرضه لعبد اذا أراد الانابة الى ربه والتقريب اليه والاتصال به،فلهذا يعرض للمصلين مالا يعرض لغيرهم ، ويعرض للخاصة اهل العلم والــدين اكثر مما يعرض للعامة ، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم ، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه ، بل هــو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه ، وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة ، فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله ، قال تعالى :

---

(١) رواه أحمد ( ٣٩٧/٢ ) ومسلم ( ٨٣/١ ) نحوه من حديث أبى هريرة.
(٢) رواه أحمد (٢٣٥/١) بسنند صحيح عن ابن عباس،وأبو داود نحوه.

( أن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ) [ فاطر : ٦ ] ولهذا أمر قارىء القرآن؛ أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به ، تورث القلب الايمان العظيم ، وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء ، وقال تعالى: ( وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا) [ الاسراء : ٨٢ ] . وقال تعالى : ( هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين [ آل عمران : ١٣٨ ] وقال تعالى : ( هدى للمتقين ) [ البقرة : ٢ ] وقال تعالى : ( فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ) [ التوبة : ١٢٤ ] .

وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه ، فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن ، فأمر الله القارىء اذا قرأ القرآن ، أن يستعيذ منه ، قال تعالى : ( فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ) [ النحل : ٩٨—١٠٠ ] فان المستعيذ بالله ، مستجير به ، لاجىء اليه ، مستغيث به من الشيطان فالعائذ بغيره مستجير به ، فاذا عاذ العبد بربه ، كان مستجيراً به متوكلاً عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ، ولذلك قال الله تعالى : ( ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ، واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم ) [ فصلت : ٣٤—٣٦ ] .

وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ أنه قال : « انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »،فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير ، لئلا يعوقه الشيطان عنه ، وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند ارادة العبد للحسنات ، وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته » (١) فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر،

---

(١) أخرجه الشيخان .

او يمنعه من خير ، كما يفعل العدو مع عدوه .

وكلما كان الانسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة ، واقدر على ذلك من غيره ، بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ، ورغبته وارادته فى ذلك اتم ، كان ما يحصل له ان سلمه الله من الشيطان اعظم ، وكان ما يفتتن به ان تمكن الشيطان منه أعظم ، ولهذا قال الشعبى : كل امة علماؤها شرارها ، الا المسلمين ، فان علماءهم خيارهم .

وأهل السنة فى الاسلام ، كأهل الاسلام فى الملل ، وذلك ان كل امة غير المسلمين ، فهم ضالون ، وانما علماؤهم ، فعلماؤهم شرارهم ، والمسلمون على هدى ، وانما يتبين الهدى بعلمائهم ، فعلماؤهم خيارهم ، وكذلك أهل السنة ، ائمهتم خيار الأمة ، وائمة اهل البدع ، أضر على الأمة من أهل الذنوب . ولهذا أمر النبى ﷺ بقتل الخوارج ، ونهى عن قتال الولاة الظلمه. واولئك لهم نهمة فى العلم والعبادة ، فصار لهم من الوساوس التى تضلهم وهم اللالكائى وغيره عن ادريس بن عبد الكريم قال : سأل رجل من أهل خراسان ابا ثور عن الايمان وما هو ، أيزيد وينقص ؟ وقول هو أو قول وعمل، أو تصديق وعمل ؟ فأجابه أبو ثور بهذا فقال : سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الإيمان ما هو ، يزيد وينقص ؟ وقول هو أو قول وعمل ؟ أو تصديق وعمل ؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم .

اعلم يرحمنا الله واياك : ان الايمان تصديق بالقلب ، وقول باللسان وعمل بالجوارح ، وذلك انه ليس بين أهل العلم خلاف فى رجل لو قال : اشهد ان الله عز وجل واحد ، وان ما جاءت به الرسل حق ، واقر بجميع الشرائع، ثم قال : ما عقد قلبى على شىء من هذا ، ولا أصدق به ، انه ليس بمسلم، ولو قال : المسيح هو الله ، وجحد أمر الاسلام ، ثم قال : لم يعقد قلبى على شىء من ذلك ، إنه كافر باظهار ذلك وليس بمؤمن ، فلما لم يكن بالاقرار اذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ، ولا بالتصديق اذا لم يكن معه الاقرار مؤمناً ،

حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه . فاذا كان تصديقاً بالقلب واقـراراً باللسان ، كان عندهم مؤمناً ، وعند بعضهم لايكون مؤمناً حتى يكون مـع التصديق عمل ، فيكون بهذه الأشياء اذا اجتمعت مؤمناً ، فلما نفوا أن يكون الايمان بشيء واحد ، وقالوا : يكون بشيئين فى قول بعضهم ، وثلاثة أشياء فى قول غيرهم ، لم يكن مؤمناً الا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء ، وذلك انه اذا جاء بهذه الثلاثة الأشياء ، فكلهم يشهد انه مؤمن ، فقلنا بمـا اجمعوا عليه من التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح .

فأما الطائفة التى ذهبت الى أن العمل ليس من الايمان ، فيقال لهم : الأحكام ، هو زيادة فى العلم ، وبيان حكمة الفاظ القرآن ، لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا .

واسم الايمان والاسلام والنفاق والكفر ، هى أعظم من هذا كله ، فالنبى ﷺ قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لايحتاج معه الى الاستدلال على ذلـك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ، فلهذا يجب الرجـوع فى مسميات هذه الأسماء الى بيان الله ورسوله ، فانه شاف كاف ، بل معانـى هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة ، بل كل من تأمل مـا تقوله الخوارج والمرجئة فى معنى الايمان ، علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول، ويعلم بالاضطرار ان طاعة الله ورسوله من تمام الايمان وأنه لم يكن يجعل كل من اذنب ذنباً كافراً ، ويعلم انه لو قدر أن قوماً قالوا للنبى ﷺ : نحـن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ، ونقر بألسنتنا بالشهادتين ، الا أنـا لا نطيعك فى شىء مما أمرت به ونهيت عنه ، فلا نصلى ولا نصوم ولا نحج ، ولا نصدق الحديث ، ولا نؤدى الأمانة ، ولا نفى بالعهد ، ولانصل الرحم ، ولا نفعل شيئاً من الخير الذى أمرت به ، ونشرب الخمر ، وننكـح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وامتك ، ونأخـذ أموالهم ، بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع اعدائك ، هل كان يتوهم عاقل أن النبى

ﷺ يقول لهم : أنتم مؤمنون كاملوا الايمان ، وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة، ويرجى لكم أن لايدخل أحدكم النار ، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار انه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ، ونضر برقابهم ان لم تنتوبوا من ذلك.

وكذلك كل مسلم نعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق ، لم يكن النبي ﷺ نجعلهم مرتدين يجب قتلهم ، بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الاسلام ، كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني ، وقطع السارق ، وهذا متواتر عن النبي ﷺ ولو كانوا مرتدين لقتلهم ، فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول ﷺ .

واهل البدع انما دخل عليهم الداخل ، لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق، وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها ، اما في دلالة الألفاظ، واما في المعاني المعقولة ، ولا يتاملون بيان الله ورسوله ، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ، فانها تكون ضلالا ، ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين ، وكذلك ذكر في رسالته الى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة ، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين ، ولا يعدلون عن بيان الرسول اذا وجدوا الى ذلك سبيلا ، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها انه يقول على الله ورسوله مالا يعلم ، أو غير الحق ، وهذا مما حرمه الله ورسوله ، وقال تعالى في الشيطان : ( انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله مالا تعلمون ) [ البقرة : ١٦٩ ] . وقال تعالى: ( ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله الا الحق ) [ الأعراف: ١٦٨ ] . وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعدة من النار » (١) .

---

(١) هذا الحديث لاوجود له بهذا اللفظ ، وانما هو مركب من حديثين، الأول عن ابن عباس بلفظ : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . والآخر عن جندب بلفظ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » . وكلا الحديثين ضعيف .

مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله ، أخذوا يتكلمون فى مسمى الايمان والاسلام وغيرهم بطرق ابتدعوها ، مثل أن يقولوا : الايمان فى اللغة : هو التصديق ، والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها ، فيكون مراده بالايمان التصديق ، ثم قالوا : والتصديق انما يكون بالقلب واللسان ، أو بالقلب ، فالأعمال ليست من الايمان ، ثم عمدتهم فى أن الايمان : هو التصديق قوله : ( وما أنت بمؤمن لنا ) [ يوسف : ١٧ ] أى بمصدق لنا .

فيقال لهم : اسم الايمان قد تكرر ذكره فى القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ ، وهو أصل الدين ، وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالى ومن يعادى ، والدين كله تابع لهذا ، وكل مسلم محتاج الى معرفة ذلك ، أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله ، ووكله الى هاتين المقدمتين ؟ ومعلوم أن الشاهد الذى استشهدوا به على أن الايمان : هو التصديق أنه من القرآن ، ونقل معنى الايمان متواتر عن النبى ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة ، فان الايمان يحتاج الى معرفته جميع الأمة فينقلونه ، بخلاف كلمة من سورة ، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة ، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات ، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم ، وسلكوا السبل ، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجائهم البينات ، فهذا كلام عام مطلق .

ثم يقال : هاتان المقدمان كلاهما ممنوعة ، فمن الذى قال : ان لفظ الايمان مرادف للفظ التصديق ؟ وهب أن المعنى يصح اذا استعمل فى هذا الموضع ، فلم قلت : انه يوجب الترادف ولو قلت : ما انت بمسلم لنا ، ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى ، لكن لم قلت : إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن ؟ واذا قال الله : ( أقيموا الصلاة ) : ولو قال القائل : أتموا الصلاة ، ولازموا الصلاة ، التزموا الصلاة ، افعلوا الصلاة ، كان المعنى صحيحاً ، لكن لايدل هذا على

معنى : أقيموا فكون اللفظ يرادف اللفظ ، يراد دلالته على ذلك .

ثم يقال : لبس هو مرادفاً له ، وذلك من وجوه : أحدها : أن يقال للمخبر اذا صدقته ، ولا يقال : آمنه وآمن به ، بل يقال : آمن له ، كما قال . ( فآمن له لوط ) [ العنكبوت : ٢٦ ] . وقال : (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه ) [ يونس : ٨٣ ] ، وقال فرعون : ( آمنتم له قبل أن آذن لكم ) [الشعراء: ٤٩ ] . وقالوا لنوح : ( أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ) [ الشعراء : ١١١ ] . وقال تعالى : ( قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ) [ التوبة : ٦١ ] ، ( فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ) [ المؤمنون : ٤٨ ] ، وقال : ( وان تؤمنوا لي فاعتزلون ) [ الدخان : ٢١ ] .

فان قيل : فقد يقال : ما أنت بمصدق لنا ؟ قيل : اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه اذا ضعف عمله ، واما بتأخيره ، أو بكونه اسم فاعل ، أو مصدراً ، أو باجتماعهما ، فيقال : فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ، ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل : هو عابد لربه ، متق لربه ، خائف لربه ، وكذلك تقول : فلان يرهب الله ، ثم تقول : هو راهب لربه ، واذا ذكرت الفعل وأخرته ، تقويه باللام ، كقوله : ( وفي نسختها هدى ورحمة الذين هم لربهم يرهبون [ الأعراف : ١٥٤ ] ـ وقد قال ( فاياي فارهبون ) [ النحل : ٥١ ] . فعداه بنفسه ، وهناك ذكر ، فان هنا قوله : ( فاياي ) أتم من قوله : فلي ، وقوله هنالك ( لربهم ) أتم من قوله : ربهم ، فان الضمير المنفصل المنصوب ، أكمل من ضمير الجر بالياء اسم ظاهر ، فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده ، ومن هذا قوله : ( ان كنتم للرؤيا تعبرون ) [ يوسف : ٤٣ ] . ويقال : عبرت رؤياه ، وكذلك قوله : ( وانهم لنا لغائظون ) [ الشعراء : ٥٦ ] . وانما يقال: غظته ، لايقال : غظت له ، ومثله كثير ، فقول القائل : ماأنت بمصدق لنا ، ادخل فيه اللام ، كونه اسم فاعل والا فانما يقال : صدقته ، لايقال : صدقت له ، ولو ذكروا الفعل ، لقالوا : ماصدقتنا ، وهذا بخلاف لفظ الايمان ، فانه تعدى الى الضمير باللام دائماً ، لايقال : آمنته قط ، وانما يقال : آمنت له ،

كما يقال : اقررت له فكان تفسيره الاقرار ، أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقاً .

الثانى : انه ليس مرادفاً للفظ التصديق فى المعنى ، فان كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له فى اللغة : صدقت ، يقال كما يقال : كذبت ، فمن قال : السماء فوقنا ، قيل له : صدق ، كما يقال : كذب ، وأما لفظ الايمان فلا يستعمل الا فى الخبر عن غائب ، لم يوجد فى الكلام أن من أخبر عن مشاهدة، كقوله : طلعت الشمس ، وغربت ، انه يقال : آمناه ، كما يقال : صدقناه ولهذا ، المحدثون والشهود ونحوهم ، يقال : صدقناهم ، وما يقال : آمنا لهم، فان الايمان مشتق من الأمن ، فانما يستعمل فى خبر يؤتمن عليه المخبر ، كالأمر الغائب الذى يؤتمن عليه المخبر ، ولهذا لم يوجد قط فى القرآن وغيره لفظ : آمن له ، الا فى هذا النوع ، والاثنان اذا اشتركا فى معرفة الشىء ، يقال صدق أحدهما صاحبه ، ولا يقال : آمن له ، لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه ، ولهذا قال : ( فآمن له لوط ) [ العنكبوت : ٢٦ ] . ( أنؤمن لبشرين مثلنا ) [ المؤمنون : ٤٨ ] . ( آمنتم له ) [ طه : ٧١ ] . ( يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ) [ التوبة : ٦١ ] . فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه ، وهو مأمون عنده على ذلك ، فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ، ولهذا قالوا :( ما أنت بمؤمن لنا ) [ يوسف : ١٧ ] . أى لاتقر بخبرنا ، ولا تثق به ، ولا تطمئن اليه ، ولو كنا صادقين ، لأنهم لم يكونوا عنده ممن على ذلك ، فلو صدقوا لم يأمن لهم .

الثالث : أن لفظ الايمان فى اللغة لم يقابل بالتكذيب ، كلفظ التصديق ، فانه من المعلوم فى اللغة أن كل مخبر يقال له : صدقت أو كذبت ، ويقال : صدقناه ، أو كذبناه ، ولايقال لكل مخبر : آمنا له أو كذبناه ، ولا يقال : أنت مؤمن له ، أو مكذب له ، بل المعروف فى مقابلة الايمان لفظ الكفر ، يقال : هو مؤمن أو كافر ، والكفر لايختص بالتكذيب ، بل لو قال : انا أعلم أنك صادق، لكن لا أتبعك ، بل أعاديك وأبغضك ، وأخالفك ، ولا أوافقك ، لكان كفره

اعظم ، فلما كان الكفر المقابل للايمان ليس هو التكذيب فقط ، علم ان الايمان ليس هو التصديق فقط ، بل اذا كان الكفر يكون تكذيباً ، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب ، فلا بد أن يكون الايمان تصديقاً مع موافقة وموالاة وانقاد ، لايكفى مجرد التصديق ، فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان، كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر ، فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر ، وهذا هو العمل .

فان قيل : فالرسول ﷺ فسر الايمان بما يؤمن به .

قيل : فالرسول ذكر ما يؤمن به ، لم يذكر ما يؤمن له ، وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له ، فالايمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به ، وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه ، وأما ما يجب من الايمان له ، فهو الذى يوجب طاعته ، والرسول يجب الايمان به وله ، فينبغى أن يعرف هذا ، وأيضاً فان طاعته لله ، وطاعة الله من تمام الايمان به .

الرابع : ان من الناس من يقول : الايمان أصله فى اللغة من الأمن الذى هو ضد الخوف ، فآمن ، أى : صار داخلا فى الأمن ، وانشدوا . . . (1).

وأما المقدمة الثانية ، فيقال : أنه اذا فرض أنه مرادف للتصديق ، فقولهم : ان التصديق لايكون الا بالقلب أو اللسان ، عنه جوابان ، أحدهما: المنع ، بل الأفعال تسمى تصديقاً ، كما ثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال : « العينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزنى وزناها السمع ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشى ، والقلب يتمنى ذلك ويشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » . وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف ، قال الجوهرى : والصديق مثال الفسيق : الدائم

---

(1) بياض فى الأصول كلها .

التصديق ، ويكون الذى يصدق قوله بالعمل . وقال الحسن البصرى :ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر فى القلوب ، وصدقته الأعمال ؛ وهذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدورى؛ حدثنا حجاج ، حدثنا أبو عبيدة الناجى ،عن الحسن قال : ليس الايمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال من قال حسناً وعمل غير صالح ، رد الله عليه قوله ، ومن قال حسنا وعمل صالحا ، رفعه العمل ؛ ذلك بأن الله يقول : ( اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ) [ فاطر: ١٠ ] رواه ابن بطة من الوجهين . وقوله : ليس الايمان بالتمنى — يعنى الكلام — وقوله : بالتحلى يعنى أن يصير حلية ظاهرة له ، فيظهره من غير حقيقة من قلبه ، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ، ولا من الحلية الظاهرة ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الاعمال ، فالعمل يصدق أن فى القلب ايمانا ؛ واذا لم يكن عمل ، كذب أن فى قلبه ايمانا ، لان ما فى القلب مستلزم للعمل الظاهر ، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم .

وقد روى محمد بن نصر المروزى باسناده ، أن عبد الملك بن مروان ، كتب الى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل ، فأجابه عنها : سألت عن الايمان ، فالايمان : هو التصديق ، أن يصدق العبد بالله وملائكته ، وما أنزل الله من كتاب ، وما أرسل من رسول ، وباليوم الاخر ، وسألت عن التصديق ، والتصديق : أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه ، عرف أنه ذنب ، واستغفر الله وتاب منه ، ولم يصر عليه ، فذلك هو التصديق ، وتسأل عن الدين ، فالدين : هو العبادة ، فانك لن تجد رجلاً من أهل دين يترك عبادة اهل دينه ، ثم لا يدخل فى دين آخر ا لاصار لا دين له ، وتسأل عن العبادة ، والعبادة هى الطاعة ، وذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه ، فقد اتم عبادة الله ومن أطاع الشيطان فى دينه وعمله ، فقد عبد الشيطان ، ألم تر أن الله قال للذين فرطوا : ( ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ) [ يس : ٦٠ ] وانما كانت عبادتهم

الشيطان انهم أطاعوه فى دينهم ... (١) وقال اسد بن موسى : حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الاوزاعى ، حدثنا حسان بن عطية : قال : الايمان فى كتاب الله صار الى العمل ، قال الله تعالى : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) [ الأنفال : ٢ ] ، ثم صيرهم الى العمل فقال : ( الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ) [ البقرة : ٣ ] قال : وسمعت الأوزاعى يقول: قال الله تعالى : ( فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فاخوانكم فى الدين ) [ التوبة : ١١ ] والايمان بالله باللسان ، والتصديق به العمل .

وقال معمر عن الزهرى : كنا نقول : الاسلام بالاقرار ، والايمان بالعمل ، والايمان : قول وعمل قرينان ، لا ينفع احدهما الا بالاخر ، وما من احد الا يوزن قوله وعمله ، فان كان عمله أوزان من قوله ، صعد الى الله ، وان كان كلامه لم يصعد الى الله . ورواه ابو عمر الطلمنكى باسنادة المعروف. وقال معاوية بن عمرو ، عن ابى اسحاق الفزارى ، عن الاوزاعى قال : لا يستقيم الايمان الا بالقول ، ولا يستقيم الايمان والقول الا بالعمل ، ولا يستقيم الايمان والقول والعمل الا بنية موافقة للسنة .

وكان من مضى من سلفنا ، لا يفرقون بين الايمان والعمل ، العمل من الايمان والايمان من العمل ، وانما الايمان اسم يجمع كما يجمع هذه الاديان اسمها ، ويصدقه العمل ، فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق بعمله ، فتلك العروة الوثقى التى لا نفصام لها ، ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، كان فى الاخرة من الخاسرين ، وهذا معروف عن غير واحد من السلف والخلف. انهم يجعلون العمل مصدقا للقول ، ورووا ذلك عن النبى ﷺ كما رواه معاذ بن أسد ، حدثنا الفضيل بن عياض ، عن ليث بن أبى سليم (٢) ، عن

---

(١) أنظر كتاب الصلاة ورقة ٧٣ لمحمد بن نصر المروزى .

(٢) قلت : وهو ضعيف ، وقد تابعه عبد الكريم الجزرى عن مجاهد ، أخصر منه ، وقد مضى قبل ستة فصول .

مجاهد ، أن أبا ذر سأل النبى ﷺ عن الايمان ، فقال : الايمان : الاقرار والتصديق بالعمل ، ثم تلا (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الى قوله : ( وأولئك هم المتقون ) [ البقرة : ١٧٧ ] .

قلت : حديث أبى ذر هذا مروى من غير وجه ، فان كان هذا اللفظ هو لفظ الرسول ، فلا كلام ، وان كانوا رووه بالمعنى ، دل على أنه من المعروف فى لغتهم أنه يقال : صدق قوله بعمله ، وكذلك قال شيخ الاسلام الهروى : الايمان تصديق كله .

وكذلك الجواب الثانى ، أنه اذا كان أصله التصديق ، فهو تصديق مخصوص ، كما أن الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص ، والصيام امساك مخصوص ، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة فى مسماه عند الاطلاق ، فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم ، ويبقى النزاع لفظيا : هل الايمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم ؟

ومما ينبغى أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة فى هذه المسألة هو نزاع لفظى ، والا فالقائلون بأن الايمان قول ، من الفقهاء كحماد بن أبى سليمان — وهو أول من قال ذلك ، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم — متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد ، وان قالوا : ان ايمانهم كامل كايمان جبريل فهم يقولون : ان الايمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب ، كما تقوله الجماعة ، ويقولون أيضا بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة ، والذين ينفون عن الفاسق اسم الايمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد فى النار ، فليس بين فقهاء الملة نزاع فى أصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول ، وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد ، وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله اليها ، ولا يخلد فيها أحد ، ولا يكونون مرتدين مباحى الدماء ، ولكن

الاقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم فى النار ، كالخوارج،والمعتزلة ،وقول غلاة المرجئة الذين يقولون : ما نعلم أن احدا منهم يدخل النـــار ، بل نقف فى هذا كلـــه .

وحكى عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفى العام ، ويقال للخـــوارج : الذى نفى عن السارق والزانى والشارب وغيرهم الايمان ، هو لم يجعلهـــم مرتدين عن الاسلام ، بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ، ولم يقتل احـــدا الا الزانى المحصن ، ولم يقتله قتل المرتـــد ، فان المرتد يقتـــل بالسيف بعـــد الاستتابة ، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة ، فـــدل ذلك على أنه وان نفى عنهم الايمان ، فليسوا عنده مرتدين عن الاسلام مع ظهـــور ذنوبهم ، وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، فأولئك لم يعـــاقبهم الا على ذنب ظاهر .

وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس ، هل فى اللغـــة أسماء شرعية نقلها الشـــارع عن مسماها فى اللغة ؟ او انها باقيـــة فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة ، لكن الشارع زاد فى أحكامهـــا لا فى معنى الاسماء ؟ وهكذا قالوا فى اسم الصـــلاة والزكاة والصيام والحج : انها باقيـــة فى كلام الشارع على معناها اللغوى ، لكن زاد فى أحكامها ، ومقصودهم أن الايمـــان هو مجرد التصديق ، وذلك يحصل بالقلب واللسان ، وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف ، فهى بالنسبة الى اللغة مجاز ، وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة .

والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغـــيرها ، ولكن استعملها مقيـــدة لا مطلقة ، كمـــا يستعمل نظائرها ، كقوله تعـــالى : ( ولله على الناس حج البيت ) [ آل عمران : ٩٧ ] فذكر حجا خاصا ، وهو حـــج البيت ، وكذلك قوله : ( فمن حج البيت أو اعتمر ) [ البقـــرة : ١٥٨ ] فلم يكن لفظ الحـــج متناولا لكل قصد ، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيـــر

اللغــة ، والشاعر اذا قال :

واشهد من عــوف حلــولا كثــيرة
يحجون سب الزبرقان المزعفر (١)

ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الاضافة ، فكذلك الحج المخصوص الذى امر الله به دلت عليه الاضافة أو التعريف باللام ، فاذا قيــل : الحج فرض عليك ، كانت لام العهد تبين أنه حج البيت ، وكذلك الزكاة هى اسم لما تزكو به النفس ، وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها ، والاحسان الى الناس من أعظم ماتزكو به النفس ، كما قال تعالى : ( خذ من أموالهــم صدقة تطهرهم وتزكيم بها ) [ التوبة : ١٠٤ ] . وكذلك ترك الفواحش ممــا تزكو به ، قال تعالى : ( ولو لا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحــد أبداً ) [ النور : ٢١ ] ، وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله ، قال تعالى ( وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة ) [ السجدة : ٨،٧ ] . وهى عنــد المفسرين : التوحيد .

وبين النبى ﷺ مقدار الواجب ، وسماها الزكاة المفروضة ، فصــار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد ، ومن الأسماء ما يكون أهل العرف نقلوه ، وينسبون ذلك الى الشارع ، مثل لفظ التيمم ، فان الله تعالى : ( فتيمموا صعيداً طيبــاً فامسحوا بوجوهــكم وأيديكــم منــه ) [ المائدة : ٦ ] . فلفظ التيمم استعمل فى معناه المعروف فى اللغة ، فانه امر بتيمم الصعيد ثم بمسح الوجوه والأيدى منه مما فصار لفظ التيمم فى عــرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح ، وليس هو لغة الشارع ، بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذى يكون بعده ، ولفظ الايمان أمر به مقيداً بالايمان

---

(١) البيت للمخبل السعدى ، ويحجون : يطلبون ، والسب : العمامة . كان متكلما باللغة ، فقد قيد لفظــه : بحج سب الزبرقان المزعفــرا .

بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وكذلك لفظ الاسلام بالاستسلام لله رب العالمين ، وكذلك لفظ الكفر مقيداً ، ولكن لفظ النفاق قد قيل : انه لم تكن العرب تكلمت به ، لكنه مأخوذ من كلامهم ، فان نفق يشبه خرج ، ومنه نفقت الدابة : اذا ماتت ، ومنه نافقاء اليربوع ، والنفق فى الأرض ، قال تعالى : ( فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض ) [ الأنعام : ٣٥ ] ، فالمنافق هو الذى خرج من الايمان باطناً بعد دخوله فيه ظاهراً ، وقيد النفاق بأنه نفاق من الايمان . ومن الناس من يسمى من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه ، لكن النفاق الذى فى القرآن هو النفاق على الرسول ، فخطب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها ، وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعاً .

وقد بين الرسول تلك الخصائص ، والاسم دل عليها ، فلا يقال : أنها منقوله ، أنه زيد فى الحكم دون الاسم ، بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع ، لم يستعمل مطلقاً ، وهو انما قال : ( اقيموا الصلاة ) بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها ، فكان التعريف منصرفاً الى الصلاة التى يعرفونها ، لم ينزل لفظ الصلاة وهم لايعرفون معناه ، ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة : أنه عام للمعنى اللغوى ، أو انه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك ، فأقوالهم ضعيفة ، فان هذا اللفظ انما ورد خبراً أو أمراً ، فالخبر كقوله : ( ارايت الذى ينهى عبده اذا صلى ) [ العلق : ٩،١٠ ] . وسورة (أقرأ) من أول مانزل من القرآن ، وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى ﷺ عن الصلاة وقال : لئن رايته يصلى لأطأن عنقه ، فلما رآه ساجداً رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه ، فاذا قيل : ( أرايت الذى ينهى عبداً اذا صلى ) فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا اجمال فى اللفظ ، ولا عموم .

ثم انه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج اقام النبى ﷺ لهم الصلوت بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم ، وكان جبرائيل يؤم النبى ﷺ ، والمسلمون يأتمون بالنبى ﷺ ، فاذا قيل لهم : ( أقيموا الصلاة ) عرفوا أنها

تلك الصلاة ، وقيل : انه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار ، فكانت أيضاً ، فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عيدهم ، فلا اجمال فى ذلك ، ولا يتناول كل ما يسمى حجاً ودعاءاً وصوماً ، فان هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقاً ، وذلك لم يرد .

وكذلك الايمان والاسلام وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور ، وانما سال جبريل ﷺ عن ذلك وهم يسمعون وقال : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » (١) لبين كمال هذه الأسماء وحقائقها التى ينبغى أن تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها ، وهذا كما فى الحديث الصحيح انه قال : « ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسال الناس الحافاً » (٢) فهم كانوا يعرفون المسكين وانه المحتاج ، وكان ذلك مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال ، فيبين النبى ﷺ أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له ، والسؤال له بمنزلة الحرفة ، وهو وان كان مسكيناً يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته ، فهو اذا وجد من يعطيه كفايته ، فهو اذا وجد من يعطيه كفايته، لم يبق مسكيناً ، وانما المسكين المحتاج الذى لايسال ولايعرف فيعطى ، فهذا هو الذى يجب ان يقدم فى العطاء ، فانه مسكين قطعاً ، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يساله ، وكذلك قوله : « الاسلام هو الخمس » ، يريد ان هذا كله واجب داخل فى الاسلام ، فليس للانسان أن يكتفى بالاقرار بالشهادتين ؛ وكذلك الايمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل ، لايكتفى فيه بالايمان المجمل ، ولهذا وصف الاسلام بهذا .

وقد اتفق المسلمون على انه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، وأما الأعمال الأربعة ، فاختلفوا فى تكفير تاركها ، ونحن اذا قلنا : أهل السنة

---

(١) رواه مسلم .　　(٢) متفق عليه .

متفقون على أنه لايكفر بالذنب ، فانما نريد به المعاصى كالزنا والشرب ، وأما هذه المبانى ففى تكفير تاركها نزاع مشهور ، وعن أحمد فى ذلك نزاع واحدى الروايات عنه : أنه يكفر من ترك واحدة منها ، وهو اختيار ابى بكر وطائفة من أصحاب مالك ، كابن حبيب ، وعنه رواية ثانية : لايكفر الا بترك الصلاة والزكاة فقط ، ورواية ثالثة : لايكفر الا بترك الصلاة ، والزكاة اذا قاتل الامام عليها ، ورابعة : لايكفر الا بترك الصلاة ، وخامسة : لايكفر بترك شيء منهن . وهذه أقوال معروفة للسلف . قال الحكم بن عتيبة : من ترك الصلاة متعمداً ، فقد كفر ، ومن ترك الزكاة متعمداً ، فقد كفر ، ومن ترك الحج متعمداً ، فقد كفر ، ومن ترك صوم رمضان متعمداً ، فقد كفر . وقال سعيد بن جبير : من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله ، ومن ترك الزكاة متعمداً ، فقد كفر بالله ، ومن ترك صوم رمضان متعمداً ، فقد كفر بالله ، وقال الضحاك : لاترفع الصلاة الا بالزكاة وقال عبد الله بن مسعود : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة ، فلا صلاة له . رواهن أسد بن موسى .

وقال عبد الله بن عمرو : من شرب الخمر ممسياً ، أصبح مشركاً ، ومن شربها مصبحاً ، امسى مشركاً ، فقيل لابراهيم النخعى : كيف ذلك ؟ قال : لانه يترك الصلاة . قال أبو عبد الله الأخنس فى كتابه : من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة ، ومن ترك الصلاة فقد خرج من الايمان . ومما يوضح ذلك ان جبريل لما سأل النبى ﷺ عن الاسلام والايمان والاحسان ، كان فى آخر الأمر بعد فرض الحج ، والحج انما فرض سنة تسع أو عشر .

وقد اتفق الناس على انه لم يفرض قبل ست من الهجرة ، ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يأمر الناس ، ولم يبين لهم معناه الى ذلك الوقت ، بل كانوا يعرفون أصل معناه وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن من نفى عنه الرسول اسم الايمان أو الاسلام ، فلا بد أن يكون قد ترك الواجبات فيه وان بقي بعضها ، ولهذا كان الصحابة

والسلف يقولون : انه يكون فى العبد ايمان ونفاق . قال أبو داود السجستانى: حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش عن شفيق ، عن أبى المقدام، عن أبى يحيى قال : سئل حذيفة عن المنافق ؟ قال : الذى يعرف الاسلام ولا يعمل به . وقال أبو داود : حدثنا عثمان ابن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، عن الاعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البخترى عن حذيفة قال : القلوب أربعة : قلب اغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح ، وذلك قلب المنافق. وقلب اجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه ايمان ونفاق. فمثل الايمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب ، ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم ، فأيهما غلب عليه غلب ، وقد روى مرفوعاً ، وهو فى « المسند » مرفوعاً (١) .

وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : ( هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ) [ آل عمران : ١٦٦ ] فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب ، فلما كان يوم أحد ، غلب نفاقهم فصاروا الى الكفر أقرب . وروى عبد الله بن المبارك ، عن عوف بن أبى جميلة ، عن عبد الله بن عمرو ابن هند ، عن على بن أبى طالب قال : ان الايمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب ، فكلما ازداد العبد ايماناً ازداد القلب بياضاً ، حتى اذا استكمل الايمان ابيض القلب كله ، وان النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب ، فكلما ازداد العبد نفاقاً ، ازداد القلب سواداً ، حتى اذا استكمل النفاق اسود القلب ، وايم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجد تموه أبيض ، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجد تموه أسود . وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، رواه أحمد وغيره (٢) وهذا كثير فى كلام السلف ، يبينون أن القلب قد يكون فيه ايمان ونفاق ، الكتاب والسنة يدلان على ذلك ، فان النبى ﷺ

---

(١) قلت : والمرفوع اسناده ضعيف ، والصحيح موقوف .

(٢) قلت : ورواه ابن أبى الدنيا فى « ذ الملاهى » عن ابن مسعود مرفوعاً ، وسنده ضعيف .

ذكر شعب الايمان ، وذكر شعب النفاق ، وقال : « من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها » وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الايمان ، ولهذا قال : « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » فعلم ان من كان معه من الايمان اقل القليل لم يخلد فى النار ، وان كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب فى النار على قدر ما معه من ذلك ، ثم يخرج من النار ، وعلى هذا فقوله للاعراب : ( لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ) [ الحجرات : ١٤ ] . فنفى حقيقة دخول الايمان فى قلوبهم ، وذلك لايمنع أن يكون معهم شعبة منه ، كما نفاه عن الزانى والسارق ، ومن لايحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ومن لايأمن جاره بوائقه وغير ذلك ، كما تقدم ذكره ، فان فى القرآن والحديث ممن نفى عنه الايمان لترك بعض الواجبات شىء كثير .

وحينئذ فنقول : من قال من السلف : اسلمنا ، اى : استسلمنا خوف السيف ، وقول من قال : هو الاسلام ، الجميع صحيح ، فان هذا انما أراد الدخول فى الاسلام والاسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون ، فيدخل فيه من كان فى قلبه ايمان ونفاق ، وقد علم أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ، بخلاف المنافق المحض الذى قلبه كله اسود ، فهذا هو الذى يكون فى الدرك الأسفل من النار ، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على انفسهم ، ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله ، فان المؤمن يعلم من نفسه انه لايكذب الله ورسوله يقيناً ، وهذا مستند من قال : أنا مؤمن حقاً ، فانه أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم ، ولكن الايمان ليس مجرد التصديق ، بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمالا ظاهرة كما تقدم ، فحب الله ورسوله من الايمان ، وحب ما أمر الله به ، وبغض ما نهى عنه ، وهذا من اخص الأمور بالايمان ، ولهذا ذكر النبى ﷺ فى عدة أحاديث أن : « من سرته حسنته وساءته سيئة فهو مؤمن » فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وان فعلها بشهوة غالبة ، وهذا الحب والبغض من خصائص الايمان .

ومعلوم أن الزانى يزنى انما يزنى لحب فى نفسه لذلك الفعل ، فلو قام بقلبه خشية الله التى تقهر الشهوة ، أو حب الله الذى يغلبها لم يزن ، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام : ( كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ) [ يوسف : ٢٤ ] . فمن كان مخلصاً لله حق الاخلاص لم يزن ، وانما لخلوه عن ذلك ، وهذا هو الايمان الذى ينزع منه ، لم ينزع منه نفس التصديق ، ولهذا قيل : هو مسلم وليس بمؤمن ، فان المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون مصدقاً ، والا كان منافقا ، لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الايمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ، ومثل خشية الله والاخلاص له فى الأعمال والتوكل عليه ، بل يكون الرجل مصدقاً بما جاء به الرسول ، وهو ذلك يرائى بأعماله ، ويكون أهله وماله أحب اليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، وقد خوطب بهذا المؤمنون فى آخر سورة براءة فقيل لهم : ( ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترنتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسق ) [ براءة : ٢٥ ] ومعلوم أن كثيرا من المسلمين أو اكثرهم بهذه الصفة .

وقد ثبت أنه لايكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وانما المؤمن من لم يرتب ، وجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة فى الايمان ، فهو الذى نفى عنه الرسول الايمان وان كان معه التصديق ، والتصديق من الايمان ، ولا بد أن يكون مع التصديق شىء من حب الله وخشية الله ، والا فالتصديق الذى لايكون معه شىء من ذلك ليس ايماناً البتة ، بل هو كتصديق فرعون واليهود وابليس ، وهذا هو الذى أنكره السلف على الجهمية . قال الحميدى : سمعت وكيعاً يقول : أهل السنة يقولون : الايمان قول وعمل ، والمرجئة يقولون : الايمان قول ، والجهمية يقولون : الايمان المعرفة ، وفى رواية أخرى عنه : وهذا كفر . قال محمد بن عمر الكلابى : سمعت وكيعاً يقول : الجهمية شر من القدرية ، قال : وقال

وكيع : المرجئة : الذين يقولون : الاقرار يجزىء عن العمل ، ومن قال هذا فقد هلك ، ومن قال : النية تجزىء عن العمل ، فهو كفر ، وهو قول جهم ، وكذلك قال احمد بن حنبل .

ولهذا كان القول : ان الايمان قول وعمل عند أهل السنة ، ومن شعائر السنة ، وحكى غير واحد الاجماع على ذلك ، وقد ذكرنا عن الشافعى رضى الله عنه ما ذكره من الاجماع على ذلك قوله فى «الأم» : وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون : ان الايمان قول وعمل ونية ، لايجزىء واحد من الثلاثة الا بالآخر ، وذكر ابن أبى حاتم فى «مناقبه» سمعت حرملة يقول : اجتمع حفص الفرد ومصلاق الاباضى عند الشافعى فى دار الجروى ، فتناظرا معه فى الايمان ، فاحتج مصلاق فى الزيادة والنقصان ، واحتج حفص الفرد ، فى أن الايمان ، فعلا حفص الفرد على مصلاق وقوى عليه ، وضعف مصلاق ، فحمى الشافعى وتقلد المسألة على أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، فطحن حفصاً الفرد ، وقطعه .

وروى أبو عمر الطلمنكى باسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال : أملى علينا اسحاق بن راهويه أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا شك أن ذلك كما وصفنا ، وانما عقلنا هذا بالروايات الصحيحه والآثار العامة المحكمة ، وآحاد أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ، وهلم جرا على ذلك ، وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شىء واحد لايختلفون فيه ، وكذلك فى عهد الأوزاعى بالشام ، وسفيان الثورى بالعراق ، ومالك بن أنس بالحجاز ، ومعمر باليمن ، على ما فسرنا وبينا ، وأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص .

وقال اسحاق : من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقتها ، الظهر الى المغرب ، والمغرب الى نصف الليل ، فانه كافر بالله العظيم ، يستتاب ثلاثة أيام ، فان لم يرجع وقال : تركها لايكون كفراً ، ضربت عنقه ، يعنى تاركها وقائل ذلك ، وأما اذا صلى وقال ذلك ، فهذه مسألة اجتهاد ، قال : واتبعهم على ما وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم ، الا من باين الجماعة ،

واتبع الأهواء المختلفة ، فأولئك قوم لايعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة .

قال أبو عبيد لقاسم بن سلام الامام وله كتاب مصنف فى الايمان (١)، قال : هذه تسمية من كان يقول : الايمان قول وعمل يزيد وينقص .

من أهل مكة : عبيد بن عمير الليثى ، عطاء بن أبى رباح ، مجاهد ابن جبر ، ابن ابى مليكة ، عمرو بن دينار ، ابن أبى نجيح ، عبيد الله بن عمر ، عبد الله عمرو بن عثمان ، عبد الملك ان جريح ، نافع بن جبير داود بن عبد الرحمن العطار ، عبد الله بن رجاء . ومن أهل المدينة : محمد ابن شهاب الزهرى ، ربيعة ابن أبى عبد الرحمن ، أبو حازم الأعرج ، سعد ابن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، يحيى بن سعيد الانصارى ، هشام ن عروة بن الزبير ، عبد الله بن عمر العمرى ، مالك بن أنس ، محمد بن أبى ذئب ، سليمان بن بلال ، عبد العزيز بن عبد الله — يعنى الماجشون عبد العزيز بن أبى حازم . ومن أهل اليمن طاوس اليمانى ، وهب بن منبه . معمر بن راشد ، عبد الرزاق بن همام . ومن أهل مصر والشام : مكحول ، الأوزاعى ، سعيد بن عبد العزيز الوليد بن مسلم ، يونس بن يزيد الأيلى ، ويزيد بن أبى حبيب ، يزيد بن أبى حبيب ، يزيد بن شريح ، سعد بن أبى أوب ، الليث بن سعد ، عبد الله بن أبى جعفر ، معاوية بن أبى صالح ، حيوة بن شريح ، عبد اله بن وهب . ومن سكن العواصم وغيرهما من الجزيرة : ميمون بن مهران ، يحيى بن عبد الكريم، معقل بن عبيد الله ، عبيد الله عمرو الرقى ، عبد الملك بن مالك ، المعافى بن عمران ، محمد بن سلمة الحرانى ، أبو اسحاق الفزارى ، مخلد بن الحسين؛ على بن بكار ، يوسف ابن أسباط ، عطاء بن مسلم ، محمد بن كثير ، الهيثم بن جميل . ومن أهل الكوفة : علقمة ، الأسود بن يزيد ، أبو وائل ، سعيد ابن جبير ، الربيع بن خيانم ، عائر الشعبى ، ابراهيم النخعى ، الحكم بن عتيبة ، طلحة بن مصرف ، منصور بن المعتمر سلمة بن كهيل ، مغيرة الضبى،

---

(١) لم يرد هذا النقل فى «الايمان» المطبوع فيستدرك من هنا .

عطاء بن السائب ، اسماعيل بن ابى خالد ، أبو حيان ، يحيى ن سعيـــد ، سليمان بن مهران الأعمش ، يزيد بن أبى زياد ، سفيان بن سعيد الثورى ، سفيان بن عيينة ، الفضيل بن عياض ، أبو المقدام ، ثابت بن العجلان ، ابن شبرمة ، ابن أبى ليلى ، زهير ، شريك بن عبد الله ، الحسن بن صالح ، حفص بن غياث ، أبو بكر بن عياش ، أبو الأحوص ، وكيع بن الجـــراح ، عبد الله بن نمير ، أبو أسامة ، عبد الله بن ادريس ، زيد بن الجباب ، الحسين بن على لجعفى ، محمد بن بشر العبدى ، يحيى بن آدم ، ومحمد ، ويعلى ، وعمر وبنو عبيد . ومن أهل البصرة : الحسن بن أبى الحسن ، محمد بـــن سيرين ، قتادة بن دعامة ، بكر بن عبد الله المزنى ، أيوب السختانى ، يونس بن عبيد ، عبد الله بن عون ، سليمان التميى ، هشام بن حسان الدستوائى، شعبة بن الحجاج ، حماد بن سلمة ، حماد بن زيد ، أبو الأشهب ، يزيد بن ابراهيم ، أبو عوانة ، وهيب بن خالد ، عبد الوازث بن سعيد ، معتمر بن سلتيمان النيمى ، يحيى ابن سعيد القطان ، عبد الرحمن بن مهدى ، بشر بن المفضل ، يزيد بن زريع ، المؤمل بن اسماعيل ، خالد بن الحارث ، معاذ بن معاذ ، أبو عبد الرحمن المقرى .

ومن اهل واسط : هشيم بن بشير ، خالد بن عبد الله ، على بن عاصم، يزيد ابن هارون ، صالح بن عمر ، عاصم بن على .

ومن اهل المشرق : الضحاك بن مزاحم ، ابو جمرة ، نصر بن عمران ، عبد الله لمبارك ، النضر بن شميل ، جرير بن عبد الحميد الضبى .

قال أبو عبيد : هؤلاء جميعاً يقولون : الايمان قول وعمل بزيد وينقص، وهو قول اهل السنة المعمول به عندنا .

قلت : ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهـــم ، لأن الارجاء فى أهل الكوفة كان أولا فيهم أكثر ، وكان أول من قاله حماد بن أبى سليمان : فاحتاج علماؤها ان يظهروا انكار ذلك ، فكثر منهم من قال ذلك ،

كما أن التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان ، كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الانكار على الجهمية ما لم يوجد قط لمن لم تكن هذه البدعة فى بلده ولا سمع بها ، كما جاء فى حديث : « ان الله عند كل بدعة يكاد بها الاسلام وأهله من يتكلم بعلامات الاسلام ، فاغتنموا تلك المجالس، فان الرحمة تنزل على اهلها » أو كما قال .

واذا كان من قوله السلف : ان الانسان يكون فيه ايمان ونفاق ، فكذلك فى قولهم : انه يكون فيه ايمان وكفر ، وليس هو الكفر الذى ينقل عن الملة ،كما قال ابن عباس واصحابه فى قوله تعالى : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرين ) [ المائدة : ٤٧ ] قالوا : كفر لاينقل عن الملة ، وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من آئمة السنة .

قال الامام محمد بن نصر المروزى فى كتاب « الصلاة » : اختلف الناس فى تفسير حديث جبريل هذا فقال طائفة من أصحابنا : قـول النبى ﷺ : « الايمان أن تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور ، وقد أوهمت المرجئة فى تفسيره ، فتأولوه على غير تأويلة قلة معرفة منهم بلسان العرب، وغور كلام النبى ﷺ الذى أعطى جوامع الكلم وفواتحه ، واختصر له الحديث احتصاراً ﷺ ، اما قوله : « الايمان أن تؤمن بالله » فأن توحده وتصدق بــه بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره تاعطاء العزم للاداء لما أمــر ، مجانبـاً للاستنسكاف والاستكبار والمعاندة ، فاذا فعلت ذلك ، لزمت محابه ﷺ ، واجتنبت مساخطه ، واما قوله : « وملائكته » فأن تؤمن بمن سمى الله لــك منهم فى كتابه ، وتؤمن بأن لله ملائكته سواهم ، لا يعرف أساميهم وعددهم الا الذى خلقهم . وأما قوله : « وكتبه » فأن تؤمن بما سمى الله من كتبــه فى كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة ، وتؤمن بأن الله سوى ذلك كتبـاً أنزلها على أنبيائه لايعرف أسماءها وعددها الا الذى أنزلها ، وتؤمن بالفرقان، وايمانك به غير ايمانك بسائر الكتب ، ايمانك بغيره من الكتب اقرارك بــه بالقلب واللسان ، وايمانك بالفرقان اقرارك به واتباعك ما فيه .

وأما قوله : « ورسوله » فأن تؤمن بما سمى الله فى كتابه من رسله ، وتؤمن بأن لله سواهم رسلا وأنبياء لايعلم أسماءهم الا الذى أرسلهم ، وتؤمن بمحمد ﷺ ، وايمانك به غير ايمانك بسائر الرسل ، ايمانك بسائر الرسل اقرارك بهم ، وايمانك بمحمد اقرارك به وتصديقك اياه واتباعك ما جاء به ، فاذا اتبعت ما جاء به ، أديت الفرائض ، واحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات ، وسارعت فى الخيرات ، وأما قوله : « واليوم الآخر » فأن تؤمن بالبعث بعد الموت ، والحساب والميزان ، والثواب والعقاب،والجنة والنار ، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة . وأما قوله : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » ، فأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وان ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل : لولا كذا وكذا و لكان كذا وكذاً ، ولو وكان كذا وكذا لـم يكن كذا وكذا ، قال : فهذا هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليـوم الآخر (١) .

## فصـــل

ومما يسأل عنه انه اذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة اكثر من هذه الخمس ، فلماذا قال : الاسلام هذه الخمس ، وقد أجاب بعض الناس بـأن هذه أظهر شعائر الاسلام وأعظمها ، وبقيام العبد بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد القيادة .

والتحقيق أن النبى ﷺ ذكر الدين هو استسلام العبد لربه مطلقـاً ، الذى يجب لله عبادة محضة على الأعيان ، فيجب على كل من كان قـادراً عليه أن يعبد الله بها مخلصاً له الدين ، وهذه هى الخمس ، وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب لمصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل اما أن يكون

---

(١) انظر كتاب الصلاة لمحمد بن نصر المروزى ورقة ٨٨ مصورة المكتب الاسلامى .

فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وما يتبع ذلك من امارة ، وحكم ، وفتيا ،وأقراء وتحديث ، وغير ذلك ، واما ان يجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه. واذا حصلت المصلحة او الابراء ، اما بابرئه واما بحصول المصلحة ، فحقوق العباد مثل قضاء الديون ، ورد الغصون ، والعوارى والودائع ، والانصاف من المظالم من الدماء والأموال والأغراض ، وانما هى حقوق الآميين ، واذا أبرئوا منها سقطت . وتجب على شخص دون شخص فى حال دون حال ، لم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ، ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى ، بخلاف الخمسة فانها من خصائص المسلمين .

وكذلك ما يجب من صلة الأرحام ، وحقوق الزوجة ، والأولاد ، والجيران والشركاء والفقراء ، وما يجب من أداء الشهادة ، والفتيا والقضاء ،والامارة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد ، كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار ، لو حصلت بدون فعل الانسان لم تجب ، فما كان مشتركاً فهو واجب على الكفاية ، وما كان مختصاً فانما يجب على زيد دون عمرو ، لايشترك الناس فى وجوب عمل بعينه على كل احد قادر سوى الخمس ، فان زوجة زيد واقاربه ليست زوجة عمرو واقاربه، فليس الواجب على هذا ، والزكاة ، فان الزكاة وان كانت حقاً مالياً فانها واجبة الله ، والأصناف الثمانية مصارفها ، ولهذا وجب فيها النية ، ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا اذنه ، ولم تطلب من الكفار ، وحقوق العباد لايشترط لها النية ، ولو أداها غيره عنه بغير اذنه برئت ذمته ، ويطالب بها الكفار ، وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد ، وفيها شرب العقوبات فان الواجب لله ثلاثة انواع : عبادة محضه كالصلوات ، وعقوبات محضة كالحدود ، وما يشبهها كالكفارات .

وكذلك كفارات الج وما يجب بالنذر ، فان ذلك يجب بسبب فعل من العبد ، وهو واجب فى ذمته . وأما الزكاة فانها تجب حقاً لله فى ماله ، ولهذا

يقال : ليس فى المال حق سوى الزكاة (١) اى ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة ، والا ففيه واجبات بغير سبب المال ، كما تجب النفقات للأقارب، والزوجة ،والرقيق ، والبهائم ، ويجب حمل العاقلة ، ويجب قضاء الديون ، ويجب الاعطاء فى النائبة ، ويجب اطعام الجائع وكسوة العارى فرضاً على الكفاية ، الى غير ذلك من الواجبات المالية ، لكن بسبب عارض ، والمال شرط وجوبها ، كالاستطاعة فى الحج ، فان البدن سبب الوجوب والاستطاعة شرط ، والمال فى الزكاة هو السبب والوجوب معه ، حتى لو لم يكن فى بلده من يستحقها حملها الى بلد اخرى ، وهى حق وجب لله تعالى ، ولهذا قال من قال من الفقهاء : إن التكليف شرط فيها ، فلا تجب على الصغير والمجنون ، وأما عامة الصحابة والجمهور ، كمالك والشافعى وأحمد ، فأوجبوها فى مال الصغير والمجنون ، لأن مالهما جنس مال غيرهما ، ووليهما يقوم مقامهما ، بخلاف بدنهما ، فانه انما يتصرف بعقلهما ، وعقلهما ناقص ، وصار هذا كما يجب العشر فى أرضهما ، مع انه انما يستحقه الثمانية ، وكذلك ايجاب الكفارة فى مالهما ، والصلاة والصيام انما تسقط لعجز العقل عن الايجاب ، لاسيما اذا انضم الى عجز البدن كالصغير ، وهذا المعنى منتف فى المال ، فان الولى قام مقامهما فى الفهم ، كما يقول مقامهما فى جميع مايجب فى المال ، وأما بدنهما فلا يجب عليهما فيه شىء .

## فصـــل

قال محمد بن نصر : واستدلوا على أن الايمان هو ما ذكروه بالآيات التى تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات ايماناً ، واسلاماً ودينا واستدلوا ايضاً مما قص الله من نبأ ابليس حين عصى ربه فى سجدة واحدة

---

(١) قلت : وقد روى مرفوعاً الى النبى ﷺ ، ولكن لا يصح اسناده ، ولعل المؤلف اشار الى ذلك بقوله : ويقال .

أمر أن يسجدها لآدم فأباها ، فهل جحد ابليس ربه وهو يقول : (رب بما أغويتنى ) [ الحجر : ٣٩ ] ؟ ! ويقول : ( رب فانظرنى الى يوم يبعثون ) [ الحجر : ٣٦ ] ايماناً منه بالبعث ، وايماناً منه بالبعث ، وايمانا بنفاذ قدرته فى انظاره اياه الى يوم يبعثون ، أوهل جحد أحد انبيائه ، أو أنكر شيئاً من سلطانه وهو يحلف بعزته ؟ ، وهل كان كفره الا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها ؟ ، قال : واستدلوا ايضاً بما قص الله علينا من نبأ بنى آدم ( اذ قربا فأباها ؟ قال : واستدلوا أيضاً بما قص الله علينا من نبأ بنى آدم ( اذ قربا الخاسرين ) [ المائدة : ٣٠ ، ٣٣ ] قالوا : وهل جحد ربه ؟ وكيف يجحد وهو يقوب له القربان ؟ قالوا : قال الله تعالى : ( انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم ليستكبرون » [السجدة : ١٥] ولم يقل اذا ذكروا بها أقروا بها ، فقط ، قال : (الذين آتيناهم يتلونه حق تلاوته وأولئك يؤمنون به ) [ البقرة : ١٢١ ] . يعنى : يتبعونه حق اتباعه ؟

فان قيل : فهل مع ما ذكرت من سنة ثابتة تبين أن العمل داخل فى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله ؟ قيل : نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك ، منها حديث وفد عبد القيس ، وذكر حديث شعبة وقرة بن خالد عن أبى جمرة عن ابن عباس كما تقدم ، ولفظه « آمركم بالايمان بالله وحده » ، ثم قال : « هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : «شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمس ماغنتم » ع

وذكر أحاديث كثيرة توجب دخول الأعمال فى الايمان مثل قوله فى حديث [ أبى ذر ] لما سئل ﷺ [ عن الايمان ، فقرأ : ( ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ) تلا الى آخر الآية (١) ] .

---

(١) بياض فى المطبوع استدرك من كتاب الصلاة لمحمد بن نصر ورقة(٩٥) وجه أول ، والحديث رجاله ثقات ، الا انه منقطع ، فان مجاهداً لم يدرك أبا ذر ، وله طريق أخرى عند عند ابن نصر وهى منقطعة أيضاً .

ثم قال أبو عبد الله محمد بن نصر : اختلف أصحابنا فى تفسير قول النبى ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فقالت طائفة منهم : انما أراد النبى ﷺ ازالة اسم الايمان عنه من غير أن يخرجه من الاسلام ، ولايزيل عنه اسمه ، وفرقوا بين الايمان والاسلام ، وقالوا : اذا زنى فليس بمؤمن وهو مسلم واحتجوا لتفريقهم بين الاسلام والايمان بقوله : ( قالت الاعراب آمنا ) الآية . فقالوا : الايمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد ، والاسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن أبى وقاص ، وذكره عن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئاً . فقلت : يارسول الله أعطيت فلاناً وفلانا ولم تعط فلانا وهو مؤمن ، فقال رسول الله ﷺ : « أو مسلم » أعادها ثلاثاً ، والنبى ﷺ يقول : « أو مسلم » ثم قال : « انى لاعطى رجالا وأمنع آخرين هم احب الى منهم مخافة أن يكبوا على وجوههم فى النار » (١) قال الزهرى : فنرى أن الاسلام الكلمة ، والايمان العمل .

قال محمد بن نصر : واحتجوا بانكار عبد الله بن مسعود على من شهد لنفسه بالايمان فقال : أنا مؤمن من غير استثناء ، وكذلك أصحابه من بعده ، وجل علماء الكوفة على ذلك ، واحتجوا بحديث أبى هريرة : « يخرج منه الايمان فان رجع رجع اليه » ، وبما أشبه ذلك من الأخبار ، وبما روى عن الحسن ومحمد بن سيرين انهما كانا يقولان : مسلم ،ويهابان : مؤمن، واحتجوا بقول أبى جعفر الذى حدثناه اسحاق بن ابراهيم ، انبانا وهب بن جرير بن حازم ، حدثنى أبى ، عن فضيل بن يسار ، عن أبى جعفر محمد بن على انه سئل عن قول النبى ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، فقال ابو أبو جعفر : هذا الاسلام ودور دارة واسعة ، وهذا الايمان ودور دارة صغيرة فى وسط الكبيرة ، فاذا زنى او سرق خرج من الايمان الى الاسلام ، ولايخرجه من الاسلام الى الكفر بالله واحتجوا بما روى عن النبى ﷺ قال : « أسلم

---

(١) أخرجه البخارى .

الناس وآمن عمرو بن العاص »، حدثنا بذلك يحيى بن يحيى ، حدثنا ابـن لهيعة ، عن مشرح بن هاعان (١) عن عقبة بن عامر الجهنى ، أن رسول الله ﷺ قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » (٢) .

وذكر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الايمان والاسلام ، فجعل الايمان خاصاً والاسلام عاماً . قال قلنا فى هؤلاء أسوة وبهم قـدرة ، مع ما يثبت ذلك من النظر ، وذلك ان الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحه أوجب عليه الجنة فقال : ( وكان بالمؤمنون رحيماً . تحيتهم يوم يلقونه سلام واعدلهم اجراً كريما ) [ الأحزاب : ٤٣، ٤٤ ] وقال : ( وبشر المؤمنين بى بأن لهم من الله فضلا كبيراً ) [ الأحزاب : ٤٧ ] وقال : ( وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم ) [ يونس : ٢ ] وقال : ( يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ) [ الحديد : ١٢ ] وقال : ( الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ) [ البقرة : ٢٥٧ ] وقال : ( وبشـر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ) [البقرة: ٢٥ ] .

قال : ثم اوجب الله النار على الكبائر ، فدل بذلك على أن اسم الايمان زائل عمن اتى كبيرة ، قالوا : ولم نجده أوجب الجنة باسم الاسلام ، فثبت أن اسم الاسلام له ثابت على حالة ، واسم الايمان زائل عنه .

---

(١) فى المطبوع : شريح بن هانىء وهو خطأ ، والتصويب من كتـاب الصلاة لابن نصر ورقة ١١٤، ومن المصادر الأخرى التى روت الحديث .

(٢) أخرجه الترمذى وأحمد الرويانى فى « مسنديهما » من طرق عن ابن لهيعة عن مشرح به ، وقال الترمذى : « غريب » لانعرفه الا من حديث ابـن لهيعة عن مشرح ، وليس اسناده بالقوى قلت : بل هو حسن ، فان ابـن لهيعة وان كان سىء الحفظ ، فهو صحيح الحديث اذا روى عنه العبادلة ، وهم ابن وهب ، وابن يزيد المقرى ، وابن المبارك ، كما حققه ابن القيم فى «اعلام الموقعين » ، وهذا قد رواه عنه الأولان منهم ، فثبت الحديث والحمد لله .

فان قيل لهم فى قولهم هذا : ليس الايمان ضد الكفر ، قالوا : الكفر ضد لأصل الايمان ، لأن للايمان أصلا وفروعاً ، فلا يثبت الكفر حتى يزول اصل الايمان الذى هو ضد الكفر ، فان قيل لهم : فالذين زعمتم أن النبى ﷺ ازال عنهم اسم الايمان هل فيه من الايمان شىء ؟ قالوا : نعم أصله ثابت ، ولولا ذلك لكفروا . الم تسمع الى ابن مسعود انكر على الذى شهد انه مؤمن ثم قال : لكنا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يخبرك أنه قد آمن من جهة انه صدق ، وانه لايستحق اسم المؤمن اذا كان يعلم أنه مقصر ، لأنه لايستحق هذا الاسم عنده الا من أدى ما وجب عليه وانتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التى هى الكبائر -

قالوا : فلما ابان الله أن هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة ،وان الله قد أوجب عليه ، وعلمنا انا قد آمنا وصدقنا ، لأنه لايخرج من التكذيب الا بالتصديق ، ولسنا بشاكين ولا مكذبين ، وعلمنا انا عاصون له مستوجبون للعذاب وهو ضد الثواب الذى حكم الله به للمؤمنين على اسم الايمان ، علمنا انا قد آمنا ، وامسكنا عن الاسم الذى اثبت الله عليه الحكم فى الجنة وهو من الله اسم ثناء وتزكية ، وقد نهانا الله أن نزكى انفسنا ، وأمرنا بالخوف على انفسنا ، واوجب لنا العذاب بعصياننا ، فعلمنا انا لسنا بمستحقين بأن نتسمى مؤمنين اذ أوجب الله على اسم الايمان الثناء والبركة والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة ، وأوجب على الكبائر النار ، وهذان حكمان متضادان .

فان قيل : فكيف أمسكتم عن اسم الايمان أن تسموا به ، وأنتم تزعمون ان أصل الايمان فى قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق ، وما قاله صدق ؟ قالوا: ان الله ورسوله وجماعة المسلمين سموا الأشياء بما غلب عليها من الأسماء ، فسموا الزانى فاسقاً ، والقاذف فاسقاً ، وشارب الخمر فاسقا ، ولم يسموا واحدا من هؤلاء متقياً ولا ورعاً ، وقد اجمع المسلمون أن فيه أصل التقى والورع ، وذلك أنه يتقى أن يكفر أو يشرك بالله شيئاً ، وكذلك يتقى الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة ، ويتقى ان يأتى أمه ، فهو فى جميع ذلك

متق ، وقد أجمع المسلمون من الموافقين والمخالفين أنهم لايسمونه متقيـاً ولا ورعاً اذا كان يأتى بالفجور ، فلما أجمعوا ان اصل التقى والورع ثابت فيه ؛ وانه قد يزيد فيه فروعاً بعد الأصل كتورعه عن اتيان المحارم ، ثم لايسمونه متقياً ولا ورعاً مع اتيانه بعض الكبائر ، بل سموه فاسقا وفاجراً مع علمهم أنه قد اتى بعض التقى والورع ، فمنعهم من ذلك أن اسم التقى اسم ثناء وتزكية، وأن الله قد أوجب عليه المغفرة والجنة .

قالوا : فذلك لانسميه مؤمناً ونسميه فاسقاً زانيا ، وان كان فى قلبـه اصل اسم الايمان ، لأن الايمان اسم اثنى الله به على المؤمنين ، وزكاهم به واوجب عليه الجنة ، فمن ثم قلنا : مسلم ولم نقل : مؤمن ، قالوا : ولو كان احد من المسلمين الموحدين يستحق أن لايكون فى قلبه ايمان ولا اسلام لكـان احق الناس بذلك اهل النار الذين دخلوها ، فلما وجدنا النبى ﷺ يخـبر أن الله يقول : «اخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان» ثبت أن شر المسلمين فى قلبه ايمان ، ولما وجدنا الأمة تحكم عليه بالأحكام التى الزمها الله للمسلمين ولا يكفرونهم ، ولا يشهدون لهم بالجنة ، ثبت أنهم مسلمون اذ أجمعوا ان يمضوا عليهم أحكام المسلمين ، وانهم لايستحقون أن يسموا مؤمنين ، اذا كان الاسلام ثبتاً للملة التى يجرج بها الانسان من جميع الملل ، فتزول عنـه اسماء الملل الا اسم الاسلام وتثبت أحكام الاسلام عليه ، وتزول عنه أحكام جميع الملل .

فان قال لهم قائل : لم لم تقولوا : كافر ان شاء الله ، ترتدون به كمال الكفر ، كما قلتم : مؤمن ان شاء الله تريدون به كمال الايمان ؟ قالـوا : لأن الكافر منكر للحق ، والمؤمن أصل ايمانه الاقرار ، والانكار لا أول له ولاآخر، فتنتظر به الحقائق ، والايمان أصلة التصديق ، والاقرار ينتظر به حقـائق الأداء لما اقر والتحقيق لما صدق ، ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل ، فسأل أحدهما حقه ، فقال : ليس لك عندى حق ، فأنكر وجحد ، فلم يبق له منزله يحقق بها ما قال اذ جحد وانكر ، وسأل الآخر حقه فقال : نعم لك على

كذا ، فليس إقراره بالذي يصل اليه بذلك حقه دون أن يوفيه ، فهو منتظر له أن يحقق ما قال بالأداء ، ويصدق اقراره بالوفاء ، ولو أقر ثم لم يؤد اليه حقه كان كمن جحده فى المعنى اذا استويا . فى الترك للاداء ، فتحقيق ما قال أن يؤدى اليه حقه ، فان أدى جزءاً منه حقق بعض ما قال ، ووفى ببعض ما اقر به ، وكلما أدى جزءاً ازداد تحقيقاً لما أقر به ، وعلى المؤمن الأداء أبداً بما اقر به حتى يموت ، فمن ثم قلنا : مؤمن ان شاء الله ، ولم نقل : كافر إن شاء الله .

قال محمد بن نصر : وقالت طائفة أخرى من أصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء ، الا انهم سموه مسلماً لخروجه من ملل الكفر ولاقراره بالله ، وبما قال ، ولم يسموه مؤمنا ، وزعموا انهم مع تسميتهم اياه بالاسلام كافر ، لا كافر بالله ، ولكن كافر من طريق العمل ، وقالوا : كفر لاينقل عن الملة ، وقالوا : محال أن يقول النبى ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » والكفر ضد الايمان ، فلا يزول عنه اسم الايمان الا واسم الكفر لازم له ، لأن الكفر ضد الايمان ، الا أن الكفر كفران : كفر هو جحد بالله وبما قال ، فذاك ضده الاقرار بالله والتصديق به وبما قال ، وكفر هو عمل ضد الايمان الذى هو عمل ، ألا ترى الى ماروى عن النبى ﷺ انه قال : « لايؤمن من لايأمن جاره بوائقه » قالوا : فاذا لم يؤمن فقد كفر ، ولايجوز غير ذلك الا أنه كفر من جهة العمل ، اذ لم يؤمن من جهة العمل ، لأنه لايضيع ما فرض عليه ويركب الكبائر الا من قلة خوفه ، وانما يقل خوفه من قلة تعظيمه لله ووعيده ، فقد ترك من الايمان التعظيم الذى صدر عنه الخوف والورع عن الخوف (١) ، فأقسم النبى ﷺ انه لايؤمن اذا لم يأمن جاره بوائقه .

ثم قد روى جماعة عن النبى ﷺ انه قال : « سباب المسلم فسوق وقتاله

---

(١) أى صدر الورع عن الخوف .
(٢) أخرجه الشيخان .

كفر » (٢) وانه قال : « اذا قال المسلم لأخيه : ياكافر ولم يكـن كذلك بـاء بالكفر » (٣) فقد سماه النبى ﷺ بقتاله أخاه كافراً وبقوله له : ياكافر كافراً، وهذه الكلمة دون الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، قالوا : فأما قول مـن احتج علينا ، فزعم انا اذا سميناه كافراً لزمنا أن يحكم عليه بحكم الكافريـن بالله ، فنستتيبه ونبطل الحدود عنه ، لأنه اذا كفر فقد زالت عنه أحكام المؤمنين وحدودهم ، وفى ذلك اسقاط الحدود واحكام المؤمنين على كل من اتى كبيرة، فانا لم نذهب فى ذلك الى حيث ذهبوا ولكنا نقول : للايمان أصل وفرع ، وضد الايمان الكفر فى كل معنى ، فأصل الايمان الاقرار والتصديق ، وفرعه اكمال العمل بالقلب والبدن ، فضد الاقرار والتصديق الذى هو أصل الايمان ، الكفر بالله وبما قال ، وترك التصديق به وله ، وضد الايمان الذى هو عمل ، وليس هو اقراراً ، كفر ليس بكفر بالله ينقل عن الملة ، ولكن كفر تضييع العمل ، كما كان العمل ايماناً ، وليس هو الايمان الذى هو اقرار بالله ، فلما كان من ترك الايمان الذى هو اقرار بالله كافراً ، يستتاب ، ومن ترك الايمان الذى هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم ، أو ترك الورع عن شرب الخمر والزنا ، قد زال عنه بعض الايمان ، ولا يجب أن يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من أهـل السنة وأهل البدع ممن قال : ان الايمان تصديق وعمل ، الا الخوارج وحدها، فكذلك لايجب بقولنا : كافر من جهة تضييع العمل أن يستتاب ، ولا تزول عنه الحدود ، كما لم يكن بزوال الايمان الذى هو عمل استتابة ، ولا ازالة الحدود عنه ، اذ لم يزل أصل الايمان عنه ، فكذلك لايجب علينا استتابته وازالـة الحدود والأحكام عنه باثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل ، اذ لم يأت بأصل الكفر الذى هو جحد بالله أو بما قال .

قالوا : ولما كان العلم بالله ايماناً ، والجهل به كفـراً ، وكان العمـل بالفرائض ايماناً ، والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر ، لأن اصحاب رسول الله ﷺ قد أقروا بالله أول ما بعث الله رسوله اليهم صلى الله عليه وسلم اليهم،

(٣) أخرجه الشيخان .

ولم يعلموا الفرائض التي افترضت عليهم بعد ذلك ، فلم يكن جلههم بذلك كفراً ، ثم أنزل الله عليهم هذه الفرائض ، فكان اقرارهم بها والقيام بها ايمانا وانما يكفر من جحدها لتكذيبه خبر الله ، ولو لم يأت خبر من الله ، ما كان يجهلها كافراً ، وبعد مجيء الخبر ، من لم يسمع بالخبر من المسلمين ، لم يكن يجلهلها كافراً ، والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر .

قالوا : فمن ثم قلنا : ان ترك التصديق بالله كفر ، وان ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبها كفر ، ليس بكفر الله ، انما هو كفر من جهة ترك الحق ، كما يقول القائل : كفرتني حقي ونعمتي ، يريد : ضيعت حقي وضيعت شكر نعمتي ، قالوا : ولنا في هذا قدوة بمن روى عنهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ، اذ جعلوا للكفر فروعاً دون أصله ، لاينقل صاحبه عن ملة الاسلام ، كما أثبتوا للايمان من جهة العمل فروعاً للأصل لاينقل تركه من ملة الاسلام ، من ذلك قول ابن عباس في قوله : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) [ المائدة : ٤٧ ] قال محمد بن نصر : حدثنا ابن يحيى ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن هشام يعني ابن حجير ، عن طاووس ، عن ابن عباس : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) ليس بالكفر الذي يذهبون اليه (١) .

حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس ، عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) قال : هي به كفر ، قال ابن طاووس . وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله (١) .

حدثنا اسحاق ، أنبأنا وكيع ، عن سفيان ، عن معمر ، عن ابن طاووس عن أبيه ، عن ابن عباس قال : هو به كفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته

(١) قلت : وهذا اسناد صحيح .
(١) اسناده صحيح أيضاً .

وكتبه ورسوله (٢) ، وبه أنبأنا وكيع عن سفيان ، عن معمر ، عن ابن طاووس عن أبيه قال : قلت لابن عباس : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله ) فهو كافر ؟ قال: هو به كفر ، وليس كمن بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله (٣) .

حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن سفيان ، عن رجل ، عن طاووس ، عن ابن عباس قال : كفر لاينقل عن الملة .

حدثنا اسحاق ، انبأنا وكيع ، عن سفيان ، عن سعيد المكي ، عن طاووس قال : ليس بكفر ينقل عن الملة .

حدثنا اسحاق ، انبأنا وكيع ، عن ابن جريج ، عن عطاء قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

قال محمد بن نصر : قالوا : وقد صدق عطاء ، قد يسمى الكافر ظالماً ، ويسمى العاصي من المسلمين ظالماً ، فظلم ينقل عن ملة الاسلام ، وظلم لاينقل ، قال الله تعالى : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ) [ الانعام : ٨٢ ] وقال : ( ان الشرك لظلم عظيم ) [ لقمان : ١٣ ] وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال : لما نزلت : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ) شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ قال رسول الله ﷺ : ليس بذلك ، الم تسمعوا الى قول العبد الصالح : ( ان الشرك لظلم عظيم انما هو الشرك .

حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا الحجاج بن المنهال ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد (١) عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان اذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ ، فدخل ذات يوم فقرأ ، فأتى على

---

(٢) صحيح أيضاً .
(٣) صحيح .
(١) هو ابن جدعان ، وفيه ضعف .

هذه الاية ( الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ) الى آخر الاية ، فانتعل وأخذ رداءه ، ثم أتى أبى بن كعب ، فقال : يا أبا المنذر اتيت قبل على هذه الاية ( الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ) وقد ترى انا نظم ونفعل ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ان هذا ليس بذلك ، يقول الله : ( ان الشرك لظلم عظيم ) [ لقمان : ١٣ ] انما ذلك الشرك .

قال محمد بن نصر : وكذلك الفسق فسقان : فسق ينقل عن الملة ، وفسق لا ينقل عن الملة فيسمى الكافر فاسقا ، والفاسق من المسلمين فاسقا، ذكر الله ابليس فقال : (ففسق عن أمر ربه ) [ الكهف : ٥١ ] وكان ذلك الفسق منه يريد الكفار ، دل على ذلك قوله : ( كلما أرادوا ان يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى ينتم به تكذبون ) [ السجدة : ٢٠ ] وسمى القاذف من المسلمين فاسقا ولم يخرجه من الاسلام ، قال الله تعالى : ( والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ) [ النور : ٤ ] وقال تعالى : ( فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ) [ البقرة : ١٩٧ ] فقالت العلماء فى تفسير الفسوق هاهنا : هى المعاصى .

قالوا : فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين ، كذلك الكفر كفران : احدهما ينقل عن الملة ، والاخر لا ينقل عن الملة ، وكذلك الشرك شركان : شرك فى التوحيد ينقل عن الملة ، وشرك فى العمل لا ينقل عن الملة ، وهو الرياء قال تعالى : ( فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ) [ الكهف : ١١٠ ] يريد بذلك المراءاة بالاعمال الصالحة ، وقال النبى ﷺ : « الطيرة شرك » .

قال محمد بن نصر : فهذان مذهبان هما فى الجملة محكيان عن أحمد ابن حنبل فى موافقيه من اصحاب الحديث ، حكى الشالنجى اسماعيل بن سعيد انه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده ، الا انه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام ، هل يكون مصرا من كانت هذه حاله ؟

قال : هو مصر ، مثل قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » يخرج من الايمان ويقع فى الاسلام ، ومن نحو قوله : « لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ومن نحو قول ابن عباس فى قوله : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) [ المائدة : ٤٧ ] فقلت له : ما هذا الكفر ؟ فقال : كفر لا ينقل عن الملة ، مثل الايمان بعضه دون بعض ، وكذلك الكفـــر حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه . وقال ابن أبى شــيبة : لا يزنى حــين يزنى وهو مؤمن : لا يكون مستكمل الايمان ، يكون ناقصا من ايمانه قال : وسألت أحمد بن حنبل عن الاسلام والايمان ؟ فقال : الايمان قول وعمل ، والاسلام اقرار ، قال : وبه قال أبو خيثمة ، وقال ابن أبى شيبة : لايكون الاسلام الا بايمان ، ولا ايمـــان الا باســـلام (١) .

قلت : وقد تقدم تمام الكــلام بتلازمهما وان كان مسمى احــدهما ليس هو مسمى الاخر ، وقد حكى غير واحد اجماع أهل السنة والحديث على ان الايمان قول وعمـــل .

قال ابو عمر بن عبد البر فى « التمهيد » : اجمع اهل الفقــه والحديث على أن الايمان قول وعمل ، ولا عمل الا بنية ، والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والطاعات كلها عندهم ايمان ، الا ما ذكر عن ابى حنيفة وأصحابه ، فانهم ذهبوا الى أن الطـــاعات لا تسمى ايمانا ، قالوا ، انمـــا الايمان التصديق والاقرار ، ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به ... الى أن قـــال :

وأما سائر الفقهاء من أهل الراى والاثار بالحجاز والعراق والشـــام ومصـــر ، منهم مالـــك بن انس ، والليث بن ســـعد ، وسفيان الثـــورى ، والاوزاعى ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، واســـحاق بن راهويه ، وأبو

---

(١) أنظر كتاب الصلاة ورقة ١١٥ ، ١٢٠ لابن نصر المروزى . .

عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن علي والطبرى ، ومن سلك سبيلهم فقالوا: الايمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الاقرار ، واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة . قالوا : وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة ، فهو من الايمان ، والايمان يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصى ، وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملى الايمان من اجل ذنوبهم ، وانما صاروا ناقصى الايمان بارتكابهم الكبائر ، الا ترى الى قول النبى ﷺ « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ... الحديث يريد مستكمل الايمان ، ولم يرد به نفى جميع الايمان عن فاعل ذلك ، بدليل الاجماع على توريث الزانى والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة ، وانتحلوا دعوة الاسلام ، ومن قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الاحوال ، واحتج على ذلك ثم قال : وأكثر أصحاب مالك على أن الايمان والاسلام شئ واحد .

قال : وأما قول المعتزلة ، فالايمان عندهم جماع الطاعات ، ومن قصر منها عن شئ فهو فاسق ، لا مؤمن ولا كافر ، وهؤلاء هم المتحققون بالاعتزال أصحاب المنزلة بين المنزلتين ... الى ان قال : على أن الايمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، وعليه جماعة أهل الاثار ، والفقهاء من اهل الفتيا فى الامصار ، وروى ابن القاسم عن مالك ان الايمان يزيد ، وتوقف فى نقصانه ، وروى عنه عبد الرزاق ومعن بن عيسى ، وابن نافع أنه يزيد وينقص ، وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث ، والحمد لله .

ثم ذكر حجج المرجئة ، ثم حجج أهل السنة ، ورد على الخوارج التفكير بالحدود المذكورة للعصاة فى الزنا والسرقة ، ونحو ذلك ، وبالموارثة ، وبحديث عبادة : « من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة » وقال : الايمان مراتب ، بعضها فوق بعض ، فليس ناقص الايمان ككامل الايمان ، قال الله تعالى : ( انما المؤمنون الذين ذكر الله وجلت قلوبهم ) [ الانفال : ٢ ] اى حقا ، ولذلك قال : ( هم المؤمنون حقا ) [ الانفال : ٤ ] وكذلك قوله ﷺ : « المؤمن من أمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من

لسانه ويده » — يعنى حقا — ومن هذا قوله : « اكمل المؤمنين ايمـــانا » . ومعلوم ان هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص !

وقوله : « أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله » . وقوله : « لا ايمان لمن لا أمانة له » (١) ، يدل على أن بعض الايمان أوثق وأكمـــل من بعض ، وذكر الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « من أحب للـــه وأبغض لله » الحديث (٢) وكذلك ذكر ابو عمر الطلمنكى اجماع أهل السنة على أن الايمان قول وعمل ونية واصابة السنة .

وقال ابو طالب المكى : مبانى الاسلام الخمسة : يعنى الشـــهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة ، وصيام شهر رمضان ، والحج ، قال : وأركان الايمان سبعة : يعنى الخمسة المذكورة فى حديث جبرائيل ، والايمان بالقـــدر بالجنة والنار ، وكلاهما قد رويت فى حديث جبريل كما سنذكـــره ان شـــاء الله تعـــالى .

وقال ابو طالب المكى : مبانى الاسلام الخمسة : يعنى الشـــهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة ، وصـــيام شهر رمضان ، والحـــج ، قال : وأركان الايمان سبعة : يعيى الخمسة المذكورة فى حديث جبرائيل ، والايمان بالجنة والنار ، وكلاهما قد رويت فى حديث جبريل كما سنذكره ان شاء الله تعـــــالى .

قال : والايمـــان بأسماء الله تعـــالى وصفاته ، والايمـــان بكتب الله وانبيائه ، والايمان بالملائية والشـــياطين ، يعيى — والله أعلم لله الايمـــان بالفرق بينهما ، فان من الناس من يجعلهمـــا جنسا واحدا ، ولكـــن تختلف باختلاف الاعمال ، كما يختلف الايسان البر والفاجر ، والايمان بالجنة والنار ،

---

(١) هذه الاحاديث صحيحة ، وقد مضى الاولان منهما .

(٢) وهو صحيح ، فانه عند الترمذى عن معاذ بن أنس وحسنه ، وعند أبى داود عن أبى أمامه .

وانهما قد خلقتنا قبل آدم . والايمان بالبعث بعد الموت ، والايمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، أنها من الله قضاء وقدرا ومشيئة وحكما ، وأن ذلك عدل منه ، وحكمة بالغة ، استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها .

قال : وقد قال قائلون : ان الايمان هو الاسلام ، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات ، وهذا يقرب من مذهب المرجئة ، وقال آخرون : ان الاسلام غير الايمان وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير ، وهذا قريب من قول الاباضية ، فهذه مسألة مشكلة تحتاج الى شرح وتفصيل ، فمثل الاسلام من الايمان ، كمثل الشهادتين احداهما من الأخرى فى المعنى والحكم ،فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان فى الأعيان ، واحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم كشىء واحد ، كذلك الايمان والاسلام أحدهما مرتبط بالآخر ، فهما كشىء واحد ، لا ايمان لمن لا اسلام له ، ولا اسلام لمن لا ايمان له ، اذ لايخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه ، ولايخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الايمان ، واشترط للايمان الاعمال الصالحة فقال فى تحقيق ذلك . ( فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ) [ لأانبياء : ٩٤ ] وقال فى تحقيق الايمان بالعمل ( ومن يؤته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ) [طه:٧٥] فمن كان ظاهره أعمال الاسلام ولايرجع الى عقود الايمان بالغيب ، فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ، ومن كان عقده الايمان بالغيب ، ولا يعمل بأحكام الايمان، وشرائع الاسلام ، فهو كافر كفراً لايثبت معه توحيد ، ومن كان مؤمناً بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لايسمى مسلماً ، ولجاز أن المسلم لايسمى مؤمناً بالله .

وقد اجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن بالله

وملائكته وكتبه قال : ومثل الايمان فى الأعمال كمثل القلب فى الجسم لاينفك أحدهما عن الآخر ، لايكون ذو جسم حى لاقلب له ، ولا ذو قلب بغير جسم، فهما شيئان منفردان ، وهما فى الحكم والمعنى منفصلان ، ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة . لايقال : حبتان : لتفاوت صفتهما ، فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الايمان ،وهو من أعمال الجـوارح ، والايمان باطن الاسلام ، وهو من أعمال القلوب .

وروى (١) عن النبى ﷺ انه قال : « الاسلام علانية ،والايمان فى القلب» وفى لفظ : « الإيمان سر » فالاسلام أعمال الايمان ، والايمان عقود الاسلام، فلا ايمان الا بعمل ، ولا عمل بعقد ، ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن ، أحدهما مرتبط بصاحبه من اعمال القلوب وعمل الجوارح ، ومثله قول رسول الله ﷺ : « انما الأعمال بالنيات » أى : لاعمل الا بعقد وقصد ، لأن « انما » تحقيق للشىء ونفى لما سواه ، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعـاملات ، وعمل القلوب من النيات ، فمثل العمل من الايمان كمثل الشفتين من اللسان لايصح الكلام الا بهما ، لأن الشفتين تجمع الحروف ، واللسان يظهر الكلام ، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام ، وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الايمان ، ولذلك حين عدد الله نعمه على الانسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله : ( ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ) [ البلد : ٨،٩ ] بمعنى ألـم نجعله ناظراً متكلما ، فعبر عن الكلام باللسان والشفتين ، لأنهما مكان له ، وذكر الشفتين لأن الكلام الذى جرت به النعمة لايتم الا بهما .

ومثل الايمان والاسلام أيضاً كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر وأطناب، وله عمود فى باطنه ، فالفسطاط مثل الاسلام ، وله أركان من أعمال العلانية والجوارح ، وهى الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الـذى فى وسط الفسطاط ، مثله كالايمان لاقوام للفسطاط الا به ، فقد احتاج الفسطاط

---

(١) يشير الى تضعيف الحديث وقد سبق منا التصريح بذلـك فى أول الكتـاب .

اليها ، اذ لاقوام له ولا قوة لا بها ، كذلك الاسلام فى أعمال الجوارح لاقوام له الا بالايمان ، والايمان من أعمال القلوب ، لانفع له الا بالاسلام ، وهو صالح الأعمال .

وأيضاً فان الله جعل ضد الاسلام والايمان واحداً ، فلولا أنهما كشىء واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً فقال : ( كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم ) [ آل عمران : ٨٦ ] وقال : ( أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ) [ آل عمران : ٨٠ ] فجعل ضدهما الكفر قال : وعلى مثل هذا اخبر رسول الله ﷺ عن الايمان ، والاسلام من صنف واحد ، فقال فى حديث ابن عمر : « بنى الاسلام على خمس » وقال فى حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس انهم سألوه عن الايمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك على أنه لا ايمان باطن . باسلام ظاهر ولا اسلام ظاهر علانية الا بايمان سر ، وأن الايمان والعمل قرينان لاينفع أحدهما بدون صاحبه .

قال : فأما تفرقة النبى ﷺ فى حديث جبريل بين الايمان والاسلام ، فان ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ماتوجب هذه المعانى التى وصفناها ان تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح مما يوجب الأفعال الظاهرة التى وصفها أن تكون علانية ، لا أن ذلك يفرق بين الاسلام والايمان فى المعنى باختلاف وتضاد ، ليس فيه دليل انهما مختلفان فى الحكم ، قال : ويجتمعان فى عبد واحد مسلم مؤمن ، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه ، وما ذكره من العلانية وصف جسمه .

قال : أيضاً فان الأمة مجتمعه ان العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب فى حديث جبريل من وصف الايمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الاسلام انه لايسمى مؤمناً ، وانه ان عمل بجميع ما وصف به الاسلام ، ثم لم يعتقد ما وصفه من الايمان انه لايكون مسلماً ، وقد أخبر النبى ﷺ ان الأمة لاتجتمع على ضلالة .

قلت : كأنه أراد بذلك اجماع الصحابة ومن اتبعهم ، أو أنه لايسمى مؤمناً فى الأحكام ، وانه لايكون مسلماً اذا أنكر بعض هذه الأركان ، أو علم أن لرسول اخبر بها ولم يصدقه ، أو أنه لم ير خلاف أهل الأهواء خلافاً ، والا فأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم ، وهذا — والله أعلم مراده ، فانه عقد الفصل الثالث والثلاثين فى بيان تفصيل الاسلام والايمان ، وشرح عقود معاملة القلب من مذهب أهل الجماعة ، وهذا الذى قاله أجود مما قاله كثير من الناس ، لكن ينازع فى شيئين : أحدهما : أن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون معه الايمان الواجب المفصل المذكور فى حديث جبريل ، والثانى : أن النبى ﷺ انما ينطلق « مؤمناً » دون « مسلم » فى مثل قول النبى ﷺ : « أو مسلم » لكونه ليس من خواص المؤمنين وأفاضلهم ، كأنه يقول . لكونه ليس من خواص المؤمنين وأفاضلهم ، كأنه يقول . لكونه ليس من السابقين المقربين بل من المقتصدين الأبرار ، فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلماء ، ويقولون : لم يقل النبى ﷺ فى ذلك الرجل « أو مسلم » لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وأفاضلهم كالسابقين المقربين ، فان هذا لو كان كذلك لكان ينفى الايمان المطلق عن الأبرار المقتصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب اذا كانوا من أصحاب اليمين ، ولم يكونوا من السابقين والمقربين ، وليس الأمر كذلك ، بل كل من أصحاب اليمين مع السابقين المقربين ، كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب ، وكل من كان كذلك ، فهو مؤمن باتفاق المسلمين من أهل السنة ، وأهل البدع ، ولو جاز أن ينفى الايمان عن شخص لكون غيره أفضل منه ايماناً ، نفى الايمان عن أكثر أولياء الله المتقين ، بل وعن كثير من الأنبياء ، وهذا فى غاية الفساد ، وهذا من جنس قول من يقول : نفى الاسم لنفى كماله المستحب .

وقد ذكرنا أن مثل هنا لايوجد فى كلام الله ورسوله ، بل هذا الحديث خص من قيل فيه . مسلم وليس بمؤمن ، فلا بد أن يكون ناقصاً عن درجة الأبرار المقتصدين أهل الجنة ، ويكون ايمانه ناقصاً عن ايمان هؤلاء كله فلا يكون قد

اتى بالايمان الذى أمر به هؤلاء كله ، ثم ان كان قادراً على ذلك الايمان وترك الواجب ، كان مستحقاً للذم ، وان قدر أنه لايقدر على ذلك الايمان الذى اتصف به هؤلاء ، كان عاجزاً عن مثل ايمانهم ، ولا يكون هذا وجب عليه ، فهو — وان دخل الجنة — لايكون كمن قدر أنه آمن ايماناً مجملا ومات قبل ان يعلم تفصيل الايمان وقبل أن يتحقق به ويعمل بشىء منه ، فهو يدخل الجنة ، لكن لا يكون مثل أولئك .

لكن قد يقال : الأبرار أهل اليمين هم ايضاً على درجات ، كما فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » (١) وقد قال الله تعالى : ( لايستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر ) [ النساء : ٩٤ ] الآية فدرجة المؤمن القوى فى الجنة اعلى وان كان كل منهما كمل ماوجب عليه ، وقد يريد ابو طالب وغيره بقولهم : ليس هذا من خواص المؤمنين هذا المعنى ، اى ليس ايمانه كايمان من حقق خاصة الايمان سواء كان من الأبرار أو من المقربين ، وان لم يكن ترك واجباً لعجزه عنه أو لكونه لم يؤمر به ( فلا يكون مذموماً ، ولا يمدح أولئك ، ولا يلزم أن يكون من أولئك المقربين .

فيقال : هذا أيضاً لاينفى عنه الايمان ، فيقال : هو مسلم لايؤمن ، كما يقال : ليس بعالم ولا مفت ، ولامن أهل الاجتهاد ، وقد قال النبى ﷺ : « لو انفق أحدكم مثل احد ذهباً ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه » (٢) وهذا كثير ، فليس كل مافضل به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه ، فكذلك من حقائق الايمان مالا يقدر عليه كثير من الناس ، بل ولا أكثرهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة ، وان لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الايمان التى فضل الله بها غيرهم ، ولا تركوا واجباً عليهم وان كان واجباً على غيرهم ، ولهذا كان من الايمان ماهو من المواهب

---

(١) رواه مسلم .
(٢) أخرجه الشيخان .

والفضل من الله ، فانه من جنس العلم والاسلام الظاهر من جنس العمل ، وقد قال تعالى : ( والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ) [ محمد : ١٧ ]

وقال : ( ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ) [ مريم : ٧٧ ] وقال : ( هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً ) [ الفتح : ٤ ] .

ومثل هذه السكينة قد لاتكون مقدورة ، لكن الله يجعل ذلك فى قلبه فضلا منه وجزاء على عمل سابق ، كما قال : ( ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . واذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيما ) [ النساء : ٦٥–٦٧ ] كما قال : ( اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ) [ الحديد : ٢٨ ] وكما قال : ( اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ) [ المجادلة : ٢٢ ] . ولهذا قيل : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم (١) ، وهذا الجنس غير مقدور للعباد وان كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو ايضاً بفضل الله واعانته واقداره لهم ، لكن الأمور قسمان : منه ما جيسنه مقدور لهم لاعانة الله لهم ، كالقيام والقعود ، ومنه ما جنسنه غير مقدور لهم ، اذا قيل : ان الله يعطى من اطاعه قوة فى قلبه وبدنه يكون بها قادراً على مالا يقدر عليه غيره فهذا أيضاً حق وهو من جنس هذا المعنى ، قال تعالى : ( اذ يوحى ربك الى الملائكته أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ) [ الأنفال : ١٢ ] وقد قال : ( اذا لقيتم فئة فاثبتوا ) [ الأنفال : ٤٦ ] فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحى الى الملائكته أنهم يفعلونه بالمؤمنين .

والمقصود أنه قد يكون من الايمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه ، ولا يذم عليه بعض الناس ممن لايقدر عليه ، ويفضل الله ذاك بهذا الايمان ، وان لم يكن المفضول ترك واجباً ، فيقال : وكذلك فى الأعمال الظاهرة

---

(١) روى هذا عن عيسى عليه السلام ، ووهم بعض الرواة فرفعه الى النبى ﷺ فى قوله ، واشتهر اليوم على أنه حديث ، ولا أصل له . انظر الأحاديث الضعيفة ( رقم ٤٢١ ) .

يؤمر القادر على الفعل بما لايؤمر به العاجز عنه ، ويؤمر بعض الناس بما لايؤمر به غيره ، لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الانسان مثل أجر العامل اذا كان يؤمن بها ويريدها جهده ، ولكن بدنه عاجز كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « ان بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً الا كانوا معكم» قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حبسهم العذر » (١) كما قال تعالى: ( لا يسوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم على القاعدتن درجة ) [ النساء : ٩٤ ] فاستثنى أولى الضرر .

وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ انه قال : « من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » .

وفى حديث ابى كبشة الانمارى : « هما فى الأجر سواء ، وهما فى الوزر سواء » ، رواه الترمذى وصححه ولفظه : « انما الدنيا لأربعة : رجل آتاه الله علماً ومالا فهو يتقى فى ذلك المال ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً يخبط فى ماله بغير علم ، لايتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا باخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته ، فوزرهما سواء » .

ولفظ ابن ماجة : «مثل الامة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالا وعلماً

---

(١) متفق عليه .

فهو يعمل بعمله فى ماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا ، فهو يقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل » ، قال رسول الله ﷺ : « فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً ، فهو يختبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته علماً ولا مالا وهو يقول : لو كان لى مثل مال عملت مثل الذى يعمل ، فهما فى الوزر سواء » .

كالشخصين اذا تماثلا فى ايمان القلوب معرفة وتصديقا وحبا وقوة وحالا ومقاماً ؛ فقد يتماثلان ، وان كان لأحدهما من أعمال البدن مايعجز عنه بدن الآخر ، كما جاء فى الأثر : ان المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه ، والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « ليس الشديد ذا الصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (١) وقد قال : « رأيت كأنى أنزع على قليب ، فأخذها ابن أبى قحافة ، فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ، فأخذها ابن الخطاب ، فاستحالت فى يده غرباً ، فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى صدر الناس بعطن »(٢) فذكر أن ابا بكر اضعف ، وسواء أراد قصر مدته او أراد ضعفه عن مثل قوة عمر ، فلا ريب أن ابا بكر أقوى ايماناً من عمر ، وعمر اقوى عملا منه ، كما قال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر ، وقوة الايمان أقوى واكمل من قوة العمل ، وصاحب الايمان يكتب له اجر عمل غيره ، وما فعله عمر فى سيرته مكتوب مثله لأبى بكر ، فانه هو الذى استخلفه .

وفى « المسند » من وجهين (٣) عن النبى ﷺ أن النبى صلى الله عليه وسلم وزن بالأمة فرجح ، ثم وزن أبو بكر الأمة فرجح ، ثم وزن عمر بالامة فرجح ، وكان فى حياة النبى ﷺ وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبى بكر من

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .
(٣) بل من ثلاثة وجوه : الأول عن ابن عمر ( ٧٦/٢ ) والثانى : عن أبى بكرة ( ٥/٤٤ــ٥٠ ) وهو عند أبى دواد من طريقين عنه ( ٤٦٣٤ــ٤٦٣٥ ) والثالث : عن أبى امامة ( ٢٥٩/٥ ) فالحديث صحيح .

الايمان والعلم مالم يكن عنده ، فهو دعاه الى ما فعله من خير وأعانه عليه بجهده ، والمعين على الفعل اذا كان نريده ارادة جازمة كان كفاعله ، كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا (١) ، وقال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وقال : « من فطر صائماً فله مثل أجره » (١) .

وقد روى الترمذى « من عزى مصاباً فله مثل أجره » (٢) وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان فى الأعمال الظاهرة ، بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها افضل عند الله من الآخر ، لأنه أفضل فى الايمان الذى فى القلب، واما اذا تفاضلا فى ايمان القلوب ، فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله البتة، وان كان المفضول لم يهبه الله من الايمان ما وهبه للفاضل ، ولا اعطى قلبه من الأسباب التى بها ينال ذلك الايمان الفاضل ما أعطى المفضول ، ولهذا فضل الله بعض النبين على بعض ، وان كان الفاضل أقل عملا من المفضول ، كما فضل الله نبينا ﷺ — ومدة نبوته بضع وعشرون سنه — على نوح وقد لبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاماً ، وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر الى المغرب على من عمل من أول النهار الى صلاة الظهر ، وعلى من عمل من صلاة الظهر الى العصر فأعطى الله أمة محمد أجرين ، واعطى كلا من أولئك أجراً اجراً ، لأن الايمان الذى فى قلوبهم كان أكمل وأفضل ، وكان أولئك اكثر عملا ، وهؤلاء أعظم أجراً ، وهو فضله يؤته من يشاء بالأسباب التى تفضل بها عليهم وخصهم بها .

وهكذا سائر من يفضله الله تعالى ، فانه يفضله بالأسباب التى يستحق بها التفضيل بالجزاء ، كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم ، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والاخلاص ، وغير ذلك مما فضله الله به ، وانما فضله فى الجزاء بما فضل به من الايمان ، كما قال تعالى : ( وقالت

---

(١) هذه الأحاديث صحيحة .

(٢) اسناده ضعيف .

طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا وآخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ، قل ان الهدى هدى الله ان يؤتى أحد مثل ما أوتيم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيــد الله ) [ آل عمران : ٧٣ ] وقال فى الآية الأخرى : ( الله أعلم حيث يجعل رسالتــه ) [ الأنعام : ١٢٤ ] وقال : ( الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن النــاس ) [ الحج : ٧٥ ] وقال : ( يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ) [ آل عمران: ١٢٩ ]

وقد بين فى مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب ، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب ، وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق .

واذا كان من الايمان ما يعجز عنه كثير من الناس ، ويختص الله به من يشاء ، فذلك مايفضلهم الله به ، وذلك الايمان ينفى عن غيرهم ،لكن لاعلــى وجه الذم ، بل على وجه التفضيل ، فان الذم انما يكون على ترك مأمور أو فعل محظور ، لكن على ما ذكره ابو طالب ، يقال : فمثل هؤلاء مسلمون ، لامؤمنون باعتبار ، ويقال : انهم مؤمنون باعتبار آخر ، وعلى هذا ينفى الايمان عمــن ماته الكمال المستحب ، بل الكمال الذى يفضل به على من فاته ، وان كان غير مقدور للعباد ، بل ينفى عنه الكمال الذى وجب على غيره ، وان لم يكــن فى حقه لاواجباً ولا مستحباً ، لكن هذا لايعرف فى كلام الشارع ، ولم يعــرف فى كلامه الا أن نفى الايمان يقتضى الذم حيث كان ، فلان ينفى الا عمن له ذنب فنبين أن قوله : « أو مسلم » توقف فى أداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس .

ثم طائفة يقولون : قد يكون منافقاً ليس معه شىء من الايمان ، وهم الذين يقولون : الأعراب المذكورون منافقون ليس معهم من الايمان شىء ،وهذا هو القول الذى نصره طائفة ، كمحمد بن نصر ، والأكثرون يقولون : بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لايقبل منهم شىء من أعمالهم ، وان كان فيهــم شعبة نفاق ، بل كان معهم تصديق يقبل معه منهم ماعملوه لله ، ولهذا جعلهم مسلمين ، ولهذا قال : ( أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين ) [ الحجرات: ١٧ ]

كما قالوا مثل ذلك فى الزانى والسارق وغيرهما ممن نفى عنه الايمان ، مع أن معه التصديق ، وهذا أصح الأقوال الثلاثة فيهم .

وابو طالب جعل من كان مذموماً لترك واجب من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئاً ، وجعل ذلك الشخص مؤمنا غيره افضل منه ، وأما الأكثرون فيقولون : اثبات الاسلام لهم دون الايمان كاثباته لذلك الشخص ، كان مسلماً لا مؤمناً كلاهما مذموم ، لا لمجرد أن غيره افضل منه ، وقد قال النبى ﷺ : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً » (١) ولم يسلب عمن دونه الايمان . وقال تعالى : ( لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ) [الحديد: ١٠]

فاثبت الايمان للفاضل والمفضول ، وهذا متفق عليه بين المسلمين . وقد قال النبى ﷺ : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان اجتهد فأخطأ فله أجر » (١) ، وقال لسعد بن معاذ لما حكم فى بنى قريظة : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة » (٢) وكان يقول لمن يرسله فى جيش أو سرية : « اذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، فانك لاتدرى ما حكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » (٣) . وهذه الأحاديث الثلاثة فى « الصحيح » ، وفى حديث سليمان عليه السلام : « وأسألك حكماً يوافق حكمك » (٤) .

فهذه النصوص وغيرها تدل على ما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان أن أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهاد يحصل له به من العلم ما يعجز عنه غيره فيكون له أجران ، وذلك الآخر عاجزا له أجر ولا اثم عليه ،

---

(١) حديث صحيح اخرجه الترمذى وغيره .
(١) رواه البخارى .
(٢) أخرجه الشيخان ، وأرقعة جمع رقيع وهو اسم كل سماء .
(٣) رواه مسلم .
(٤) وهو حديث صحيح فى « المسند » ( ١٨٦/٣ ) والنسائى وغيرهما .

وذلك العلم الذى خص به هذا ، والعمل به باطناً وظاهراً زيادة فى ايمانه ، وهو ايمان يجب عليه ، لأنه قادر عليه ، وغيره عاجز عنه فلا يجب ، فهذا قد فضل بايمان واجب عليه ، وليس بواجب على من عجز عنه .

وهذا حال جميع الأمة فيما تنازعت فيه من المسائل الخبرية والعملية ، اذا خص احدهما بمعرفة الحق فى نفس الأمر مع اجتهاد الآخر وعجزه ، كلاهما محمود مثاب مؤمن ، وذلك خصه الله من الايمان الذى وجب عليه بما فضله به على هذا ، وذلك المخطىء لايستحق ذماً ولا عقاباً ، وان كان ذاك لو فعل ما فعل ذم وعوقب ، كما خص الله أمة نبينا بشريعة فضلها به ، ولو تركنا مما أمرنا به فيها شيئاً ، لكان ذلك سبباً للذم والعقاب ،والأنبياء قبلنا لايذمون بترك ذلك ، لكن محمداً ﷺ فضله الله على الأنبياء وفضل امته على الامم من غير ذم لأحد من الانبياء ، ولا لمن اتبعهم من الامم .

وأيضاً فاذا كان الانسان لايجب عليه من الايمان الا مايقدر عليه ، وهو اذا فعل ذلك كان مستحقاً لما وعد الله به من الجنة ، فلو كان مثل هذا يسمى مسلماً ولا يسمى مؤمناً ، لوجب أن يكون من أهل الوعد بالجنة من يسمى مسلماً لا مؤمناً كالأعراب ، وكالشخص الذى قال فيه النبى ﷺ : «أو مسلم» وكسائر من نفى عنه الايمان مع أنه مسلم ، كالزانى ، والشارب ، والسارق، ومن لايأمن جاره بوائقه ، ومن لايحب لأخيه من الخير مايحب لنفسه ، وغير هؤلاء ، وليس الأمر كذلك ، فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان ، لم يعلقه باسم الاسلام مع ايجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه ، وأنه لايقبل ديناً غيره ، ومع هذا فما قال : ان الجنة اعدت للمسلمين ، ولا قال : وعد الله المسلمين بالجنة ، بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار ) [ التوبة : ٧٢ ] فهو يعلقها باسم الايمان المطلق ، أو المقيد بالعمل الصالح ، كقوله : ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ) [ البينة :٧،٨ ] وقوله : ( وبشر الذين آمنوا

وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ) [ البقرة : ٢٥ ] وقوله : ( ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) [ البقرة : ٢٧٧ ] وقوله : ( فأما الذين آمنوا وعملوا الصالات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ) [ النساء : ١٧٣ ] . وقوله : ( فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ) [ النساء : ١٧٥ ] وقوله : ( والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليا ) [ النساء ٥٧ ] وفى الآية الأخرى : ( ومن أصدق من الله قيلا ) [ النساء : ١٢١ ] وقال : ( وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين ) [ آل عمران : ٥٧ ] وقال: ( وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ) [ المائدة : ٩ ] وقال : ( فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) [ الأنعام ٤٨ ] وقال : ( والذين آمنوا وعلموا الصالحات لانكلف نفساً الا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ) [ الأعراف : ٤٢ ] والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة ، وبالسلامة من العذاب ، علق باسم الايمان المطلق ، والتقيد بالعمل الصالح ، ونحو ذلك ، وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ، ولم يعلق باسم الاسلام فلو كان من أتى من لاايمان بما يقدر عليه ، وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لا مؤمناً ، لكان من أهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمي مسلماً وان لم يسم مؤمناً ، وليس الأمر كذلك ، بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان ، وهذا أيضاً مما استدل به من قال : انه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة، اذ لو كان الأمر كذلك ، لكان وعد الجنة معلقا باسم الاسلام ، كما علق باسم الايمان ، وكما علق باسم « التقوى » واسم « البر » فى مثل قوله ( ان المتقين

فى جنات ونهر ) [ القمر : ٥٤ ] وقوله : ( ان الابرار لفى نعيم ) [ الانفطار : ١٣ ] وباسم أولياء الله ، كقوله : ( الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ) [ يونس : ٦٢—٦٤ ] فلما لم يجر اسم الاسلام هذا المجرى ، علم أن مسماه ليس ملازماً لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله ، وان اسم « الاسلام » يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثبته على طاعته ، مثل أن يكون فى قلبه ايمان ، ونفاق يستحق به العذاب ، فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار ، لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من ايمان .

وهكذا سائر أهل الكبائر ايمانهم ناقص ، واذا كان فى قلب احدهم شعبة نفاق عوقب بها اذا لم يعف الله عنه ، ولم يخلد فى النار ، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم ايمان ، لكن معهم أيضاً ما يخالف الايمان من النفاق ، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين ، لاسيما ان كانوا للكفر أقرب منهم للايمان ، وهؤلاء يدخلون فى اسم الايمان فى احكام الدنيا ، كما يدخل المنافق المحض وأولى ، لأن هؤلاء معهم ايمان يدخلون به فى خطاب الله بـ ( ياأيها الذين آمنوا ) ، لأن ذلك أمر لهم بما ينفعهم ، ونهى لهم عما يضرهم ، وهم محتاجون الى ذلك ، ثم ان الايمان الذى معهم ان اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم ، فلا كلام ، والا فليس بأسوا حالا من المنافق المحض ، وذلك المنافق يخاطب بهذه الأعمال وتنفعه فى الدنيا ، ويحشر بهامع المؤمنين يوم القيامة ، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها فى الدنيا ، لكن وقت الحقيقة يضرب ( بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى،حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور،فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولامن الذين كفروا،مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) [الحديد:١٣— ١٥ ] وقد قال تعالى : ( ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم

نصيراً الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ) [ النساء : ١٤٤-١٤٥ ] .

فاذا عمل العبد صالحاً لله ، فهذا هو الاسلام الذى هو دين الله ،ويكون معه من الايمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة ، ثم ان كان معه من الذنوب ما يعذب به ، عذب وأخرج من النار ، اذا كان فى قلبه مثقال حبة خردل من ايمان ، وان كان معه نفاق ، ولهذا قال تعالى فى هؤلاء : ( فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما ) [ النساء : ١٤٥ ] فلم يقل: انهم مؤمنون بمجرد هذا ، اذ لم يذكر الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل هم معهم ، وانما ذكر العمل الصالح واخلاصه لله ، وقال : (فأولئك مع المؤمنين) فيكون لهم حكمهم .

وقد بين تفاضل المؤمنين فى مواضع أخر ، أنه من أتى بالايمان الواجب استحق الثواب ، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر ، فذاك من أهل الوعيد ، وايمانه ينفعه الله به ، ويخرجه به من النار ولو انه مثقال حبه خردل، لكن لايستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب ، وتمام هذا أن الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق ، ويسمى مسلماً ، كما نص عليه أحمد .

وتمام هذا أن الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الايمان ، وشعبة من شعب النفاق ، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الاسلام بالكلية ، كما قال الصحابة (١) : ابن عباس وغيره : كفر دون كفر: وهذا قول عامة السلف ، وهو الذى نص عليه أحمد وغيره ممن قال فى السارق ، والشارب ، ونحوهم ، ممن قال فيه النبى ﷺ : « انه ليس بمؤمن » انه يقال لهم : مسلمون لا مؤمنون ، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفى اسم الايمان ، مع اثبات اسم الاسلام ، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر

(١) وعلى هامش النسخة الهندية : أصحاب ابن عباس .

لا ينقل عن الملة ، بل كفر دون كفر ، كما قال ابن عباس وأصحابه فى قوله: ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) [ المائدة : ٤٧ ] قالوا :كفر لاينقل عن الملة ، وكفر دون كفر ، وفسق دون فسق ، وظلم دون ظلم .

وهذا أيضاً مما استشهد به البخارى فى « صحيحه » فان كتاب «الايمان» الذى افتتح به « الصحيح » قرر مذهب أهل السنة والجماعة ، وضمنه الرد على المرجئة ، فانه كان من القائمين بنصر السنة والجماعة مذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وقد اتفق العلماء على أن اسم المسلمين فى الظاهر يجرى على المنافقين، لأنهم استسلموا ظاهراً ، وأتوا بما أتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة ، والزكاة الظاهرة ، والحج الظاهر ، والجهاد الظاهر ، كما كان النبى يجرى عليهم أحكام الاسلام الظاهر ، واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الايمان فهو كما قال الله تعالى : ( ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ) [ النساء : ١٤٤ ] ، وفيها قراءتان : درك ودرك قال أبو الحسين بن فارس : الجنة درجات ، والنار دركات ، قال الضحاك : الدرج : اذا كان بعضها فوق بعض ، والدرك : اذا كان بعضها أسفل من بعض ، فصار المظهرون للاسلام بعضهم فى أعلى درجة فى الجنة وهو رسول الله ﷺ كما قال فى الحديث الصحيح : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم سلوا لى الله الوسيلة ، فانها درجة فى الجنة لاتنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة يوم القيامة » (١) وقوله ﷺ : « وأرجو أن أكون » مثل قوله : « انى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده » (١) ولا ريب انه أخشى الأمة لله وأعلمهم بحدوده .

---

(١) رواه مسلم فى « صحيحه »بأتم منه .

(١) رواه مسلم أيضاً ( ١٣٨/٣ ) بلفظ : « وأعلمكم بما أتقى » وسعيده المؤلف بتمامه .

كذلك قوله : « اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى غائلة ان شاء الله من مات لايشرك بالله شيئاً » . (٢) وقوله : « انى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » وأمثال هذه النصوص ، وكان يستدل به أحمد وغيره على الاستثناء فى الايمان كما نذكره فى موضعه .

والمقصود انه خير المؤمنين فى اعلى درجات الجنة ، والمنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وان كانوا فى الدنيا مسلمين ظاهراً تجرى عليهم أحكام الاسلام الظاهر ، فمن كان فيه ايمان ونفاق يسمى مسلماً ، اذ ليس هو دون المنافق المحض ، واذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الايمان ، بل اسم المنافق احق به ، فان ما فيه بياض وسواد وسواده اكثر ، هو باسم الأسود أحق منه باسم الأبيض ، كما قال تعالى : ( هم للكفر يؤمئذ اقرب منهم للايمان ) [ آل عمران : ١٦٦ ] وأما اذا كان ايمانه اغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد، لم يكن أيضاً من المؤمنين الموعودين بالجنة ، وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن أحمد ، ولم أراه أنا فيما بلغنى من كلام احمد ، ولا ذكره الخلال ونحوه وقال محمد بن نصر : وحكي غير هذا عن احمد انه قال : من أتى هذه الأربعة: الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، والنهبة التى يرفع فيها الناس ابصارهم اليه ، أو مثلهن أو فوقهن ، فهو مسلم ولا اسميه مؤمناً ، ومن إتى دون الكبائر نسميه مؤمناً ناقص الايمان ، فان صاحب هذا القول يقول : لما نفى عنه النبى ﷺ الايمان ، نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرسول لم ينفه الا عن صاحب كبيرة ، والا فالمؤمن الذى يفعل الصغير هى مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه الكبائر ، لكنه ناقص الايمان عمن اجتنب الصغائر، فما اتى بالايمان الواجب ولكن خلطه بسيئات كفرت عنه بغيرها ، ونقص بذلك درجه عمن لم يأت بذلك .

وأما الذين نفى عنهم الرسول الايمان ، فنفيه كما نفاه الرسول ، وأولئك

---

(٢) متفق عليه وكذا الذى بعده .

وان كان معهم التصديق واصل الايمان — فقد تركوا منه ما استحقوا لأجلـه سلب الايمان ، وقد يجتمع فى العبد نفاق وايمان ، وكفر وايمان فالاسمان المطلق عند هؤلاء ما كان مستحقاً للوعد بالجنة .

وطوائف اهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة ، والجهمية ، والمرجئة ، كراميهم وغير كراميهم يقولون : انه لايجتمع فى العبد ايمان ونفاق ، ومنهم من يدعى الاجماع على ذلك ، وقد ذكر ابو الحسن فى بعض كتبه الاجماع علـى ذلك ، ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة ، وآثار الصحابـة والتابعين لهم باحسان مع مخالفة صريح المعقول ، بل الخوارج والمعتزلـة طردوا هذا الأصل الفاسد ، وقالوا : لايجتمع فى الشخص الواحد طاعـة يستحق بها الثواب ، ومعصية يستحق بها العقاب ، ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من وجه ، ولا محبوبا مدعواً له من وجه ، مسخوطاً محبوداً من وجه مذموماً من وجه ، ولا محبوبا مدعواً له من وجه ، مسخوطا عندهم ، بل من دخل احداهما لم يدخل الأخرى عندهم ، ولهذا انكروا خروج أحد من النار ، أو الشفاعة فى أحد من أهل النار . وحكى عن غالية المرجئة أنهم وافقوهم على هذا الأصل ، لكن هؤلاء قالوا : ان أهل الكبائر يدخلـون الجنة ولايدخلون النار مقابلة لأولئك .

وأما اهل السنة والجماعة ، والصحابة ، والتابعون لهم باحسان ، وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئـة الفقهاء ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية ، والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم ، فيقولون : ان الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ، ثم يدخله الجنة ، كمـا نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة ، وهذا الشخص الذى له سيئات عذب بها ، وله حسنات دخل بها لجنة ، وله معصية وطاعة باتفاق هؤلاء الطوائف لـم يتنازعوا فى حكمه ، لكن تنازعوا فى اسمه ، فقالت المرجئة : جهميتهم وغـير جهميتهم : هو مؤمن كامل الايمان ، وأهل السنة والجماعة على انه مؤمـن ناقص الايمان ولولا ذلك لما عذب ، كما انه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين

وهل يطلق عليه اسم مؤمن ؟ هذا فيه القولان ، والصحيح التفصيل ، فاذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه فى الكفارة ، قيل : هو مؤمن ، وكذلك اذا سئل عن دخوله فى خطاب المؤمنين .

وأما اذا سئل عن حكمه فى الآخرة ، قيل : ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة ، بل معه ايمان يمنعه الخلود فى النار ويدخل به الجنة بعد أن يعذب فى النار ان لم يغفر الله له ذنوبه ، ولهذا قال من قال : هو مؤمن بايمانه ، فاسق بكبيرته ، أو مؤمن ناقص الايمان ، والذين لايسمونه مؤمناً من اهل السنة ومن المعتزلة يقولون : اسم الفسوق ينافى اسم الايمان لقوله : ( بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ) [ الحجرات : ١١ ] وقوله : ( أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ) [ السجدة : ١٨ ] وقد قال النبى ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » (١) .

وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ، ومعه ايمان أيضاً ، وعلى هذا ورد عن النبى ﷺ فى تسمية كثير من الذنوب كفراً ، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من ايمان ، فلا يخلد فى النار ، كقوله : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وقوله : « لاترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض » (٢) وهذا مستفيض عن النبى ﷺ فى « الصحيح » من غير وجه ، فانه أمر فى حجة الوداع أن ينادى به فى الناس فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً ، ويسمى هذا الفعل كفراً ، ومع هذا فقد قال تعالى : ( وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الى قوله : ( انما المؤمنون اخوة ) [ الحجرات : ٩، ١٠ ] فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الايمان بالكلية ، ولكن فيهم ماهو كفر وهى هذه الخصلة كما قال بعض الصحابة : كفر دون كفر ، وكذلك قوله : « من قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما » (٣) فقد سماه أخاه حين القول ، وقد اخبر أن أحدهما

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه كما تقدم .

داء بها ، فلو خرج أحدهما عن الاسلام بالكلية لم يكن أخاه ، بل فيه كفر .

وكذلك قوله فى الحديث الصحيح : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر » (١) وفى حديث آخر : « كفر بالله من تبرأ من نسب وان دق »(٢)

وكان من القرآن الذى نسخ لفظه : لا ترغبوا عن آبائكم فان كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم فان حق الوالدين مقرون بحق الله فى مثل قوله : ( أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ) [ لقمان : ١٤ ] وقوله : ( وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً ) [ الاسراء : ٢٣ ] فالوالد أصله الذى منه خلق ، والولد من كسبه ، كما قال : ( ما أغنى عنه ماله وما كسب ) [ اللهب : ٢ ] ، فالجحد لهما شعبة من شعب الكفر ، فانه جحد لما منه خلقه ربه ، فقد جحد خلق الرب اياه ، وقد كان فى لغة من قبلنا يسمى الرب أبا ، فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية ، وسنتكلم ان شاء الله على سائر الأحاديث .

والمقصود هنا ذكر أصل جامع تنبى عليه معرفة النصوص ، ورد ماتنازع فيه الناس الى الكتاب والسنة ، فان الناس كثر نزاعهم فى مواضع فى مسمى الايمان والاسلام لكثرة ذكرهما ، وكثرة كلام الناس فيهما ، والاسم كلما كثر التكلم فيه ، فتكلم به مطلقاً ، ومقيداً بقيد ، ومقيداً بقيد آخر فى موضع آخر ، كان هذا سبباً لاشتباه بعض معناه ، ثم كلما كثر سماعه ، كثر من يشتبه عليه ذلك ، ومن أسباب ذلك أن يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه ، ويكون ماسمعه مقيداً بقيد أوجبه اختصاصه بمعنى ، فيظن معناه فى سائر موارده كذلك ، فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة ، وعلم مأخذ الشبه ، أعطى كل ذى حق حقه ، وعلم أن خير الكلام كلام الله ، وانه لا بيان أتم من بيانه ، وأن ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذى

---

(١) متفق عليه .

(٢) حديث حسن ، رواه أحمد وابن ماجة ، والطبرانى فى « المعجم الصغير » بسند حسن .

يحتاجون اليه أضعاف أضعاف ما تنازعوا فيه .

فالمسلون : سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فانه يدخل الجنة ، ولا يعذب وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله ﷺ اليه فهو كافر ، وأمثال هذه الامور التى هى أصول الدين وقواعد الايمان التى اتفق عليها المنتسبون الى الاسلام والايمان ، فتنازعهم بعد هذا فى بعض احكام الوعيد أو بعض معانى بعض الاسماء أمر خفيف بالنسبة الى ما اتفقو عليه ، مع أن المخالفين للحق البين والسنة هم عند جمور الامة معروفون بالبدعة ، مشهود عليهم بالضلالة ، ليس لهم فى الامة لسان صدق ولا قبول عام ، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم ، وانما يتنازع أهل العلم والسنة فى أمور دقيقة تخفى على اكثر الناس ، ولكن رد ما تنازعوا فيه الى الله ورسوله ، والرد الى الله ورسوله فى مسألة الاسلام والايمان يوجب ان كلا من الاسمين — وان كان مسماه — واجبا — لا يستحق أحد الجنة الا بأن يكون مؤمنا ، مسلما ، فالحق فى ذلك ما بينه النبى فى حديث جبريل ، فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات : أولها : الاسلام ، وأوسطها الايمان ، وأعلاها الاحسان ، ومن وصل الى العليا ، فقد وصل الى التى تليها ، فالمحسن مؤمن ، والمؤمن مسلم ، واما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنا .

وهكذا جاء القرآن ، فجعل الامة على هذه الاصناف الثلاثة ، قال تعالى : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير ) [ فاطر : ٣٢ ] فالمسلم الذى لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه ، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذى أدى الواجب وترك المحرم ، والسابق بالخيرات هو المحسن الذى عبد الله كأنه يراه ، وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس فى المعاد الى هذه الثلاثة فى سورة ( الواقعة ) و ( المطففين ) ،

ـ ( هل اتى ) ، وذكر الكفار ايضا ، وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عبـــاده .

وقال أبو سليمان الخطابى : ما أكثر ما يغــلط الناس فى هذه المسألة ، فأما الزهرى فقال : الاسلام الكلمة ، والايمان العمل ، واحتج بالاية ، وذهب غيره الى أن الاسلام والايمان شىء واحد ، فاحتج بقوله : ( فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجودنا فيهــا غير بيت من المســلمين ) [ الذاريات : ٣٥ ، ٣٦ ] قال الخطابى : وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحــد منهما الى قول من هذين ، ورد الاخر منهما على المتقدم ، وصنف عليه كتــابا يبلغ عدد أوراقه المائتين ، قال الخطابى : والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام فى هذا ، ولا يطلق ، وذلك ان المسلم قد يكون مؤمنــا فى بعض الاحوال ولا يكون مؤمنا فى بعض الاحوال ولا يكون مؤمنا فى بعضها ، والمؤمن مســلم فى جميع الاحوال ، فكل مؤمن مســلم ، وليس كل مسلم مؤمنــا ، واذا حملت الامر على هذا استقام لك تأويل الايات ، واعتدل القول فيهــا ، ولم يختلف شىء منهــا .

قلت : الرجلان اللذان أشار اليهما الخطابى، أظن أحدهما وهو السابق، محمد بن نصر ، فانه الذى علمته بسط الكــلام فى أن الاسلام والايمــان شىء واحد من اهل السنة والحديث ، وما علمت لغيره قبله بسطا فى هذا ، والاخر الذى رد عليه أظنه .. (١) . لكن لم أقف على رده ، والذى اختاره الخطابى هو قول من فرق بينهما ، كأبى جعفر ، وحمــاد بن زيد ، وعبــد الرحمن بن مهدى ، وهو قول أحمد بن حنبل ، وغيره ، وما علمت أحداً من المتقدمــين خالف هؤلاء ، فجعل نفس الاسلام نفس الايمان ، ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذى قاله هؤلاء ، كما ذكره الخطابى .

وكذلك ذكر أبو القاسم التيمى الأصبهانى ، وابنه محمد شارح «مسلم»،

---

(١) هنا بياض فى الأصل .

وغيرهما ان المختار عند أهل السنة أنه لا يطلق على السارق والزانى اسم مؤمن ، كما دل عليه النص ، وقد ذكر الخطابى : فى « شرح البخارى » كلاماً يقتضى تلازمهما مع افتراق اسميهما ، وذكره البغوى فى « شرح السنة » (٢) فقال : قد جعل النبى ﷺ الاسلام اسماً لما ظهر الأعمال ، وجعل الايمان اسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك (٣) لأن الأمال ليست من الايمان ، أو التصديق بالقلب ليس من الاسلام ، بل ذلك تفصيل لجملة (٤) هى كلها واحد ، وجماعها الدين ، ولذلك قال ﷺ : « هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم »، والتصديق والعمل يتناولهما اسم الاسلام والايمان جميعاً ، يدل عليه قوله تعالى : ( ان الدين عند الله الاسلام ) [ آل عمران : ١٩ ] وقوله تعالى : ( ورضيت لكم الاسلام دينا ) [ المائدة : ٣ ] وقوله : ( ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ) [ آل عمران : ٨٥ ] فبين أن الدين الذى رضيه ويقبله من عبادة هو الاسلام ، ولا يكون الدين فى محل الرضى والقبول الا بانضمام التصديق الى العمل .

قلت : تفريق النبى ﷺ فى حديث جبريل وان اقتضا أن الأعلى هو الاحسان والاحسان يتضمن الايمان ، والايمان يتضمن الاسلام ، فلا يدل على العكس ، ولو قدر دل على التلازم ، فهو صريح بأن مسمى هذا ليس مسمى هذا ، لكن التحقيق أن الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيناه ، ومن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة فى كثير من المواضع حاد عنها طوائف ، مسئلة الايمان وغيرها ، وما ذكره من أن الدين لايكون فى محل الرضى والقبول الا بانضمام التصديق الى العمل ، يدل على انه لابد مع العمل من الايمان ، فهذا يدل على وجوب الايمان مطلقاً ، لكن لا يدل على أن العمل الذى هو الدين، ليس اسمه اسلاماً ، واذا كان الايمان شرطاً فى قبوله ، لم يلزم أن يكون

---

(٢) ١/١٠،١١ طبع المكتب الاسلامى .
(٣) فى المطبوع « كذلك » وهو خطأ والتصويب من شرح السنة .
(٤) فى المطبوع « الجملة » وهو خطأ .

ملازماً له ، ولو كان ملازماً له لم يلزم أن يكون جزء مسماه .

وقال الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح : قوله ﷺ : « الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله » الى آخره ، والايمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» الى آخره ، قال : هذا بيان لأصل الايمان ، وهو التصديق الباطن ، وبيان لأصل الأسلام ، وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، وحكم الاسلام فى الظاهر يثبت بالشهادتين ، وانما أضاف اليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الأسلام واعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده أو انحلاله .

ثم إن اسم الايمان يتناول ما فسر به الاسلام فى هذا الحديث ، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذى هو أصل الايمان ، ومقومات ومتممات وحافظات له ، ولهذا فسر النبى ﷺ الايمان فى حديث وفد عبد القيس بالشهادتين ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، وإعطاء الخمس من المغنم ، ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة، لأن اسم الشىء الكامل يقع على الكامل منه ، ولا يستعمل فى الناقص ظاهراً الا بقيد ، ولذلك جاز اطلاق نفيه عنه فى قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

واسم الاسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الايمان وهو التصديق ، ويتناول أصل الطاعات ، فان ذلك كله استسلام . قال : فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الاسلام والايمان يجتمعان ويفترقان ، وأن كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، قال : فهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة فى الايمان والاسلام التى طالما غلط فيها الخائضون ، وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم .

فقال : هذا الذى ذكره رحمه الله فيه من الموافقة ما قد بين من أقوال الأئمة ، وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون : كل

مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وقوله : ان الحديث ذكر فيه أصل الإيمان وأصل الاسلام ، قد يورد عليه أن النبى ﷺ أجاب عن الايمان والاسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود ، فيكون ما ذكره مطابقاً لهما لا لأصلهما فقط ، فالايمان هو الايمان بما ذكره باطناً وظاهراً ، لكن ما ذكره من الايمان تضمن الاسلام ، كما أن الاحسان تضمن الايمان .

وقول القائل : أصل الاستسلام الظاهر ، فالاسلام هو الاستسلام لله والانقياد له ظاهراً وباطناً ، فهذا هو دين الاسلام الذى ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، ومن أسلم بظاهرة دون باطنه ، فهو منافق يقبل ظاهره ، فانه لم يؤمر أن يشق عن قلوب الناس . وأيضاً فاذا كان الاسلام يتناول التصديق الباطن الذى هو أصل الايمان ، فيلزم أن يكون كل مسلم مؤمناً ، وهو خلاف ما نقل عن الجمهور ، لكن لابد فى الاسلام من تصديق يحصل به أصل الايمان ، والا لم يثب عليه ، فيكون حينئذ مسلماً مؤمناً ، فلا بد أن يتبين المسلم الذى ليس بمؤمن ودخوله فى الاسلام والنبى ﷺ قال : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقوله : الاسلام هو الأركان الخمسة . لا يعنى به من أداها بلا اخلاص لله بل مع النفاق ، بل المراد من فعلها كما أمر بهنا باطناً وظاهراً ، وذكر الخمس أنها هى الاسلام ، لأنها هى العبادات المحضة التى تجب لله تعالى على كل عبد مطبق لها ، وما سواها أما واجب على الكفاية لمصلحة اذا حصلت سقط الوجوب ، وأما من حقوق الناس بعضهم على بعض ، وان كان فيها قربة ونحو ذلك ، وتلك تابعة لهذه كما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (١) و « أفضل الاسلام أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٢) ونحو ذلك ، فهذه الخمس هى الأركان والمبانى كما فى الايمان .

وقول القائل : الطاعات ثمرات التصديق الباطن ، يراد به شيئان :

---

(١) متفق عليه وتقدم مراراً . (٢) أخرجه الشيخان .

يراد به أنها لوازم له ، فمتى وجد الايمان الباطن وجدت ، وهذا مذهب السلف وأهل السنة ، ويراد به أن الايمان الباطن قد يكون سبباً ، وقد يكون الايمان الباطن تاماً كاملاً وهي لم توجد ، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم غلطوا في ثلاثة أوجه : أحدها : ظنهم أن الايمان الذي في القلب يكون تاماً بدون العمل الذي في القلب ، كمحبة الله وخشيته ، وخوفه والتوكل عليه ، والشوق الى لقائه . والثاني : ظنهم أن الايمان الذي في القلب يكون تاماً بدون العمل الظاهر ، وهذا يقول به جميع المرجئة . والثالث قولهم كل من كفره الشارع ، فانما كان لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى ، وكثير من المتأخرين لايميزون بين مذاهب السلف واقوال المرجئة والجهمية ، لاختلاط هذا بهذا في كلام منهم ممن هو في باطنه يرى الجهمية والمرجئة في الايمان ، وهو معظم للسلف واهل الحديث ، فيظن انه يجمع بينهما أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف .

قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي : وقالت طائفة ثانية وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث : الايمان الذي دعا الله العباد اليه وافترضه عليهم هو الاسلام الذي جعله ديناً وارتضاه لعباده ودعاهم اليه ، وهو ضد الكفر الذي سخطه فقال : ( ولا يرضى لعباده الكفر ) [ الزمر : ٧ ] . وقال : ( ورضيت لكم الاسلام ديناً ) [ المائدة : ٣ ] . وقال : ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ) [ الأنعام : ١٢٥ ] . وقال : ( أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ) [ الزمر ٢٢ ] فمدح الله الاسلام بمثل ما مدح به الايمان ، وجعله اسم وتزكية ، فأخبر أن من أسلم ، فهو على نور من ربه وهدي ، واخبر انه دينه الذي ارتضاه ، وما ارتضاه فقد أحبه وامتدحه ، الا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه اليه وسألوه اياه ، فقال ابراهيم واسماعيل : ( ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ) [ البقرة : ١٢٨ ] . وقال يوسف : ( توفني مسلماً والحقني بالصالحين ) [ يوسف : ١٠١ ] . وقال : ( ووصى بها ابراهيم

بينه ويعقوب يابنى أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون ) [ البقرة : ١٣٢ ] . وقال : ( وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ) [ آل عمران : ٣٠ ] ، وقال فى موضع آخر : (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ) [ البقرة: ١٣٦ ] الى قوله : ( فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ) [البقرة:١٣٧] . فحكم الله بأن من أسلم ، فقد اهتدى ، ومن آمن فقد اهتدى ، فسوى بينهما .

قال : وقد ذكرنا تمام الحجة فى أن الاسلام هو الايمان ، وانهما لايفترقان، ولا يتباينان فى موضع غير هذا ، فكرهنا اعادته فى هذا الموضع كراهة التطويل والتكرير ، غير أنا سنذكر هاهنا من الحجة فى ذلك ما لم نذكره فى غير هذا الموضع ، ونبين خطأ تأويلهم ، والحجج التى احتجوا بها من الكتاب والأخبار على التفرقة بين الاسلام والايمان .

قلت : مقصود محمد بن نصر المروزى رحمة الله : أن المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح ، وأن المذموم ناقص الاسلام والايمان ، وأن كل مؤمن فهو مسلم ، وكل مسلم فلا بد أن يكون معه ايمان ، وهذا صحيح ، وهو متفق عليه ، ومقصوده ايضاً : أن من أطلق عليه الاسلام اطلق عليه الايمان ، وهذا فيه نزاع لفظى ، ومقصوده أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ، وهذا لايعرف عن أحد من السلف ، وان قيل : هما متلازمان لايجب أن يكون مسمى هذا هو مسمى هذا ، وهو لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا ائمة الاسلام المشهورين انه قال : مسمى الاسلام هو مسمى الايمان «كما نصر ه» بل ولا عرفت أنا أحداً قال ذلك من السلف ، ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف ، بل وبين فرق الأمة كلهم يقولون : ان المؤمن الذى وعد بالجنة لابد أن يكون مسلماً ، والمسلم الذى وعد بالجنة لابد أن يكون مؤمناً وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين ، فهو مؤمن مسلم .

ثم أن أهل السنة يقولون : الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك ، وانما النزاع فى اطلاق الاسم ، فالنقول متواترة عن السلف بأن الايمان قول وعمل ، ولم ينقل عنهم شىء من ذلك فى الاسلام ، ولكن لما كان الجمهور الاعظم يقولون : ان الاسلام هو الدين كله ، ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر مانقل عن الزهرى ، فكانوا يقولون : ان الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هى من الاسلام كما من الايمان ، ظن أنهم يجعلونها شيئاً واحداً ، وليس كذلك ، فان الايمان مستلزم للاسلام باتفاقهم ، وليس اذا كان الاسلام داخلا فيه يلزم أن يكون هو اياه ، وأما الاسلام فليس معه دليل على أنه يستلزم الايمان عند الاطلاق ، ولكن هل يستلزم الايمان الواجب أو كمال الايمان ؟ فيه نزاع ، وليس معه دليل على أنه مستلزم للايمان ، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالاسلام كلهم كانوا مؤمنين ، وقد وصفم الله بالايمان ولو لم يذكر ذاك عنهم ، فنحن نعلم ، فنحن نعلم قطعاً أن الأنبياء كلهم مؤمنون .

وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين ، ولو قدر أن الاسلام يستلزم الايمان الواجب ، فغاية ما يقال : انهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم ، وهذا صحيح اذا أريد أن كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان الواجب ، وهو متفق عليه اذا أريد أن كل مسلم يثاب على عبادته ، فلا بد أن يكون معه أصل الايمان ، فما من مسلم الا وهو مؤمن ، وان لم يكن هو الايمان نفاه النبى ﷺ عمن لا يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، وعمن يفعل الكبائر ، وعن الأعراب وغيرهم ، اذا قيل : ان الاسلام والايمان التام متلازمان ، لم يلزم أن يكون احدهما هو الآخر ، كالروح والبدن ، فلا يوجد عندنا روح الا مع البدن ، ولا يوجد بدن حى الا مع الروح ، وليس أحدهما الآخر ، فالايمان كالروح ، فانه قائم بالروح ومتصل بالبدن ، والاسلام كالبدن ولا يكون البدن حياً الا مع الروح ، بمعنى أنهما متلازمان ، لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ، واسلام المنافقين ، كبدن الميت جسد بلا روح ، فما من بدن حى الا

وفيه روح ، ولكن الأرواح ، كما قال النبي ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » (١) وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منوراً بذكر الله والخشوع وفهم القرآن ، وان كانت صلاته يثاب عليها ويسقط عنه الفرض فى أحكام الدنيا ، فهكذا الاسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة ، والايمان بمنزلة ما يكون فى القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن ، فكل من خشع قلبه ، خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ، ولهذا قيل : اياكم وخشوع النفاق ، وهو أن يكون الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع ، فاذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وليس اذا كان الجسد فى عبادة يكون القلب قائماً بحقائقها .

والناس فى الايمان والإسلام على ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، فالمسلم ظاهراً وباطناً اذا كان ظالماً لنفسه ، فلا بد أن يكون معه ايمان ، ولكن لم يأت بالواجب ، ولا ينعكس ، وكذلك فى الآخر ، وسيأتى ان شاء الله .

والآيات التى احتج بها محمد نصر تدل على وجوب الاسلام ، وأنه دين الله ، وان الله يحبه ويرضاه ، وأنه ليس له دين غيره ، وهذا كله حق ، لكن ليس فى هذا ما يدل على أنه هو الايمان ، بل يدل على أنه بمجرد الاسلام يكون الرجل من أهل الجنة ، كما ذكره فى حجة القول الأول ، فان الله وعد المؤمنين بالجنة فى غير آية ، ولم يذكر هذا الوعد باسم الاسلام ، وحينئذ فمدحه وايجابه ومحبة الله له تدل على دخوله فى الايمان ، وأنه بعض منه . وهذا متفق عليه بين أهل السنة ، كلهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وكل من أتى بالايمان الواجب ، فقد أتى بالاسلام الواجب ، لكن النزاع فى العكس ، وهذا كما أن الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثنى عليها وعلى أهلها فى غير موضع ، ثم لم يدل ذلك على أن مسمى الايمان ، بل الصلاة تدخل فى الايمان

---

(١) رواه مسلم ، وعلقه البخارى .

فكل مؤمن مصل ، ولا يلزم أن يكون كل من صلى ، وأتى الكبائر مؤمناً .

وجميع ما ذكر من الحجة عن النبى ﷺ فان فيها التفريق بين مسمى الايمان والاسلام اذا ذكروا جميعاً ، كما فى حديث جبريل وغيره ، وفيها ايضاً أن اسم الايمان اذا أطلق دخل فيه الاسلام ، قال أبو عبد الله بن حامد فى كتابة المصنف فى « اصول الدين » :

قد ذكرنا أن الايمان قول وعمل ، فأما الاسلام ، فكلام احمد يحتمل روايتين : احداهما : انه كالايمان ، والثانية : أنه قول بلا عمل ، وهو نصه فى رواية اسماعيل بن سعيد ، قال : والصحيح ان المذهب رواية واحدة انه قول وعمل ، ويحتمل قوله : ان الاسلام قول يريد به أنه لايجب فيه ما يجب فى الايمان من العمل المشروط فيه ، لأن الصلاة ليست من شرطه ، اذ النص عنه أنه لا يكفر بتركه الصلاة .

قال : وقد قضينا أن الاسلام والايمان لمعنيين ، وذكرنا اختلاف الفقهاء، وقد ذكر قبل ذلك أن الاسلام والايمان اسمان لمعنيين مختلفين ، وبه قال مالك، وشريك ، حماد بن زيد ، بالتفرقة بين الاسلام والايمان ، قال : وقال أصحاب الشافعى ، واصحاب ابى حنيفة : انهما اسمان معناها واحد ، قال : ويفيد هذا أن الايمان قد تنتفى عنه تسيمته مع بقاء الاسلام عليه ، وهو باتيان الكبائر التى ذكرت فى الخبر ، فيخرج عن تسيمة الايمان ، الا أنه مسلم ، فاذا تاب من ذلك ، عاد الى ما كان عليه من الايمان . ولا تنتفى عنه تسمية الايمان بارتكاب الصغائر من الذنوب ، بل الاسم باق عليه ، ثم ذكر ادلة ذلك ، ولكن ما ذكره فيه أدلة كثيرة على من يقول : الاسلام مجرد الكلمة ، فان الادلة الكثيرة تدل على أن الأعمال من الاسلام ، بل النصوص كلها تدل على ذلك ، فمن قال : ان الأعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الاسلام ، فقوله باطل ، بخلاف التصديق الذى فى القلب ، فان هذا ليس فى النصوص ما يدل على أنه من الاسلام ، بل هو من الايمان ، وانما الاسلام الدين ، كما فسره النبى ﷺ بأن يسلم وجهه وقلبه لله ، فاخلاص الدين لله اسلام ، وهذا غير التصديق ،

ذاك من جنس عمل القلب ، وهذا من جنس علم القلب .

وأحمد بن حنبل ، وإن كان قد قال فى الموضع : إن الاسلام هو الكلمة ، فقد قال فى موضع آخر : ان الأعمال من الإسلام ، وهو اتبع هنا الزهرى رحمه الله ، فان كان مراد من قال ذلك ، انه بالكلمة يدخل فى الاسلام ، ولم يأت بتمام الاسلام ، فهذا قريب ، وان كان مراده أنه أتى بجميع الاسلام ، فهذا غلط قطعاً ، بل قد أنكر أحمد هذا الجواب ، وهو قول من قال : يطلق عليه الاسلام وان لم يعمل ، متابعة لحديث جبريل ، فكان ينبغى ان يذكر قول احمد جميعه .

قال اسماعيل بن سعيد : سألت احمد عن الاسلام والايمان فقال : الايمان قول وعمل ، والاسلام الاقرار ، وقال : وسألت احمد عمن قال فى الذى قال جبريل للنبى ﷺ اذ سأله عن الاسلام ، فاذا فعلت ذلك فانا مسلم ؟ فقال: نعم ، فقال قائل : وان لم يفعل الذى قال جبريل للنبى ﷺ ، فهو مسلم أيضاً ؟ فقال : هذا معاند للحديث .

فقد جعل أحمد من جعله مسلماً اذا لم يأت بالخمس معانداً للحديث ، مع قوله : ان الاسلام الاقرار ، فدل ذلك على أن ذاك أول الدخول فى الاسلام ، وانه لايكون قائما بالاسلام الواجب حتى يأتى بالخمس ، واطلاق الاسم مشروط بها ، فانه ذم من لم يتبع حديث جبريل ، وأيضاً فهو فى اكثر اجوبته يكفر من لم يأت بالصلاة ، بل وبغيرها من المبانى ، والكافر لايكون مسلماً باتفاق المسلمين ، فعلم انه لم يرد أن الاسلام هو مجرد القول بلا عمل ؛ وان قدر أنه أراد ذلك ، فهذا يكون انه لايكفر بترك شىء من المبانى الأربعة ، وأكثر الروايات عنه بخلاف ذلك ، والذين لا يكفرون من ترك هذه المبانى يجعلونها من الاسلام ، كالشافعى ومالك ، وأبى حنيفة ، وغيرهم ، فكيف لا يجعلها أحمد من الاسلام ؟ ! وقوله فى دخولها فى الاسلام أقوى من قول غيره ، وقد روى عنه أنه جعل حديث سعد معارضاً لحديث عمر ، ورجح

حديث سعد (١) .

قال الحسن بن على : سألت أحمـــد بن حنبل عن الايمـــان أو كد أو الاسلام ـ قال : جاء حديث عمر هذا ، وحديث سعد أحب الى ، كأنه فهم أن حديث عمر يدل على أن الأعمال هى مسمى الاسلام ، فيكون مسماه أفضل ، وحديث سعد يدل على أن مسمى الايمان أفضل ، ولكن حديث عمر لم يذكر الاسلام الا الأعمال فقط ، وهذه لاتكون ايماناً الا مع الايمان الذى فى القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فيكون حينئذ بعض الايمان ، فيكون مسمـــى الايمان افضل كما دل عليه حديث سعد ، فلا منافاة بين الحدثين .

وأما تفريق أحمد بين الاسلام والايمان ، فكان يقول تارة ، وتارة يحكي الخلاف ولا يحزم به ، وكان اذا قرن بينهما تارة يقول : الإسلام الكلمة ، وتارة لا يقول ذلك ، وكذلك التكفير بترك المبانى ، كان تارة يكفر بها حتى يغضب وتارة لا يـــكفر بها . قال الميمـــونى : قلت : يا أبا عبـــد الله تفـــرق بين الاسلام والايمان ؟ قال : نعم . قلت : بأى شىء تحتج ؟ قال : عامة الأحاديث الاحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ،

---

(١) أما حديث عمر : فهو فى مجىء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى . وفى آخره :

«هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم » وقد تقدم ، وأما حديث سعد : فهو أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم أعطى رهطـــا وسعد جالس ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هو اعجبهم الى ، فقلت : يا رسول الله مالك عن فلان ؟ فوالله انى لاراه مؤمنا، فقال : « أو مسلما » ... الحديث اخرجه البخارى .

ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وقال الله تعالى : ( قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) [ الحجرات : ١٤ ] قال : وحماد بن زيد يفرق بين الاسلام والايمان ، قال : وحدثنا ابو سلمة الخزاعى قال : قال مالك وشريك ، وذكر قولهم وقول حماد بن زيد : فرق بين الاسلام والايمان .

قال أحمد : قال لى رجل : لو لم يجئنا فى الايمان الا هذا لكان حسنا . قلت لابى عبد الله : فتذهب الى ظاهر الكتاب مع السنن ؟ قال : نعم ، قلت : فاذا كانت المرجئة يقولون : ان الاسلام هو القول ، قال : هم يصيرون هذا كله واحدا ، ويجعلونه مسلما ومؤمنا شيئا واحدا على ايمان جبرئيل ومستكمل الايمان ، قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم . فقد ذكر عنه الفرق مطلقا واحتجاجه بالنصوص .

وقال صالح بن أحمد : سئل ابى عن الاسلام والايمان ؟ قال : قال ابن ابى ذئب : الاسلام : القول والايمان : العمل . قيل له : ما تقول انت ؟ قال : الاسلام غير الايمان،وذكر حديث سعد،وقول النبى صلى الله عليه وسلم.فهو فى غير الايمان ، كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن .

وقال حنبل : حدثنا أبو عبد الله بحديث بريدة : كان رسول الله ﷺ يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر ان يقول قائلهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون » ... الحديث (١) قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : فى هذا الحديث حجة على من قال : الايمان قول ، فمن قال : أنا مؤمن [ فقد خالف ] قوله : من المؤمنين والمسلمين . فبين المؤمن من المسلم ، ورد على من قال : أنا مؤمن مستكمل الايمان ، وقوله : « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » وهو يعلم أنه ميت يشد قول من قال :

---

(١) رواه مسلم .

انا مؤمن ان شاء الله ، بالاستثناء فى هذا الموضع .

وقال أبو الحارث : سألت أبا عبد الله قلت : قوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ؟ قال : قد تأولوه ، فأما عطاء فقال : يتنحى عنه الايمان ، وقال طاووس : اذا فعل ذلك زال عنه الايمان ، وروى عن الحسن قال : ان رجع راجعه الايمان . وقد قيل : يخرج من الايمان الى الاسلام ، ولا يخرج من الاسلام ، وروى هذه المسألة صالح ، فان مسائل أبى الحارث يرويها صالح أيضا ، وصالح سأل اباه عن هذه القصة ، فقال فيها : هكذا يروى عن أبى جعفر قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ، قال : يخرج من الايمان الى الاسلام ، فالايمان مقصور فى الاسلام ، فاذا زنى خرج من الايمان الى الاسلام . قال الزهرى — يعنى — لما روى حديث سعد : « أو مسلم » فنرى ان الاسلام الكلمة والايمان العمل قال أحمد : وهو حديث متأول والله أعلم .

فقد ذكر اقوال التابعين ولم يرجح شيئا ، وذلك — والله أعلم — لان جميع ما قالوه حق ، وهو يوافق على ذلك كله ، كما قد ذكر فى مواضع أخر أنه يخرج من الايمان الى الاسلام ، ونحو ذلك ، وأحمد وأمثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، بل التأويل عندهم مثل التفسير ، وبيان ما يؤول اليه اللفظ ، كقول عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى » يتأول القرآن (١) ، والا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه ، وقول احمد يتأوله ، أى : يفسر معناه ، وان كان ذلك يوافق ظاهره لئلا يظن مبتدع أن معناه أنه صار كافرا لا ايمان معه بحال . كما تقوله الخوارج ، فان الحديث لا يدل على هذا ، والذى نفى عن هؤلاء الايمان كان يجعلهم مسلمين لايجعلهم مؤمنين .

---

(١) متفق عليه .

قال المروزى . قيل لابى عبد الله : نحن المؤمنون ؟ فقال : نقول : نحن المسلمون ، قلت لابى عبد الله : نقول : انا مؤمنون ؟ قال : ولكن نقول : انا مسلمون وهذا لان من أصله الاستثناء فى الايمان ، لانه لا يعلم انه مؤد لجميع ما أمره الله به ، فهو مثل قوله : انا بر ، أنا تقى ، أنا ولى الله ، كما يذكر فى موضعه ، وهذا لا يمنع ترك الاستثناء اذا أراد : انى مصدق ، فانه يجزم بما فى قلبه من التصديق ، ولا يجز مبأنه ممتثل لكل ما أمر به ، وكما يجـزم بأنه يحب الله ورسوله ، فانه يبغض الكفر ، ونحو ذلك مما يعلم أنه فى قلبـه ، وكذلك اذا أراد بأنه مؤمن فى الظاهر ، فلا يمنع أن يجزم ذما هو معلوم له ، يكره ما كرهه سائر الغالية من قول المرجئة اذ يقولون : الايمان شيء متماثل فى جميع أهله ، مثل كون كل انسان له راس ، فيقول أحدهم : أنا مؤمن حقا ، وانا مؤمن عند الله ، ونحو ذلك ، كما يقول الانسان : لى رأس حقا ، وأنا لى راس فى علم الله حقا ، فمن جزم به على هذا الوجه ، فقد أخرج الاعمـال الباطنة والظاهرة عنه ، وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين ، ومن اتبعهم من سائر المسلمين ، وللناس فى مسألة الاستثناء كلام يذكـر فى موضـعه .

والمقصود هنا أن قولين متطرفين : قـول من يقول : الاسلام مجـرد الكلمة ، والاعمال الظاهرة ليست داخلة فى مسمى الاسم ، وقول من يقول : مسمى الاسلام والايمان واحد وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبريل ، وسائر احاديث النبى ﷺ ، ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزى القول الثانى لم يكن معه حجة على صحته ، ولكن احتج بما يبطل به القول الاول ، فاحتج بقوله فى قصة الاعراب : ( بل الله يمن عليكـم أن هداكم للايمان أن كنتـم صادقين ) [ الحجرات : ١٧ ] قال : فدل ذلك على ان الاسلام هو الايمان ، فيقال : بل يدل على نقيض ذلك ، لان القوم لم يقولوا : أسلمنا ، بل قالوا : آمنا ، والله امرهم ان يقولوا : اسلمنا ، ثم ذكر تسميتهم بالاسلام فقـال : ( بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين ) فى قولكم : آمنا ، ولو كان الاسلام هو الايمان لم يحتـج ان يقول : ( ان كنتـم صادقين ) فانهـم

صادقون فى قولهم : اسلمنا ، مع انهم لم يقولوا ، ولكن الله قال : ( يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل اللـــه يمن عليكم ) [ الحجرات : ١٧ ] أى : يمنون عليك ما فعلوه من الاسلام ، فالله تعالى سما فعلهـــم اسلاما ، وليس فى ذلك ما يدل على انهم سموه اسلاما ، وانما قالوا : آمنـــا ثم أخبر أن المنة تقع بالهداية الى الايمان ، فأما الاسلام الذى لا ايمان معه ، فكان الناس يفعلونه خوفا من السيف ، فلا منة لهم بفعله ، واذا لم يمن الله عليهم بالايمان كان ذلك كاسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم ، فأما اذا كانوا صادقين فى قولهم : آمنا ، فالله هو المان عليهم بهذا الايمان وما يدخل فيـــه من الاسلام ، وهو سبحانه نفى عنهم الايمان أولا ، وهنا علق منـــة الله به على صدقهم ، فدل على جواز صدقهم .

وقد قيل : انهم صاروا صادقين بعـــد ذلك ، ويقال : المعـــلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط ، ويقال : لانه كان معهم ايمان ما ، لكن ما هـــو الايمان الذى وصفه ثانيا بل معهم شعبة من الايمان .

قال محمد بن نصر : وقال الله تعالى : ( وما أمروا الا ليعبـــدوا الله مخلصين له الدين ) [ البينـــة : ٥ ] . وقال : ( ان الدين عند الله الاسلام ) [ آل عمران : ١٩ ] فسمى اقام الصـــلاة وايتاء الزكاة دينا قيمـــا ، وسمى الدين اسلاما ، فمن لم يؤد الزكاة ، فقد ترك من الدين القيم ـــ الذى أخبـــر الله أنه عنده الدين وهو الاسلام ـــ بعضا ، قال : وقد جاء معينا هذه الطائفة التي فرقت بين الاسلام والايمان ، على أن الايمان قول وعمل ، وان الصلاة والزكاة من الايمان ، وقد سماهما الله دينا ، وأخبر أن الدين عنـــده الاسلام فقد سمى الله الاسلام بما سمى به الايمان بما سمى به الاسلام ، وبمثل ذلك جاءت الاخبار عن النبى ﷺ . فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار ، وأن العمل ليس منه ، فقد خالف الكتاب والسنة ، ولا فرق بينه وبين المرجئة اذ زعمت أن الايمان اقرار بلا عمـــل .

فيقال : أما قوله : ان الله جعل الصلاة والزكاة من الدين ، والدين عنده

هو الاسلام ، فهذا كلام حسن موافق لحديث جبريل ، ورده على من جعل العمل خارجا من الاسلام كلام حسن ، وأما قوله : ان الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام وسمى الاسلام بما سمى به الايمان ، فليس كذلك ، فان الله انما قال : ( ان الدين عند الله الاسلام ) [ آل عمران : ١٩ ] ، ولم يقل قط : ان الدين عند الله الايمان ، ولكن هذا الدين من الايمان ، وليس اذا كان منه يكون هو اياه ، فان الايمان أصله معرفة القلب وتصديقه ، وقوله : والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمناً الا بهما ، وأما الاسلام فهو عمل محض مع قول ، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه ، لكن يلزمه جنس التصديق ، فلا يكون عمل الا بعلم ، لكن لا يستلزم الايمان المفصل الذى بينه الله ورسوله ، كما قال تعالى : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ] . وقوله : ( انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون ) [ الانفال : ٢ ] .

وسائر النصوص التى تنفى الايمان عمن لم يتصف بما ذكره ، فان كثيراً من المسلمين مسلم باطناً وظاهراً ومعه تصديق مجمل ، ولم يتصف بهذا الايمان ، والله تعالى قال : ( ومن يبتغ غ‍ا الاسلام ديناً فلن يقبل منه ) [ آل عمران : ٨٥ ] وقال : ( ورضيت لكم الاسلام ديناً ) [ المائدة : ٣ ] ولم يقل : ومن يبتغ غير الاسلام علماً ومعرفة وتصديقاً وايمانا ، ولا قال : رضيت لكم الاسلام تصديقاً وعلماً ، فان الاسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع ، فمن ابتغى غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه والايمان طمأنينة ويقين، أصله علم وتصديق ومعرفة ، والدين تابع له ، يقال : آمنت بالله واسلمت لله، قال موسى : ( ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ) [يونس: ٨٤ ] فلو كان مسماهما واحداً كان هذا تكريراً ، وكذلك قوله : ( ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ) [ الأحزاب : ٣٥ ] كما قال : والصادقون ،

والصابرين ، والخاشعين : فالمؤمن متصف بهذا كله ، لكن هذه الأسماء لاتطابق الايمان فى العموم والخصوص ، وكان النبى ﷺ يقول : « اللهم لك اسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت » كما ثبت فى « الصحيحين » أنه كان يقول ذلك اذا قام من الليل ، وثبت فى « صحيح مسلم » وغيره أنه كان يقول فى سجوده : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت » وفى الركوع يقول : « لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت » ولما بين النبى ﷺ خاصة كل منهما قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » (١) ومعلوم أن السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأموناً على الدم والمال ، فان هذا أعلى والمامون يسلم الناس من ظلمه،وليس من سلموا من ظلمه يكون مأموناً عندهم.

قال محمد بن نصر : فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار ، وأن العمل ليس منه ، فقد خالف الكتاب والسنة ، وهذا صحيح ، فان النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الاسلام ، قال : ولا فرق بينه وبين المرجئة اذ زعمت أن الايمان اقرار بلا عمل .

فيقال : بل بينهما فرق ، وذلك ان هؤلاء الذين قالوا من أهل السنة كالزهرى ومن وافقه يقولون : الأعمال داخلة فى الايمان والأسلام عندهم جزء من الايمان ، والايمان عندهم أكمل ، وهذا موافق للكتاب والسنة ، ويقولون: الناس يتفاضلون فى الايمان ، وهذا موافق للكتاب والسنة ، والمرجئة يقولون: الايمان بعض الاسلام ، والاسلام افضل ، ويقولون : ايمان الناس متساو ، فايمان الصحابة وافجر الناس سواء ، ويقولون : لايكون مع أحد بعض الايمان دون بعض ، وهذا مخالف للكتاب والسنة .

وقد أجاب أحمد عن هذا السؤال كما قاله فى إحدى روايتيه : ان الاسلام

---

(١) حديث صحيح وتقدم .

هو الكلمة ، قال الزهرى : فانه تارة يوافق من قال ذلك ، وتاره لا يوافقه ، بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الاسلام غير الايمان ، فلما أجـاب بقول الزهرى ، قال له الميمونى : قلت يا أبا عبد الله ! تفرق بين الاسـلام والايمان ؟ قال : نعم ، قلت : بأى شىء نحتج ؟ قال : عامة الأحاديث تدل على هذا ، ثم قال : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو ، ولا يسرق اسارق حـين يسرق وهومؤمن » . وقال تعالى : ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ) [ الحجرات : ١٤ ] قلت له : فتذهب الى ظاهر الكتاب مـع السنن ؟ قال : نعم ، قلت : فاذا كانت المرجئة تقول : ان الاسلام هو القول قال : هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئا واحدا على ايمان جبريل ، ومستكمل الايمان ، قلت : فمن ههنا حجتنا عليهم ؟ قال : نعم. فقد أجاب أحمد بأنهم يجعلون مؤمناً مستكمل الايمان على ايمان جبريل .

واما قوله : يجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئا واحداً ، فهذا قول من يقول : الدين والايمان شىء واحد ، فالاسلام هو الدين ، فيجعلون الاسلام والايمان شيئاً واحداً،وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره من الائمة ، كالشافعى وأبى عبيد وغيرهما ، ومع هؤلاء يناظرون ، فالمعروف من كلام المرجئة الفرق بين لفظ الدين والايمان ، والفرق بين الاسلام والايمان ، ويقولون : الاسلام بعضه ايمان وبعضه أعمال ، والأعمال منها فرض ونفل ، ولكن كلام السلف كـان فيما يظهر لهم ويصل اليهم من كلام أهل البدع كما تجدهم فى الجهمية ، وامـا يحكون عنهم أن الله فى كل مكان ، وهذا قول طائفة منهم كالنجارية ، وهو قول عوامهم وعبادهم ، واما جمهور نظارهم من الجهمية ، والمعتزلة ، والضرارية، وغيرهم ، فانما يقولون : هو لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو فوق العالم، وكذلك كلامهم فى القدرية يحكون عنهم انكار العلم والكتاب ، وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم : اذا لقيت أولئك ، فأخبرهم أنى برىء منهم ، وأنهم براء منى ، وهم الذين كانوا يقولون : ان الله أمر العباد ونهاهم ، وهو لايعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدخل الجنة ممن دخل النار حتى فعلوا ذلـك ،

فعلمه بعد ما فعلوه ! ولهذا قالوا : الأمر أنف ، أى مستأنف ، يقال . روض أنف : اذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك ، يعنى أنه مسأنف العلم بالسعيد والشقى ، ويتبدى ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب ، فلا يكون العمل على ما قد قدر فيحتذى به حذو القدر ، بل هو أمر مستأنف مبتدا، والواحد من الناس اذا اراد آن يعمل عملا قدر فى نفسه ما يريد عمله ، ثم عمله كما قدر فى نفسه ، وربما اظهر ما قدره فى الخارج بصورته ، ويسمى هذا التقدير الذى فى النفس خلقاً ، ومنه قول الشاعر :

ولأ نت تفرى ما خلقت وبعـ ض الناس يخلق ثم لا يفـرى

يقول : اذا قدرت أمراً أمضيته وأنفذته بخلاف غيرك ، فانه عاجز امضاء ما يقدره ، وقال تعالى : ( انا كل شىء خلقناه بقدر ) [ القمر : ٤٩ ] . وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون ، وهو يخلق بمشيئة ، فهو يعلمه ويريده ، وعلمه وارادته قائم بنفسه ، وقد يتكلم به ويخبر به كما فى قوله : ( لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ) [ طه : ١٢٩ ] وقال : « ولولا كلمة تسبقت من ربك لكان لزاماً واجل مسمى » [ طه : ١٢٩ ] وقال تعالى:(ولقد سبقت كلمتنا واجل مسمى) [طه :١٢٩] وقال تعالى:(ولقد سبقت كلمتنا لعبادناالمرسلين . انهم لهم المنصرون . وان جندنا لهم الغالبون ) [ الصافات : ١٧١ـ١٧٣ ] وقال تعالى : ( ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ) [ هود : ١١١ ] وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه ، كما قال : ( الم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير ) [ الحج : ٧٠ ] قال ابن عباس : ان الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه : كن كتاباً ، ثم انزل تصديق ذلك فى قوله : ( الم تعلم ان الله يعلم ما فى السماء والأرض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير ) وقال تعالى : ( ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ) [ الحديد : ٢٢ ] وقال : ( ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون ) [ الانبياء : ١٠٥ ] وقال : ( يمحو الله ما يشاء وعنده أم

الكتاب ) [ الرعد : ٣٩ ] وقال للملائكة : ( انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لم أقال انى اعلم مالا تعلمون ) [ البقرة : ٣٠ ] فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء ، فكيف لا يعلمه الله ، سواء علموه باعلام الله — فيكون هو أعلم بما علمهم اياه ، كما قاله أكثر المفسرين : — او قالوه بالقياس على من كان قبلهم ، كما قاله : طائفة منهم ، أو بغير ذلك والله اعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لاعلم لهم الا ما علمهم ، وما أوحاه الى انبيائه وغيرهم ممـــا سيكون هو أعلم به منهم ، فانهم لايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء .

وأيضاً فانه قال للملائكة : ( انى جاعل فى الأرض خليفة ) قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم ، وقبل أن يمتنع ابليس ، وقبل ان ينهى آدم عن أكله من الشجرة ، وقبل أن يأكل منها ويكون أكله سبب اهباطه الى الارض فقد علم الله سبحانه انه سيستخلفه مع أمره له ولابليس بما يعلم أنهما يخالفانه فيه ويكون الخلاف سبب امره لهما بالاهباط والاستخلاف فى الأرض .

وهذا يبين أنه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر ، فان ابليس امتنع من السجود لآدم وأبغضه فصار عدوه ، فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذنب آدم أيضاً ، فانه قد تألى انه ليغوينهم اجمعين ، وقد سأل الانظار الى يوم يبعثون ، فهو حريص على اغواء آدم وذريته بكل ما أمكنه ، لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بنبوته ، فصار لبنى آدم سبيل الى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالاغواء ، وهو التوبة ، قال تعالى : ( ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ) [ الأحزاب : ٧٣ ] وقدر الله قد احاط بهذا كله قبل أن يكون ، وابليس أصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، وسأل الانظار ليهلك غيره ، وآدم تاب وأناب ، وقال هو وزوجته : ( ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ) [ الأعراف : ٢٣ ] فتاب الله عليه فاجتباه وهداه ، وأنزله الى الأرض ليعمل فيها بطاعته ، فيرفع الله درجته ، ويكون

دخوله الجنة بعد هذا اكمل مما كان ، فمن اذنب من أولاد آدم ، فاقتدى بأبيه فى التوبة كان سعيداً ، واذا تاب وآمن وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وكان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، كسائر أولياء الله المتقين ، ومن اتبع منهم ابليس فأصر على الذنب ، واحتج بالقدر ، وأراد أن يغوى غيره كان من الذين قال فيهم : ( لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ) [ ص : ٨٥ ]

والمقصود هنا ذكر القدر ، وقد ثبت فى « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفى «صحيح البخارى » عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « كان الله ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » وفى « الصحيحين » عن النبى ﷺ من غير وجه أنه أخبر أن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار ، وما يعمله العباد قبل أن يعلموه .

وفى « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود : ان الله يبعث ملكاً بعد خلق الجسد ، وقبل نفخ الروح فيه ، فيكتب أجله ورزقه وعمله وشقى أو او سعيد . وهذه الأحاديث تأتى ان شاء الله فى مواضعها ، فهذا القدر هو الذى أنكره القدرية الذين كانوا فى أواخر زمن الصحابة ، وقد روى : أن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له : سيسويه من أبناء المجوس ، وتلقاه عنه معبد الجهنى . ويقال : أول ما حدث فى الحجاز لما احترقت الكعبة، فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى ، فقال آخر : لم يقدر الله هذا ، ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر ، فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقى من الصحابة ، كعبد الله بن عباس ، وواثلة بن الاسقع وكان اكثره بالبصرة والشام ، وقليل منه بالحجاز ، فأكثر كلام السلف فى ذم هؤلاء القدرية ، ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون : الأمر مستقبل ، وإن لم يقدر الكتابة والأعمال ، والمرجئة يقولون : القول يجزىء

من العمل ، والجهمية يقولون : المعرفة تجزىء من القول والعمل قال وكيع : وهو كله كفر ورواه ابن (1) .

ولكن لما اشتهر الكلام فى القدر ، ودخل فيه كثير من اهل النظر والعباد، صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم ، وانما ينكرون عموم المشيئة والخلق وعن عمرو بن عبيد فى انكار الكتاب المتقدم روايتان . وقول أولئك كفرهم عليه مالك ، والشافعى ، وأحمد وغيرهم ، وأما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون ، لأنهم ليسوا بمنزلة اولئك ، وفى هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم ، وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم ، لكن من كان داعية اليه لم يخرجوا له ، وهذا مذهب فقهاء أهل الحديث كأحمد وغيره ان من كان داعيه الى بدعة ، فانه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس ، وان كان فى الباطن مجتهداً ، وأقل عقوبته أن يهجر ، فلا يكون له مرتبة فى الدين ، لايؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ، ولا تقبل شهادته ، ونحو ذلك . ومذهب مالك قريب من هذا ، ولهذا لم يخرج أهل الصحيح لمن كان داعية ، ولكن رووا ، هم وسائر اهل العلم عن كثير ممن كان يرى فى الباطن رأى القدرية ، والمرجئة ، والخوارج والشيعة .

وقال أحمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة ،وهذا لأن مسألة خلق افعال العباد وارادة الكائنات مسألة مشكلة ، وكما أن القدرية من المعتزلة وغيرهم اخطؤوا فيها ، فقد أخطأ فيها كثير ممن رد عليهم أن أكثرهم فانهم سلكوا فى الرد عليهم مسلك جهم بن صفوان ، وأتباعه ، فنفوا حكمة الله فى خلقه وأمره ، ونفوا رحمته بعبادة ، ونفوا ماجعله من الأسباب خلقاً وأمراً، وجحدوا من الحقائق الموجودة فى مخلوقاته وشرائعه ما صار ذلك سبباً لنفور أكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة ، اذ كانوا يزعمون أن قول أهل السنة القدر هو القول الذى ابتدعه جهم ، وهذا لبسطه موضع آخر .

---

(1) هكذا بياض بالأصل .

وانما المقصود هنا أن السلف فى ردهم على المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم ، يردون من أقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم ، وقد يكون ذلك قول طائفة منهم ، وقد يكون نقلا مغيراً ، فلهذا ردوا على المرجئة الذين يجعلون الدين والايمان واحداً ، ويقولون : هو القول ، وأيضا فلم يكن حدث فى زمنهم من المرجئة من يقول : الايمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة فى القلب ، فان هذا انما أحدثه ابن كرام ، وهذا هو الذى انفرد به ابن كرام ، وأما سائر ما قاله ، فأقوال قيلت قبله ، ولهذا لم يذكر الأشعرى ولا غيره ممن يحكى مقالات الناس عنه قولا انفرد به الا هذا .

واما سائر أقواله ، فيحكونها عن ناس قبله ولا يذكرونه ، ولم يكن ابن كرام فى زمن أحمد بن حنبل ، وغيره من الائمة ، فلهذا يحكون اجماع الناس على خلاف هذا القول ، كما ذكر ذلك ابو عبد الله احمد بن حنبل وابو ثور وغيرهما ، وكان قول المرجئة قبله : ان الايمان قول باللسان وتصديق بالقلب وقول جهم : انه تصديق القلب ، فلما قال ابن كرام : انه مجرد قول اللسان، صارت اقوال المرجئة ثلاثة ، لكن أحمد كان اعلم بمقالات الناس من غيره ، فكان يعرف الجهمية فى الايمان ، وأما ابو ثور ، فلم يكن يعرفه ، ولا يعرف إلا مرجئة الفقهاء ، فلهذا حكى الاجماع على خلاف قول الجهمية والكراميه .

قال ابو ثور فى رده على المرجئة كما روى ذلك ابو القاسم الطبرى اللالكائى وغيره عن ادريس بن عبد الكريم قال : سأل رجل من أهل خراسان أبا ثور عن الايمان وما هو ، أيزيد وينقص ؟ وقول هو أو قول وعمل ؟ أو تصديق وعمل ؟ فأجابه أبو ثور بهذا فقال : سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الايمان ما هو ، يزيد وينقص ؟ وقول هو أو قول وعمل ؟ أو تصديق وعمل ؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم .

اعلم يرحمنا الله واياك : أن الايمان تصديق بالقلب ، وقول باللسان وعمل بالجوارح ، وذلك أنه ليس بين اهل العلم خلاف فى رجل لو قال : أشهد

أن الله عز وجل واحد ، وأن ما جاءت به الرسل حق ، وأقر بجميع الشرائع ، ثم قال : ما عقد قلبى على شىء من هذا ، ولا أصدق به ، أنه ليس بمسلم ، ولو قال : المسيح هو الله ، وجحد أمر الاسلام ، ثم قال : لم يعقد قلبى على شىء من ذلك ، أنه كافر باظهار ذلك وليس بمؤمن ، فلما لم يكن بالاقرار اذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ولا بالتصديق اذا لم يكن معه الاقرار مؤمناً ، حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه . فاذا كان تصديقاً بالقلب واقرار باللسان كان عندهم مؤمناً ، وعند بعضهم لايكون مؤمناً حتى يكون مع التصديق عمل، فيكون بهذه الاشياء اذا اجتمعت مؤمنا ، فلما نفوا أن يكون الايمـــان بشىء واحدا ، وقالوا : يكون بشيئين فى قول بعضهم ، وثلاثة اشياء فى قول غيرهم، لم يكن مؤمناً الا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء ، وذلك أنه اذا جاء بهذه الثلاثة الاشياء ، فكلهم يشهد أنه مؤمن ، فقلنا بما أجمعوا عليه مـــن التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح .

فأما الطائفة التى ذهبت الى أن العمل ليس من الايمان ، فيقال لهم : ماذا أراد الله من العباد اذ قال لهم : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، الاقرار بذلك أو الاقرار والعمل ؟ فان قالت : ان الله اراد الاقرار ولم يرد العمل ، فقـــد كفرت . وعند اهل العلم من قال : ان الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولايؤتوا الزكاة — وان قالت : أراد منهم الاقرار والعمل — قيل : فاذا كان أراد منهم الامرين جميعاً ، لم زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر ، وقد أرادهما جميعاً ؟ أرأيتم لو أن رجلا قال : اعمل جميع ما أمر به الله ولا اقر به ، أيكون مؤمناً ؟ فان قالوا : لا ، قيل لهم : فان قال : اقر بجميع ما أمر الله بـــه ، ولا اعمل به ، أيكون مؤمناً ؟ فان قالوا : نعم ، قيل ما الفرق ؟ فقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعاً ، فان جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً اذا ترك الآخر ، جاز أن يكون بالآخر اذا عمل به ولم يقر ، مؤمناً ، لا فرق بين ذلك ، فان احتـــج فقال : لو أن رجلا اسلم فاقر بجميع ما جاء به النبى ﷺ أيكون مؤمناً بهـــذا الاقرار قبل أن يجىء وقت عمل ؟ قيل له : انما يطلق له الاسم بتصديقـــه أن

العمل عليه بقوله : ان يعمله فى وقته اذا جاء ، وليس عليه فى هذا الـوقت الاقرار بجميع ما يكون به مؤمناً ، ولو قال : أقر ولا أعمل لم يطلق عليه اسم الايمان .

قلت : يعنى الامام ابو ثور — رحمة الله — انه لايكون مؤمناً الا اذا التزم بالعمل مع الاقرار ، والا فلو ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً ، وهذا الاحتجاج الذى ذكره ابو ثور هو دليل على وجوب الأمرين : الاقرار والعمل ، وهو يدل على أن كلا منهما من الدين ، وأنه لا يكون مطيعاً لله ، ولا مستحقاً للثواب ، ولا ممدوحا عند الله ورسوله الا بالأمرين جميعاً ، وهو حجة على من يجعل الاعمال خارجة عن الدين والايمان جميعا . واما من يقول : انها من الدين ، ويقول : ان الفاسق مؤمن حيث اخذ ببعض الدين وهو الايمان عندهم ، وترك بعضه ، فهذا يحتج عليه بشىء آخر ،لكن ابو ثور وغيره من علمـاء السنة عامة احتجاجهم مع هذا الصنف ، واحمد كان أوسع علما بالاقوال والحجج من أبى ثور ، ولهذا انها حكى الاجماع على خلاف قول الكرامية ، ثم انه تورع فى النطق على عادته ، ولم يجزم بنفى الخلاف ، لكن قال : لا احسـب أحدا يقول هذا و وهذا فى رسالته الى أبى عبد الرحيم الجوزجانى ، ذكرها الخلال فى كتاب « السنة » وهو أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد فى مسائل الاصول الدينية ، وان كان له اقوال زائدة على ما فيه ، كما أن كتابه فى العلم أجمـع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد فى الاصول الفقهية .

قال المروزى : رأيت أبا عبد الرحيم الجوزجانى عند أبى عبد اللـه ، وقد كان ذكره أبو عبد الله فقال : كان أبوه مرجئا ، أو قال : صاحب رأى ، واما أبو عبد الرحيـم فأثنى عليه ، وقـد كان كتب الى أبى عبـد الله من خراسان يسأله عن الايمان وذكر الرسالة من طريقين عن أبى عبد الرحيم ، وجـواب أحمـد :

بسم الله الرحمن الرحيم : احسن الله الينا واليك فى الامور كلهـا ،

وسلمنا وإياك من كل شر برحمته ، أتانى كتابك تذكر ما تذكر من احتجاج من احتجاج من المزجئة ، واعلم رحمك الله أن الخصومة فى الدين ليست من طريق أهل السنة ، وأن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه ، أو أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ ، ويعرف ذلك بمـا جاء عن النبى ﷺ، وشهدوا تنزيله ، وما قصه الله له فى القرآن ، وما عنى به ، وما أراد به أخاص هو أم عام ؟ (١) فأما من تأوله على ظاهرة بلا دلالة من رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة ، فهذا تأويل أهل البدع ، لان الاية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكما عاما ، ويكون ظاهرها على العموم ، وانما قصدت لشىء بعينه ، ورسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله وما أراد ، وأصحابه أعلم بذلك منا ، لمشاهدتهم الامر وما أريد بذلك ، فقد تكون الاية خاصـة ، أى : معناها مثل قوله تعالى : ( يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيـين ) [ النساء : ١٠ ] وظاهرها على العموم ، أى من وقع عليه اسـم ولد ، فله ما فرض الله ، فجاءت سنة رسول الله ﷺ أن لا يرث مسلم كافرا .

وروى عن النبى ﷺ ــ وليس بالثبت ــ الا أنه عن أصحابه أنهـم لم يورثوا قاتلا ، فكان رسول الله ﷺ هو المعبـر عن الكتاب أن الاية انمـا قصدت للمسلم لا للكافر ، ومن حملها على ظاهرها لزمه أن يورث من وقـع عليه اسم الولد كافرا كان أو قاتلا ، وكذلك أحكـام الوارث من الابوين وغير ذلك مع آى كثير يطول بها الكتاب ، وانما استعملت الامة السـنة من النبى ﷺ ومن أصحابه ، الا من دفع ذلك من أهل البدع والخوارج وما يشبههم ، فقد رأيت الى ما خرجوا .

قلت : لفظ المجمل والمطلق والعام كان فى اصطلاح الائمة ، كالشافعى ، وأحمد ، وأبى عبيد ، وإسحاق ، وغيرهم سواء ، لا يريدون بالمجمل مـا لا

---

(١) لقد أعاد المؤلف الكلام لطول الفصل ، وجواب الكلام فيمـا بعده : فهذا تأويل أهل البدع .

يفهم منه ، كما فسره به بعض المتأخرين وأخطأ فى ذلك ، بل المجمل ما لا يكفى وحده فى العمل به وان كان ظاهره حقا ، كما فى قوله تعالى : ( خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ) [ التوبة : ١٠٣ ] فهذه الاية ظاهرها ومعناها مفهوم ، ليست مما لا يفهم المراد به ، بل نفس ما دلت عليه لا يكفى وحده فى العمل ، فان المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم ، وهذا انما يعرف ببيان الرسول ﷺ ، ولهذا قال احمد ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس ، يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصنه ويقيده ، ولا يعمل بالقياس قبل النظر فى دلالة النصوص هل تدفعه ، فان اكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس ، فالامور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثا يطمئن القلب اليه ، وان اخطأ من لم يفعل ذلك ، وهذا هو الواقع فى المتمسكين بالظواهر والاقيسة ، ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الاعراض عن تفسير النبى ﷺ واصحابه طريق اهل البدع ، وله فى ذلك مصنف كبير .

وكذلك التمسك بالاقيسة مع الاعراض عن النصوص والاثار ، طريق اهل البدع ، ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولا فاسدا ، وانما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وقوله تعالى : (يوصيكم الله فى أولادكم ) [ النساء : ١٠ ] سماه عاما وهو مطلق فى الاحوال ، يعمها على طريق البدل كما يعم قوله : ( فتحرير رقبة ) [ النساء : ٩١ ] جميع الرقاب ، لا يعمها كما يعم لفظ الولد للاولاد . ومن أخذ بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن ، بل أخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن ، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه ، لا لدلالة القرآن على أنه ظاهر ، فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر القول ، وعمدتهم عدم العلم بالنصوص التى فيها علم بما قيد ، والا فكل ما بينه القرآن واظهره فهو حق ، بخلاف ما يظهر للانسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمي ظاهر القرآن ،

كاستدلالات أهل البدع من المرجئة الجهمية والخوارج والشيعة .

قال أحمد : وأما من زعم أن الايمان الاقرار ، فما يقول فى المعرفة ؟ هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقا بما عـرف ؟ فان زعم أنه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ، فقد زعم أنه يحتـاج الى المعرفة مع الاقرار ، فقد زعم أنه من شيئين ، وان زعم أنه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف ، فهو من هذه الاشياء ، وان جحد وقال : لا يحتاج الى المعـرفة والتصديق ، فقد قال قولا عظيما ، ولا احسب أحدا يدفع المعرفة والتصديق ، وكذلك مع هذه الاشـياء .

قلت : احمد وابو ثور وغيرهما من الائمة كانوا قد عرفوا أصل قـول المرجئة ، وهو أن الايمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه ، فلا يكون الا شـيئا واحدا ، فلا يكون ذا عددا اثنين أو ثلاثة ؛ فانه اذا كان له عدد ، أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضـه ، بل لا يكون الا شيئاً واحدا ، ولهذا قالت الجهمية : انه شيء واحد فى القلب ، وقالت الكرامية : انه شيء واحـد على اللسان ، كل ذلك فراراً من تبعض الايمان وتعدده ، فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على أنه ليس شيئا واحدا ، كما قلتم . فأبو ثور احتج بمـا اجتمع عليه الفقهـاء المرجئة من أنه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم ، أو لم يعد خلافهم خلافا ، واحمد ذكر أنه لابد من المعـرفة والتصديق مع الاقرار ، وقال : ان من جحد المعرفة والتصديق ، فقد قال قولا عظيما ، فان فساد هذا القول معلوم من دين الاسلام ! ولهذا لم يذهب اليه أحد قبـل الكرامية ، مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق ، ولكن تقول : لا يدخل فى اسم الايمان حذرا من تبعضه وتعدده ، لانهم رأوا انه لايمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه ، بل ذلك يقتضى أن يجتمع فى القلب ايمان وكفر ، واعتقدوا الاجمـاع على نفى ذلك ، كما ذكر هذا الاجماع الاشعرى وغيره .

وهذه الشبهة التى أوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن اسلامه وايمانه ، ولهذا دخل فى ارجاء الفقهاء جماعة هم عند الامة اهل علم ودين .

ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء ، بل جعلوا هذا من بدع الاقوال والافعال ، لا من بدع العقائد ، فان كثيرا من النزاع فيها لفظى ، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب ، فليس لاحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام من أهــل الارجاء وغيرهم والى ظهور الفسق ، فصـــار ذلك الخطأ اليســـير فى اللفظ سببا لخطأ عظيم فى العقائد والاعمال ، فلهذا عظم القول فى ذم الارجاء ، حتى قال ابراهيم النخعى : لفتنتهم — يعنى المرجئة — أخـوف على هذه الامة من فتنة الازارقة (١) . وقال الزهرى : ما ابتدعت فى الاســـلام بدعة أضر على أهله من الارجاء ، وقال الاوزاعى : كان يحيى بن أبى كثير ، وقتادة يقولان : ليس شىء من الاهواء أخوف عندهم على الامة من الارجاء ، وقـــال شريك القاضى وذكر المرجئة فقال : هم اخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثا ، ولكن المرجئة يكذبون على الله . وقال سفيان الثورى : تركت المرجئة الاسلام أرق من ثوب سابرى . وقال قتـــادة : انما حدث الارجاء بعد فتية فـــرقة ابن الاشعث .

وسئل ميمون بن مهران عن كـــلام المرجئة فقال : أنا أكبـــر من ذلك ، وقال سعيد بن جبير لذر الهمذانى : ألا تستحى من رأى أنت اكبر منه ؟ ! وقال أيوب السختيانى : أنا أكبر من دين المرجئة ، ان أول من تكلم فى الارجاء رجل من أهل المدينة من بنى هاشم يقال له : الحسن . وقال زاذان : أتينا الحسن بن محمد فقلنا : ما هذا الكتاب الذى وضعت ؟ وكان هو الذى اخرج كتـــاب المرجئة فقال لى : يا أبا عمر لوددت أنى كنت مت قبل أخرج هذا الكتاب ، أو أضع هذا الكتاب ، فان الخطأ فى اسم الايمان ليس كالخطا فى اسم المحدث ، ولا كالخطا فى غيره من الاسماء ، اذ كانت أحكام الدنيا والاخرة متعلقة باسم الايمان والاسلام والكفر والنفاق .

---

(١) الازارقة : من الخوارج ، نسبوا الى نافع بن الازرق .

واحمد رضى الله عنه فرق بين المعرفة التى فى القلب وبين التصديق الذى فى القلب ، فان تصديق اللسان هو الاقرار ، وقد ذكر ثلاثة اشياء ، وهذا يحتمل شيئين ، يحتمل أن يفرق بين تصديق القلب ومعرفته ، وهذا قول ابن كلاب ، والقلانسى ، والاشعرى وأصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب ، فان تصديق القلب قوله ، وقول القلب عندهم ليس هو العلم ، بل نوعا آخر ، ولهذا قال احمد : هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج الى أن يكون مصدقا بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم أنه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف ، فهو من ثلاثة أشياء فان جحد وقال : لا يحتاج الى المعرفة والتصديق ، فقد اتى عظيما ولا احسب امرءاً يدفع المعرفة والتصديق .

والذين قالوا : الايمان هو الاقرار ، فالاقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان ، والمرجئة لم تختلف أن الاقرار باللسان فيه التصديق ، فعلم أنه اراد تصديق القلب ومعرفته مع الاقرار باللسان ، الا أن يقال : أراد تصديق القلب واللسان جميعا مع المعرفة والاقرار ، ومراده بالاقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالى : ( واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ) [ آل عمران : ٨١ ] فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه ، وقد امروا بهذا ، وليس هذا الاقرار تصديقا ، فان الله تعالى لم يخبرهم بخبر ، بل اوجب عليهم اذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه ، فصدقوا بهذا الاقرار والتزموه ، فهذا هو اقرارهم ، والانسان قد يقر للرسول بمعنى انه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفه ، ومن غير تصديق له بأنه رسول الله ، لكن لم يقل أحد من المرجئة : ان هذا الاقرار يكون ايماناً ، بل لابد عندهم من الاقرار الخبرى وهو انه يقر له بأنه رسول الله كما يقر المقر

بما يقر به من الحقوق ، ولفظ لاقرار يتناول الالتزام والتصديق ، ولا بد منهما، وقد يراد بالاقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة ، والمرجئة تارة يجعنون هذا هو الايمان ، وتارة يجعلون الايمان التصديق والالتزام معاً ، هذا هو الاقرار الذى يقوله فقهاء المرجئة : انه ايمان ، والا لو قال : انا أطيعه ولا أصدق انه رسول الله ، أو أصدقه ولا التزم طاعته ، لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم .

واحمد قال : لابد مع هذا الاقرار أن يكون مصدقاً ، وأن يكون عارفاً ، وأن يكون مصدقاً بما عرف ، وفى رواية أخرى : مصدقاً بما عرف ، وفى رواية أخرى : مصدقاً بما أقر ، وهذا يقتضى انه لابد من تصديق باطن ، ويحتمل أن يكون لفظ التصديق عنده يتضمن القول والعمل جميعاً ، كما قد ذكرنا شواهده انه يقال : صدق بالقول والعمل ، فيكون تصديق القلب عنده يتضمن مع معرفة قلبه أنه رسول الله قد خضع له وانقاد ، فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيماً ، والا فمجرد معرفة قلبه أنه رسول الله مع الاعراض عن الانقياد له ولما جاء به ، اما حداً ، وأما كبراً ، وأما لمحبة دينه الذى يخالفه واما لغير ذلك ، فلا يكون ايماناً . ولا بد فى الايمان من علم القلب وعمله ، فأراد احمد بالتصديق أنه مع المعرفة به صار القلب مصدقاً له ، تابعاً له ، محباً له معظماً له ، فان هذا لابد منه ، ومن دفع هذا عن أن يكون من الايمان، فهو من جنس من دفع المعرفة من أن تكون من الايمان ، وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام احمد ، لأن وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة واجماع الأمة ، بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ، ومن نازع من الجهمية فى أن انقياد القلب من الايمان ، فهو كمن نازع من الكرامية فى أن معرفة القلب من الايمان ، فكان حمل كلام احمد على هذا هو المناسب لكلامه فى هذا المقام .

وأيضاً فان الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالى عن الانقياد الذى يجعل قول القلب ، أمر دقيق ، وأكثر العقلاء ينكرونه ،

وبتقدير صحته لايجب على كل احد ان يوجب شيئين لايتصور الفرق بينهما ، وأكثر الناس لايتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه ، ويقولون : ان ما قاله ابن كلاب ، والأشعرى من الفرق ، كلام باطل لاحقيقة له ، وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق ، وعمدتهم من الحجة انما هو خبر الكاذب ، قالوا : ففى قلبه خبر بخلاف علمه ، فدل على الفرق . فقال لهم الناس : ذاك بتقدير خبروعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خبراً حقيقيا ، ولما اثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والارادة ، انما يعود الى تقدير علوم وارادات لا الى جنس آخر يخالفها .

ولهذا قالوا : أن الانسان لايمكنه أن يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه ، وأما يمكنه أن يقول ذلك بلسانه ، وأما أنه يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما استدلوا به على أن الرب تعالى لايتصور قيام الكذب بذاته ، لأنه بكل شيء عليم ، ويمتنع قيام معنى يضاد العلم بذات العالم ، والخبر النفسانى الكاذب يضاد العلم .

فيقال لهم : الخبر النفسانى لو كان خلافاً للعلم لجاز وجود العلم مع ضده كما يقولون مثل ذلك فى مواضع كثيرة ، وهى من أقوى الحجج التى يحتج بها القاضى أبو بكر وموافقوه فى مسألة العقل وغيرها ، كالقاضى أبى يعلى ، وأبى محمد ابن اللبان ، وأبى على ابن شاذان ، وأبى الطيب ، وأبى الوليد الباجى ، وأبى الخطاب ، وابن عقيل وغيرهم ، فيقولون : العقل نوع من العلم ، فانه ليس بضد له ، فان لم يكن نوعاً منه كان خلافاً له ، ولو كان خلافا لجاز وجوده مع ضد العقل ، وهذه الحجة وان كانت ضعيفة كما ضعفها الجمهور وأبو المعالى الجوينى ممن ضعفها ، فان ما كان مستلزماً لغيره لم يكن ضداً له ، اذ قد اجتمعا ، وليس هو من نوعه ، بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذى يقسمون فيه كل اثنين الى أن يكونا مثلين ، أو خلافين أو ضدين ، فالملزوم كالارادة مع العلم ، أو كالعلم مع الحياة ، ونحو ذلك ليس ضداً ولا مثلا ، بل هو خلاف ، ومع هذا فلا يجوز وجوده مع ضد اللازم ، فان

ضد اللازم ينافيه ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، كوجود الارادة بدون العلم والعلم بدون الحياة ، فهذان خلافان عندهم ، ولا يجوز وجود أحدهما مع ضد الآخر .

كذلك العلم هو مستلزم للعقل ، فكل عالم عاقل ، والعقل شرط فى العلم فليس مثلا له ولا ضداً ولا نوعاً منه ، ومع هذا لايجوز وجوده مع ضد العقل، لكن هذه الحجة تقال لهم فى العلم مع كلام النفس الذى هو الخبر فانه ليس ضداً ولا مثلا ، بل خلافاً ، فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصادق وهو الكاذب ، فبطل تلك الحجة على امتناع الكذب النفسانى فى العالم ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصودهنا ان الانسان اذا رجع الى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً عن انقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق ، ثم احتج الامام أحمد على أن الاعمال من الايمان فقال : : « شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن خمساً من المغنم » (١) وجعل ذلك كله من الايمان ، قال : النبى ﷺ « الحياء شعبة من الايما ن» (٢) وقال : « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً » (٣) . وقال : « ان البذاذة (٤) من الايمان»(٥) وقال : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، فأدناها اماطة الأذى عن الطريق ،

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه أحمد وابو داود بسند جيد وعزاه بعضهم للبخارى ، فوهم .
(٤) يعنى ترك الترف وادامة التزين كما يفعل كثير من الشباب اليوم .
(٥) حديث حسن اخرجه أبو داود وابن ماجه والطبرانى والقضاعى بسند حسن .

وأرفعها قول لا اله الا الله » (٦) مع أشياء كثيرة ، منها : « أخرجوا من النـــار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » (٧) وما روى عن النبى ﷺ فى صـــفة المنافق : « ثلاث من كن فيه فهو منافق » (٨) مع حجج كثيرة ، وما روى النبى ﷺ فى تارك الصلاة وعن أصحابه من بعده ، ثم ما وصف الله تعالى فى كتابه من زيادة الايمان فى غير موضع مثل قوله : ( هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ) [ الفتح : ٤ ] وقال : ( ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً ) [ المدثر : ٣١ ] وقال : ( واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ) [ الأنفال : ٢ ] وقال تعالى : ( فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون ) [ التوبة ١٢٤ ]. وقال : ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون ) [ الحجرات : ١٥ ] . وقال تعالى : ( فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ) [التوبة ٦] وقال تعالى : ( فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) [ التوبة : ١٢ ] وقال : ( وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ) [ البينة : ٥ ] .

قال احمد : ويلزمه أن يقول هو مؤمن باقراره ، وان أقر بالزكاة فى الجملة ولم يجد فى كل مائتى درهم خمسة ، انه مؤمن ، فيلزمه أن يقول : اذا أقـــر ثم شد الزنار فى وسطه ، وصلى للصليب ، وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها الا انه فى ذلك مقر بالله ، فيلزمه ان يكون عنده مؤمناً ، وهذه الأشياء من اشنع ما يلزمهم .

قلت : هذا الذى ذكره الامام احمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم،

---

(٦) متفق عليه .
(٧) متفق عليه .
(٨) متفق عليه .

بجميع في ذلك جهلا يقول غيره بعضها ، وهذا الالزام لا محيد لهم عنه ، ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه أنه لازم التزموه ، وقالوا : لو فعل مافعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافراً في الباطن ، لكن يكون دليلا على الكفر في أحكام الدنيا ، فاذا احتج عليهم بنصوص تقتضي انه يكون كافراً في الآخرة ، قالوا : فهذه النصوص تدل على انه في الباطن ليس معه من معرفة الله شيء ، فانها شيء واحد ، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع .

وهذا القول مع فساده عقلا وشرعا ، ومع كونه عند التحقيق لايثبت ايماناً ، فانهم جعلوا الايمان شيئاً واحداً لا حقيقة له ، كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك في وحدة الرب أنه ذات بلا صفات ، وقالوا : بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لايرى في الآخرة ، وما يقوله من وحدة الكلام وغيره من الصفات .

فقولهم في الرب وصفاته وكلامه والايمان به يرجع الى تعطيل محض ، وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين الى السنة والفقه والحديث المتبعين للائمة الاربعة ، المتعصبة للجهمية والمعتزلة ، بل وللمرجئة أيضاً ، لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التي نشأت منها البدع يجمعون بين الضدين ، ولكن من رحمة الله بعباده المسلمين أن الائمة الذين لهم في الأمة لسان صدق ، مثل الائمة الأربعة وغيرهم كمالك ، والثوري ، والاوزاعي ، والليث بن سعد ، وكالشافعي ، وأحمد ، واسحاق ، وأبي عبيد ، وأبي حنيفة وأبي يوسف ، ومحمد ، كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والايمان وصفات الرب ، وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يرى في الآخرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الايمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان ، فلو شتم الله ورسوله كان كافراً باطناً وظاهراً عندهم كلهم ، ومن كان موافقاً لقول جهم في الايمان بسبب انتصار أبي الحسن لقوله في الايمان ، يبقى تارة يقول بقول السلف والأئمة ، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم ، حتى في مسألة سب الله ورسوله رأيت

طائفة من الحنبليين ، والشافعيين ، والمالكيين ، اذا تكلموا بكلام الائمة قالوا: ان هذا كفر باطناً وظاهراً .

واذا تكلموا بكلام أولئك قالوا : هذا كفر فى الظاهر ، وهو فى الباطن يجوز أن يكون مؤمناً تام الايمان عندهم لا يتبعض ، ولهذا لما عرف القاضى عياض هذا من بعض أصحابه ، أنكره ونصر قول مالك ، وأهل السنة ، وأحسن فى ذلك .

وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذا فى كتاب: « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وكذلك تجدهم فى مسائل الايمان يذكرون أقوال الأئمة ، والسلف، ويبحثون بحثاً يناسب قول الجهمية ، لأن البحث أخذوه من كتب أهل الكلام الذين نصروا قول جهم فى مسائل الايمان .

والرازى لما صنف « مناقب الشافعى » ، ذكر قوله فى الايمان ــ وقول الشافعى قول الصحابة والتابعين ، وقد ذكر الشافعى أنه اجماع من الصحابة والتابعين ؟ ومن لقيه ــ استشكل قول الشافعى جداً ، لأنه كان قد انعقد فى نفسه شبهة أهل البدع فى الايمان من الخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية والكرامية ، وسائر المرجئة وهو أن الشىء المركب اذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله ، لكن هو لم يذكر الا ظاهر شبهتهم ، والجواب عما ذكروه هو سهل ، فانه يسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت ، لكن لايلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء .

والشافعى مع الصحابة ، والتابعين ، وسائر السلف ، يقولون : أن الذنب يقدح فى كمال الايمان ، ولهذا نفى الشارع الايمان عن هؤلاء ، فذلك المجموع الذى هو الايمان لم يبق مجموعا مع الذنوب ، لكن يقولون : بقى بعضه ، أما أصله ، وأما أكثره ، وأما غير ذلك فيعود الكلام الى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه .

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة

وهذا التقدير لا يكون الا فى الذهن كسائر تقدير الأمور الممتنعة ، مثل تقدير صدور العالم عن صانعين ، ونحو ذلك ، فان هذه المقدرت فى الذهن .

فهكذا تقدير ايمان لايتصف به مؤمن ، بل هو مجرد عن كل قيد . وتقدير انسان لايكون موجوداً ولا معدوماً ، بل ما ثم ايمان الا مع المؤمنين ، ولا ثم انسانية الا ما اتصف بها الانسان ، فكل انسان له انسانية تخصه ، وكل مؤمن له ايمان يخصه ، فانسانية زيد تشبه انسانية عمرو ، ليست هى هى ، واذا اشتركوا فى نوع الانسانية فمعنى ذلك انهما يشتبهان فيما يوجد فى الخارج ، ويشتركان فى أمر كلى مطلق يكون فى الذهن .

وكذلك اذا قيل : ايمان زيد مثل ايمان عمرو ، فايمان كل واحد يخصه . فلو قدر أن الايمان يتماثل ، لكان لكل مؤمن ايمان يخصه ، وذلك الايمان مختص معين ، ليس هو الايمان من حيث هو هو ، بل هو ايمان معين ، وذلك الايمان يقبل الزيادة ، والذين ينفون التفاضل فى هذه الأمور يتصورون فى انفسهم ايماناً مطلقاً ، أو انساناً مطلقاً ، أو وجوداً مطلقا مجرداً ، عن جميع الصفات المعينة له ، ثم يظنون أن هذا هو الايمان الموجود فى الناس ، وذلك لايقبل التفاضل ، ولايقبل فى نفسه التعدد ، اذ هو تصور معين قائم فى نفس متصوره ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الامور المشتركة فى شىء واحد هى واحدة بالشخص والعين ، حتى انتهى الأمر بطائفة من علمائهم علماً وعبادة الى أن جعلوا الوجود كذلك ، فتصوروا أن الموجودات مشتركة فى مسمى الوجود ، وتصوروا هذا فى أنفسهم ، فظنوه فى الخارج كما هو فى أنفسهم ، ثم ظنوا أنه الله ، فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذى لايوجد قط الا فى نفس متصوره ، ولايكون فى الخارج ، وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا اعدادا مجردة وحقائق مجردة ، ويسمونها المثل الأفلاطونية ، وزماناً مجرداً عن الحركة والمتحرك ، وبعداً مجردا عن الاجسام وصفاتها ، ثم ظنوا وجود ذلك فى الخارج ، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما فى الأذهان بما فى الأعيان ، وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين ، والاثنين واحداً ، فتارة يجيئون الى الأمور المتعددة المتفاضلة فى الخارج

فيجعلونها واحدة أو متماثلة ، وتارة يجيئون الى ما فى الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين ، والمتفلسفة والجهمية وقعوا فى هذا وهذا ، فجاؤوا الى صفات الرب التى هى أنه عالم وقادر ، فجعلوا هذه الصفة هى عين الأخرى ، وجعلوا الصفة هى الموصوف .

وهكذا القائلون بأن الايمان شىء واحد وأنه متماثل فى بنى آدم ، غلطوا فى كونه واحداً ، وفى كونه متماثلا ، كما غلطوا فى آمثال ذلك من مسائل التوحيد والصفات والقرآن ونحو ذلك ، فكان غلط جهم وأتباعه فى الايمان كغلطهم فى صفات الرب الذى يؤمن به المؤمنون ، وفى كلامه وصفاته ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف ، بل عامة الصفات التى يتصف بها الموصوفون تقبل التفاضل ، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل ، والايجاب والتحريم يقبل التفاضل ، فيكون ايجاب أقوى من ايجاب ، وتحريم أقوى من تحريم . وكذلك المعرفة التى فى القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة ، وفى هذا كله نزاع ، فطائفة من المنتسبين الى السنة تنكر التفاضل فى هذا كله كما يختار ذلك القاضى أبو بكر ، وابن عقيل ، وغيرهما .

وقد حكى عن أحمد فى التفاضل فى المعرفة روايتان ، وانكار التفاضل فى هذه الصفات هو من جنس أصل قول المرجئة ، ولكن بقوله من يخالف المرجئة ، وهؤلاء يقولون : التفاضل انما هو فى الأعمال ، وأما الايمان الذى هو فى القلوب فلا يتفاضل ، وليس الأمر كما قالوه ، بل جميع ذلك يتفاضل ، وقد يقولون : ان أعمال القلب تتفاضل ، بخلاف معارف القلب ، وليس الأمر كذلك ، بل ايمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا ، ومن جهة ما وجب على هذا ، فلا يستوون فى الوجوب ، وأمة محمد وان وجب علهم جميعهم الايمان بعد استقرار الشرع فوجوب الايمان بالشىء المعين موقوف على أن يبلغ العبد ان كان خبراً ، وعلى أن يحتاج الى العمل به ان كان أمراً ، وعلى

العلم به ان كان علماً ، والا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر فى الكتاب والسنة ، ويعرف معناه ويعلمه ، فان هذا لايقدر أحد ، فالوجوب مما يتنوع الناس فيه ، ثم قدرهم فى أداء الواجب متفاوته ، ثم نفس المعرفة تختلف بالاجمال والتفصيل ،والقوة والضعف ، ودوام الحضور ، ومع الغفلة، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التى يثبت الله صاحبها بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والآخرة ، كالمجملة التى غفل عنها ، واذا حصل له ما يريبه فيها، ذكرها فى قلبه ثم رغب الى الله فى كشف الريب .ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله ، وخشية الله ، والتوكل عليه ، والصبر على حكمه والشكر له والانابة اليه ، واخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلا لا يعرف قدره الا الله عز وجل ، ومن أنكر تفاضلهم فى هذا ، فهو اما جاهل لم يتصوره ، واما معاند .

قال الامام احمد : فان زعموا لا يقبلون زيادة الايمان من أجل انهم لا يدرون ما زيادته ، وأنها غير محدودة ، فما يقولون فى أنبياء الله وكتبه ورسله؟ هل يقرون بهم فى الجملة ؟ ويزعمون انه من الايمان ، فاذا قالوا : نعم ، قيل لهم : هل تحدونهم وتعرفون عددهم ؟ أليس انما يصيرون فى ذلك الى الاقرار بهم فى الجملة ثم يكفون عن عددهم ؟ فكذلك زيادة الايمان ، وبين أحمد أن كونهم لم يعرفوا منتهى زيادته ، لا يمنعهم من الاقرار بها فى الجملة ، كما انهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لايعرفون عدد الكتب والرسل .

وهذا الذى ذكره أحمد ، وذكره محمد بن نصر ، وغيرهما ، يبين أنهم لم يعلموا الكتب والرسل ، وأن حديث أبى ذر فى ذلك لم ثبت عندهم .

وأما قول من سوى بين الاسلام والايمان وقال : ان الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام ، وسمى الأسلام بما سمى به الايمان ، فليس كذلك ، فان الله ورسوله قد فسر الايمان بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبين أيضا أن العمل بما أمر يدخل فى الأيمان ، ولم يسم الله الايمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت اسلاماً ، بل انما سمى الاسلام

الاستسلام له بقلبه وقصده واخلاص الدين والعمل بما أمر به، كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه ، فهذا هو الذى سماه الله اسلاماً وجعله دينا وقال : ( ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ) [ آل عمران : ٨٥ ] ولم يدخل فيما خص به الايمان ، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بل ولا اعمال القلوب ، مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك ، فان هذه جعلها من الايمان ، والمسلم المؤمن يتصف بها وليس اذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الاسلام ، بل هى من الايمان ، والاسلام فرض ، والايمان فرض ، والاسلام داخل فيه ، فمن أتى بالايمان الذى أمر به ، فلا بد أن يكون قد اتي بالإسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة ، ومن اتى بما سمى اسلاماً لم يلزم أن يكون قد أتى بالايمان الا بدليل منفصل ، كما علم أن من أثنى الله عليه بالاسلام من الأنبياء واتباعهم الى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين ، كما قال الحواريون : ( آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ) [ آل عمران : ٥٢ ] وقال : ( واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ) [ المائدة : ١١١ ] ولهذا أمرنا الله بهذا فى خطاب واحد ، كما قال: ( قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وأن تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ) [ البقرة : ١٣٦ — ١٣٧ ] وقال فى الآية الأخرى : ( ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو الاخرة من الخاسرين ) [ آل عمران : ٨٥ ] .

وهذا يقضى أن كل من دان بغير دين الأسلام فعمله مردود ، وهو خاسر فى الآخرة ، فيقتضى وجوب دين الاسلام وبطلان ما سواه ، لا يقضى ان مسمى الدين هو مسمى الايمان ، بل أمرنا أن نقول : ( آمنا بالله ) وأمرنا ان نقول : ( ونحن له مسلمون ) ، فأمرنا باثنين ، فكيف نجعلها واحداً ؟ !

واذا جعلوا الاسلام والايمان شيئاً واحداً ، فاما أن يقولوا : اللفظ

مترادف ، فيكون هذا تكريراً محضاً ، ثم مدلول هذا اللفظ عين مدلول هــذا اللفظ ، واما يقولوا بل احد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى ، كما فى أسماء الله وأسماء كتابه ، لكن هذا لا يقتضى الأمر بهما جميعاً ، ولكــن يقتضى أن يذكر تارة بهذا الوصف ، وتارة بهذا الوصف ، فلا يقول قائل : قد فرض الله عليك الصلوات الخمس ، والصلاة المكتوبة ، وهذا هو هــذا ، والعطف بالصفات يكون اذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الــذم ، كقوله : ( سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى . والذى قدر فهــدى ) [ الأعلى : ١ــ٣ ] لا يقال صل لربك الأعلى ، ولربك الذى خلق فسوى .

وقال محمد بن نصر المروزى رحمة الله : فقد بين الله فى كتابه وسنــة رسوله أن الاسلام والايمان لا يفترقان ، فمن صدق بالله فقد آمن به ، ومن آمن بالله فقد خضع له ، وقد أسلم له ، ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما نهى الله عنه ، فقد استكمل الايمان والاسلام المفترض عليه ، ومن ترك من ذاك شيئاً فلن يزول عنه اسم الايمان ولا الاسلام ، الا أنه أنقص من غيره فى الاسلام والايمان من غير نقصان من الاقرار بأن الله حق ، وما قال حق لاباطل وصدق لاكذب ، ولكن ينقص من الايمان الذى هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله ، فمن ذلك يكون النقصان لا من اقرارهم بأن الله حق ، وما قال صدق .

فيقال : ما ذكره يدل على أن من أتى بالايمان الواجب ، فقد أتى بالاسلام وهذا حق ، ولكن ليس فيه ما يدل على أن من أتى بالاسلام الواجب ، فقد أتى بالايمان ، فقوله : من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له ، حق ، لكن أى شىء فى هذا يدل على أن من أسلم لله وخضع له ، فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت ؟ وقوله : ان الله ورسوله قد بين أن الاســلام والايمان لايفترقان ، ان أراد ان الله أوجبهما ونهى عن التفريق بينهما ، فهذا حق ، وان أراد أن الله جعل مسمى هذا مسمى هذا ، فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك ، وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسمين .

وكذلك قوله : من فعل ما أمر به وانتهى عما نهى عنه ، فقد استكمل الايمان والاسلام ، فهذا صحيح اذا فعل ما أمر به باطناً وظاهراً ، ويكون قد استكمل الايمان والاسلام الواجب عليه ، ولا يلزم أن يكون ايمانه واسلامه مساوياً للايمان والاسلام الذى فعله أولو العزم من الرسل ، كالخليل ابراهيم، ومحمد خاتم النبيين ، عليهما الصلاة والسلام ، بل كان معه من الايمان والاسلام مالا يقدر عليه غيره ممن ليس كذلك ، ولم يؤمر به .

وقوله : من ترك من ذلك شيئاً ، فلن يزول عنه اسم الاسلام والايمان الا أنه نقص من غيره فى ذلك ، فيقال : ان اريد بذلك أنه بقى معه شىء من الاسلام والايمان ، فهذا حق كما دلت عليه النصوص ،خلافاً للخوارج والمعتزلة وان أراد انه يطلق بلا تقيد مؤمن ومسلم فى سياق الثناء والوعد بالجنة ، فهذا خلاف الكتاب والسنة ، ولو كان كذلك لدخلوا فى قوله : ( وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار ) [ التوبة : ٧٢ ] وأمثال ذلك مما وعدوا فيه بالجنة بلا عذاب .

وأيضاً : فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم فى غير موضع ، بل قال : « قتال المؤمن كفر » (١) ، وقال : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب » (٢) واذا احتج بقوله : ( وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ) [ الحجرات : ٩ ] ونحو ذلك ، قيل : كل هؤلاء انما سموا به ما التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليذكر ما يؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم .

وكذلك قوله : لا يكون النقصان من اقرارهم بأن الله حق وما قاله صدق، فيقال : بل النقصان يكون فى الايمان الذى فى القلوب من معرفتهم ومن علمهم، فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله وأسمائه وصفاته وما قاله من أمر ونهى ،

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .

لانه اذا نقص لزم ذهابه كله عندهم ان كان متبعضاً متعدداً عند من يقول بذلك وهم الخوارج والمعتزلة ، وأما الجهمية ، فهو واحد عندهم لايقبل التعدد ، فيثبتون واحداً لا حقيقة له ، كما قالوا مثل ذلك فى وحدانية الرب ووحدانيـة صفاته عند من أثبتها منهم .

ومن العجب أن الأصل الذى أوقعهم فى هذا ، اعتقادهم أنه لايجتمـع فى الانسان بعض الايمان وبعض الكفر ، أو ما هو ايمان وما هو كفر ،واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين ، كما ذكر ذلك أبو الحسن وغيره ، فلاجـل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا فيما هو مخالف للاجماع الحقيقى ، واجمـاع السلف الذى ذكره غير واحد من الائمة ، بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم فى الايمان .

ولهذا نظائر متعددة ، يقول الانسان قولا مخالفاً للنص والاجماع القديم حقيقة ، ويكون معتقداً أنه متمسك بالنص والاجماع ، وهذا اذا كان مبلـغ علمه واجتهاده ، فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ، ويغفر له مـا عجز عن معرفته من الصواب الباطن ، وهم لما توهموا أن الايمان الواجب على جميع الناس نوع واحد ، صار بعضهم يظن أن ذلك النوع من حيث هو لايقبل التفاضل ، فقال لى مرة بعضهم : الايمان من حيث هو ايمان لايقبل الزيادة والنقصان . فقلت له : قولك من حيث هو ، كما يقول : الانسان من حيث هو انسان ، والحيوان من حيث هو حيوان ، والوجود من حيث هو وجـود ، والسواد من حيث هو سواد ، وأمثال ذلك لايقبل الزيـادة والنقصـان ، والصفات فيثبت لهذه المسميات وجودا مطلقا مجردا عن جميع القيود والصفات وهذا لا حقيقة له فى الخارج ، وانما هو شىء يقدره الانسان فى ذهنه ، كمـا يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً ، ولا قائما بنفسه ولا بغيره ، ويقدر انساناً لا موجودا ولا معدوما ، ويقول : الماهية من حيث هى هى لاتوصف بوجود ولا عدم ، والماهية من حيث هى هى شىء يقدره الذهن ، وذلك موجود فى الذهن لا فى الخارج . وأما تقدير شىء لا يكون فى الذهن ، ولا فى الخارج ، فممتنع ،

ووعد ووعيد ، كمعرفة غيرهم وتصديقه ، لا من جهة الاجمال والتفصيل ، ولا من جهة القوة والضعف ، ولا من جهة الذكر والغفلة ، وهذه الأمور كلها داخلة فى الايمان بالله وبما أرسل به رسوله ، وكيف يكون الايمان بالله وبأسمائه وصفاته متماثلا فى القلوب ؟ ! أم كيف يكون الايمان بأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وأنه غفور رحيم ، عزيز حكيم ، شديد العقاب ، ليس هو من الايمان به ؟ ! فلا يمكن مسلماً أن يقول : ان الايمان بذلك ليس من الايمان به، ولا يدعى تماثل الناس فيه .

وأما ما ذكره من أن الاسلام ينقص كما ينقص الايمان ، فهذا أيضاً حق كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، فان من نقص من الصلاة والزكـــاة أو الصوم أو الحج شيئاً ، فقد نقص من اسلامه بحسب ذلك . ومن قال : ان الاسلام هو الكلمة فقط ، وأراد أنه لايزيد ولا ينقص ، فقوله خطأ . ورد الذين جعلوا الاسلام والايمان سواء ، انما يتوجه على هؤلاء ، فان قولهم فى الاسلام يشبه قول المرجئة فى الايمان .

ولهذا صار الناس فى الايمان والاســـلام على ثلاثة اقـــوال فالمرجئة يقولون : الاسلام افضل ، فانه يدخل فيه الايمان ، وآخرون يقولون : الايمان والاسلام سواء ، وهم المعتزلة والخوارج ، وطائفة من أهل الحديث والسنة وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم ، وليس كذلك .

والقول الثالث أن الايمان أكمل وأفضل ، وهذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة فى غير موضع ، وهو المأثور عن الصحابة ، والتابعين لهم باحسان

ثم هؤلاء منهم من يقول : الاسلام مجرد القول ، والأعمال ليست مـــن الاسلام . والصحيح أن الاسلام هو الأعمال الظاهرة كلها ، وأحمد انما منع الاستثناء فيه على قول الزهرى : هو الكلمة ، هكذا نقل الأثرم ، والميمونى، وغيرهما ، عنه ، وأما على جوابه الآخر الذى لم يختر فيه من قال : الاسلام الكلمة ، فيستثنى فى الاسلام كما يستثنى فى الايمان ، فان الانسان لايجزم بأنه

قد فعل كل ما امر به من الاسلام واذا قال النبى ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (١) و « بنى السلام على خمس » (٢) فجزمه بأنه فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بايمانه ، فقد قال تعالى : ( ادخلوا فى السلم كافة ) [ البقرة : ٢٠٨ ] أى : الاسلام كافة ، أى : فى جميع شرائع الاسلام.

وتعليل احمد وغيره من السلف ما ذكروه فى اسم الايمان يجىء فى اسم الاسلام ، فاذا أريد بالاسلام الكلمة فلا استثناه فيه،كما نص عليه أحمد وغيره، واذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة كلها ، فالاستثناء فيه كالاستثناء فى الايمان ، ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلماً متميزاً عن اليهود والنصارى تجرى عليه احكام الاسلام التى تجرى على المسلمين ،كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه ، فلهذا قال الزهرى : الاسلام الكلمة .وعلى ذلك وافقه أحمد وغيره ، وحين وافقه لم يرد أن الاسلام الواجب هو الكلمة وحدها ، فان الزهرى أجل من أن يخفى عليه ذلك ، ولهذا أحمد لم يجب بهذا فى جوابه الثانى ، خوفاً من أن يظن أن الاسلام ليس هو الا الكلمة ، ولهذا لما قال الاثرم لأحمد : فاذا قال : أنا مسلم فلا يستثنى ؟ قال نعم : لايستثنى اذا قال : انا مسلم ، فقلت له اقول : هذا مسلم وقد قال النبى ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأنا أعلم انه لا يسلم الناس منه ، فذكر حديث معمر عن الزهرى قال : فنرى أن الاسلام الكلمة ، والايمان العمل .

فبين أحمد أن الاسلام اذا كان الكلمة فلا استثناء فيها ، فحيث كان هو المفهوم من لفظ الاسلام فلا استثناء فيه ، ولو أريد بالايمان هذا ، كما يراد ذلك فى مثل قوله : ( فتحرير رقبة مؤمنة ) [ النساء : ٩١ ] فانما أريد من أظهر الاسلام ، فان الايمان الذى علقت به أحكام الدنيا ، هو الايمان

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .

الظاهر وهو الاسلام ، فالمسمى واحد فى الأحكام الظاهرة ، ولهذا لما ذكر الأثرم لأحمد احتجاج المرجئة بقول النبى ﷺ : « اعتقها فانها مؤمنة » أجابه بأن المراد حكمها فى الدنيا حكم المؤمنه ، لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار اذا لقيته بمجرد هذا الاقرار ، وهذا هو المؤمن المطلق فى كتاب الله ، وهو الموعود بالجنة بلا نار اذا مات على ايمانه ، ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون من شهد لنفسه بالايمان أن يشهد لها بالجنة يعنون اذا مات على ذلك ، فانه قد عرف أن الجنة لا يدخلها الا من مات مؤمناً .

فاذا قال الانسان : انا مؤمن قطعاً ، وأنا مؤمن عند الله . قيل له : فاقطع بأنك تدخل الجنة بلا عذاب اذا مت على هذا الحال ، فان الله اخبر ان المؤمنين فى الجنة . وانكر احمد بن حنبل حديث ابن عميرة ان عبد الله رجع عن الاستثناء ، قال فان ابن مسعود لما قيل له : ان قوماً يقولون : انا مؤمنون، فقال : افلا سألتموهم افى الجنة هم ؟ وفى رواية : افلا قالوا : نحن أهل الجنة، وفى رواية قيل له : ان هذا يزعم انه مؤمن ، قال : فاسألوه أفى الجنة هو أو فى النار ؟ فسألوه فقال : الله أعلم ، فقال له عبد الله : فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية ؟ من قال : أنا مؤمن فهو كافر ، ومن قال : أنا عالم فهو جاهل، ومن قال : هو فى الجنة فهو فى النار ، يروى عن عمر ابن الخطاب من وجوه مرسلا من حديث قتادة ونعيم بن أبى هند وغيرهما .

والسؤال الذى توردة المرجئة عن ابن مسعود ويقولون : ان يزيد بن عميرة اورده عليه حتى رجع ، جعل هذا ان الانسان يعلم حاله الآن ، وما يدرى ماذا يموت عليه ، ولهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون : المؤمن هو من سبق فى علم الله انه يختم له بالايمان ، والكافر من سبق فى علم الله أنه كافر ، وأنه لا اعتبار بما كان قبل ذلك ، وعلى هذا يجعلون الاستثناء ، وهذا احد قولى الناس من اصحاب أحمد وغيرهم ، وهو قول ابى الحسن واصحابه .

ولكن احمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم ، وانما مقصودهم

أن الايمان المطلق يتضمن فعل المأمورات . فقوله : أنا مؤمن ، كقوله : أنا ولى الله ، وأنا مؤمن تقى ، وأنا من الابرار ، ونحو ذلك ، وابن مسعود رضى الله عنه لم يكن يخفى عليه أن الجنة لاتكون الا لمن مات مؤمناً ، وأن الانسان لا يعلم على ماذا يموت ، فان ابن مسعود أجل قدراً من هذا ، وانما أراد : سلوه هل هو فى الجنة ان مات على على هذه الحال ؟ كأنه قال : سلوه أيكون من أهل الجنة على هذه الحال ؟ فلما قال : الله ورسوله أعلم ، قال : افلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية . يقول : هذا التوقف يدل على انك لاتشهد لنفسك بالواجبات وترك المحرمات ، فانه من شهد لنفسه بذلك شهد انه من أهل الجنة ان مات على ذلك ، ولهذا صار الذين لايرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر ، بل للموافاة ، لايقطعون بأن الله يقبل توبة تائب ، كما لا يقطعون بأن الله تعالى يعاقب مذنباً ، فانهم لو قطعوا بقبول توبته ، لزمهم أن يقطعوا له بالجنة ، وهم لايقطعون لأحد من أهل القبلة لابجنة ولا نار ، الا من قطع له النص .

واذا قيل : الجنة هى لمن اتى بالتوبة النصوح من جميع السيئات . قالوا : ولو مات على هذه التوبة لم يقطع له بالجنة ، وهم لا يستثنون فى الاحوال ، بل يجزمون بأن المؤمن مؤمن تام الايمان ، ولكن عندهم الايمان عند الله هو ما يوافى به ، فمن قطعوا له بأنه مات مؤمناً لاذنب له قطعوا له بالجنة ، فهذا لايقطعون بقبول التوبة لئلا يلزمهم أن يقطعوا بالجنة ، وأما أئمة السلف فانما لم يقطعوا بالجنة ، لأنهم لا يقطعون بأنه فعل المأمور وترك المحظور ، ولا انه اتى بالتوبة النصوح ، والا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحاً ، قبل الله توبته .

وجماع الأمر ان الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به ، فلا يجب اذا اثبت أو نفى فى حكم أن يكون كذلك فى سائر الأحكام ، وهذا فى كلام العرب وسائر الأمم ، لان مفهوم ، مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين فى موضع آخر يقال : ما هم منهم ، قال الله تعالى : ( قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا اشحة

عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ) [ الأحزاب : ١٨، ١٩] فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو ، الناهين لغيرهم ، الذامين للمؤمنين : منهم . وقال فى آية أخرى : ( ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون ) [ التوبة : ٥٦، ٥٧ ] وهؤلاء ذنبهم أخف ، فانهم لم يؤذوا المؤمنين لابنهى ولا سلق بألسنة حداد ، ولكن حلفوا بالله انهم من المؤمنين فى الباطن بقلوبهم ، والا فقد علم المؤمنون أنهم منهم فى الظاهر ، فكذبهم الله وقال: ( وما هم منكم ) وهناك قال : ( قد يعلم الله المعوقين منكم ) فالخطاب لمن كان فى الظاهر مسلماً ، وليس مؤمناً بأن منكم من بهذه الصفة ، وليس مؤمناً ، بل أحبط الله عمله ، فهو منكم فى الظاهر لا الباطن .

ولهذا لما استؤذن النبى ﷺ فى قتل بعض المنافقين قال : « لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (١) فانهم من أصحابه فى الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور ، وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق ،كالذين علموا سنته الناس وبلغوها اليهم ، وقاتلوا المرتدين بعد موته ، والذين بايعوه تحت الشجرة وأهل بدر وغيرهم ، بل الذين كانوا منافقين ، غمار (١) من الناس .

وكذلك الانساب مثل كون الانسان أبا لآخر أو أخاه ، يثبت فى بعض الأحكام دون بعض ، فانه قد ثبت فى « الصحيحين » أنه لما اختصم الى النبى ﷺ سعد بن أبى وقاص ، وعبد بن زمعة بن الأسود فى ابن وليدة زمعة ، وكان عتبة بن أبى وقاص قد فجر بها فى الجاهلية وولدت منه ولداً ، فقال عتبة لأخيه سعد : اذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فانه ابنى ، فاختصم فيه هو وعبد زمعة الى النبى ﷺ ، فقال سعد : يارسول الله ! ابن أخى عتبة

---

(١) رواه البخارى .
(١) غمار الناس : من لم يجرب الأمور .

عهد الى أخى عتبة فيه ، اذا قدمت مكة انظر الى ابن وليدة زمعة ، فانه ابنى الا ترى يارسول الله شبهه بعتبة ؟ فقال عبد : يارسول الله أخى وابن وليدة ابى ، ولد على فراش ابى ، فرأى النبى ﷺ شبهاً بيناً بعتبة فقال : « هو لك ياعبد بن زمعة ، الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبى منه ياسودة» لما رأى من شبهه البين بعتبة ، فقد جعله النبى ﷺ ابن زمعة لأنه ولد على فراشه ، وجعله اخاً لولده بقوله : « فهو لك ياعبد بن زمعة » وقد صارت أخته يرثها وترثه ، لأنه ابن ابيها زمعة ، ولد على فراشه . ومع هذا فأمرها النبى ﷺ ان تحتجب منه ، لما رأى من شبهه البين بعتبة ، فانه قام فيه دليلان متعارضان : الفراش والشبه والنسب فى الظاهر لصاحب الفراش اقوى ، ولأنها أمر ظاهر مباح ، والفجور أمر باطن لايعلم ، ويجب ستره لا اظهاره كما قال : « للعاهر الحجر » ، كما يقال بفيك الكثكث (١) ، وبفيك الأثلب ،أى: عليك أن تسكت عن اظهار الفجور ، فان الله يبغض ذلك ، ولما كان احتجابها منه ممكنا من غير ضرر ، أمرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على أنه ليس اخاها فى الباطن .

فتبين أن الاسم الواحد ينفى فى حكم ويثبت فى حكم ، فهو أخ فى الميراث وليس بأخ فى المحرمية ، وكذلك ولد الزنا عند بعض العلماء ، وابن الملاعنة عند الجميع الا من شذ ، ليس بولد فى الميراث ونحوه ، وهو ولد فى تحريم النكاح والمحرمية .

ولفظ النكاح وغيره فى الامر ، يتناول الكامل ، وهو العقد والوطء ، كما فى قوله : ( فانكحوا ما طاب لكم من النساء ) [ النساء : ٣ ] وقوله : ( حتى تنكح زوجا غيره ) [ البقرة : ٢٣٠ ] وفى النهى يعم الناقص والكامل ، فينهى عن العقد مفردا ،وان لم يكن وطء ، كقوله : ( ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ) [ النساء : ٢١ ] ، وهذا لان الامر مقصوده تحصيل المصلحة انما

---

(١) الكثكث : التراب

يكون بالدخول كما لو قال : اشتر لى طعاما ، فالمقصود ما يحصل الا بالشراء والقبض ، والناهى مقصوده دفع المفسدة ، فيدخل كل جزء منه ، لان وجوده مفسدة ، وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه ، والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع .

وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال ، ينفى تارة باعتبار انتفاء كماله ، ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه ، فلفظ الرجال يعم الذكور وان كانوا صغارا فى مثل قوله : ( وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين ) [ النساء : ١٧٥ ] ولا يعم الصغار فى مثل قوله : ( والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من القرية الظالم اهلها ) [ النساء : ٧٠ ] فان باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه ، فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن ان الولدان غير داخلين ، لانهم ليسوا من اهله ، وهم ضعفاء ، فذكرهم بالاسم الخاص ، ليبين عذرهم فى ترك الهجرة، ووجوب الجهاد . وكذلك الايمان له مبدأ ، وكمال ، وظاهر ، وباطن ، فاذا علقت به الاحكام الدنيوية من الحقوق والحدود ، كحقن الدم ، والمال ، والمواريث ، والعقوبات الدنيوية ، علقت بظاهره ، لا يمكن غير ذلك ، اذ تعليق ذلك بالباطن متعذر ، وان قدر أحيانا ، فهو متعسر علما وقدرة ، فلا يعلم ذلك علما يثبت به فى الظاهر ، ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه فى الباطن .

وبهذين المثلين كان النبى ﷺ يمتنع من عقوبة المنافقين ، فان فيهم من لم يكن يعرفهم ، كما أخبر الله بذلك ، والذين كان يعرفهم ، لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ، ولقال الناس : ان محمدا يقتل اصحابه ، فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الاسلام ، اذ لم يكن الذنب ظاهرا ، يشترك الناس فى معرفته . ولما هم بعقوبة من يتخلف عن الصلاة ، منعه من فى البيوت من النساء والذرية ، وأما مبدؤه فيتعلق به خطاب الامر والنهى ، فاذا قال الله :

( يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة ) [ المائدة : ٦ ] ونحو ذلك ، فهو أمر فى الظاهر لكل من اظهره ، وهو خطاب فى الباطن لكل من عرف من نفسه أنه مصدق للرسول ، وان كان عاصيا ، وان كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة ، وذلك انه ان كان لفظ : ( الذين آمنوا ) يتناولهم فلا كلام ، وان كان لم يتناولهم فذلك لذنوبهم ، فلا تكون ذنوبهم مانعة من أمرهم بالحسنات التى ان فعلوها كانت سبب رحمتهم ، وان تركوها كان أمرهم بها ، وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الايمان ، والكافر يجب عليه أيضا ، لكن لا يصح منه حتى يؤمن ، وكذلك المنافق المحض لا يصح منه فى الباطن حتى يؤمن .

وأما من كان معه أول الايمان ، فهذا يصح منه ، لان معه اقراره فى الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول ، وتحريم ما حرمه ، وهذا سبب الصحة ، وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار ، فان هذا الوعد انما هو لمن فعل المأمور وترك المحظور ، ومن فعل بعضا وترك بعضا ، فيثاب على ما فعله ، ويعاقب على ما تركه ، فلا يدخل هذا فى اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء ، دون الذم والعقاب . ومن نفى عنه الرسول فنفى الايمان فى هذا الحكم ، لانه ذكر على سبيل الوعيد ، والوعيد انما يكون بنفى ما يقتضى الثواب ، ويدفع العقاب ، ولهذا ما فى الكتاب والسنه من نفى الايمان عن أصحاب الذنوب ، فانما هو فى خطاب الوعيد والذم ، لا فى خطاب الامر والنهى ، ولا فى أحكام الدنيا .

واسم الاسلام والايمان والاحسان هي أسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لاهلها ، فبين النبى ﷺ أن العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذى بينه ، ولهذا كان من نفى عنهم الايمان ، أو الايمان والاسلام جميعا ، ولم يجعلهم كفارا ، انما نفى ذلك فى أحكام الاخرة ، وهو الثواب ، ولم ينفه فى أحكام الدنيا ، لكن المعتزلة ظنت انه اذا انتفى الاسم انتفت جميع اجزائه ، فلم يجعلوا معهم شيئا من الايمان والاسلام ، فجعلوهم

مخلدين فى النار ، وهذا خلاف الكتاب والسنة واجماع السلف ، ولو لم يكن معهم شيء من الايمان والاسلام ، لم يثبت فى حقهم شيء من احكام المؤمنين والمسلمين ، لكن كانوا كالمنافقين . وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع التفريق بين المنافق الذى يكذب الرسول فى الباطن ، وبين المؤمن المذنب ، فالمعتزلة سووا بين اهل الذنوب وبين المنافقين فى أحكام الدنيا والاخرة ، فى نفى الاسلام والايمان عنهم ، بل قد يثبتونه للمنافق ظاهرا ، وينفونه عن المذنب باطنا وظاهرا .

فان قيل : فاذا كان كل مؤمن مسلما ، وليس كل مسلم مؤمنا الايمان الكامل كما دل عليه حديث جبريل وغيره من الأحاديث مع القرآن ، وكما ذكر ذلك عمن ذكر عنه من السلف ، لان الاسلام الطاعات الظاهرة ، وهو الاستسلام والانقياد ، لان الاسلام فى الاصل هو الاستسلام والانقياد ، وهذا هو الانقياد والطاعة ، والايمان فيه معنى التصديق والطمانينة ، وهذا قدر زائد ، فما تقولون فيمن فعل ما أمر الله ، وترك ما نهى الله عنه مخلصا لله تعالى ظاهرا وباطنا ؟ اليس هذا مسلما باطنا وظاهرا ، وهو من أهل الجنة ، واذا كان كذلك فالجنة لا يدخلها الا نفس مؤمنة ، فهذا يجب ان يكون مؤمنا .

قلنا : قد ذكرنا غير مرة أنه لابد أن يكون معه الايمان الذي وجب عليه ، اذ لو لم يؤد الواجب ، لكان معرضا للوعيد ، لكن قد يكون من الايمان ما لا يجب عليه اما لكونه لم يخاطب به ، أو لكونه كان عاجزا عنه ، وهذا أولى ، لان الايمان الموصوف فى حديث جبريل ، والاسلام ، لم يكونا واجبين فى أول الاسلام ، بل ولا واجبا على من تقدم قبلنا من الامم إتباع الانبياء اهل الجنة ، مع أنهم مؤمنون مسلمون ، ومع أن الاسلام دين الله الذى لا يقبل دينا غيره ، وهو دين الله فى الاولين والاخرين ، لان الاسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر ، فقد تتنوع أوامره فى الشريعة الواحدة ، فضلا عن الشرائع ، فيصير بعض الايمان بما يخرج عنه فى وقت آخر ، كالصلاة إلى الصخرة ، كان من الاسلام حين كان الله أمر به ، ثم خرج من الاسلام لما نهى الله عنه .

ومعلوم ان الخمس المذكورة فى حديث جبريل ، لم تجب فى أول الامر ، بل الصيام والحج وفرائض الزكاة ، انما وجبت بالمدينة ، والصلوات الخمس انما وجبت ليلة المعراج ، وكثير من الاحاديث ليس فيهـا ذكر الحج لتأخـر وجوبه الى سنة تسع أو عشر على أصح القولين ، ولما بعث الله محمدا ﷺ كان من اتبعه وآمن بما جاء به ، مؤمنا مسلما ، واذا مات كان من أهل الجنة ، ثم انه بعد هذا زاد الايمان والاسلام ، حتى قال تعالى : ( اليوم أكملت لكـم دينكم ) [ المائدة : ٣ ] وكذلك الايمان ، فان هذا الايمان المفصل الذى ذكـره فى حديث جبريل ، لم يكن مأمورا به فى أول الامر لما انزل الله سورة العـلق والمدثر ، بل انما جاء هذا فى السور المدنية ، كالبقـرة ، والنساء ، واذا كان كذلك لم يلزم أن يكون هذا الايمان المفصل واجبا على من تقدم قبلنا ، واذا كان كذلك ، فقد يكون الرجل مسلما يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ، ومعـه الايمان الذى فرض عليه ، وهو من أهل الجنة وليس معه هذا الايمان المذكور فى حديث جبريل ، لكن هذا يقال : معه ما أمر به من الايمان والاسلام ، وقـد يكون مسلما يعبد الله كما أمره ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه ، ولكن لم يخلص الى قلبه أن يكون الله ورسـوله أحب اليـه ممـا سواهما ، ولا أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب اليه من جميع أهله وماله ، وأن يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، وأن يخاف الله لا يخاف غيره ، وأن لا يتوكل الا على الله ، وهذه كلهامن الايمان الواجب ، وليست من لوازم الاسلام ، فان الاسلام هو الاستسلام وهو يتضمن الخضوع لله وحده ، والانقيـاد له ، والعبوديـة لله وحده ، وهذا قد يتضمن خوفه ورجاءه .وأما طمأنينة القلب بمحبته وحـده ، وأن يكون أحب اليه مما سواهما ، وبالتوكل عليه وحده ، وبأن يحب لاخيـه المؤمن ما يحب لنفسه ، فهذه من حقائق الايمـان التى تختص به ، فمـن لم يتصف بها ، لم يكن من المؤمنين حقا وان كان مسلما ، وكذلك وجل قلبه اذا ذكر الله ، وكذلك زيادة الايمان اذا تليت عليه آياته .

فان قيل : ففوات هذا الايمان من الذنـوب أم لا ؟ قيل : اذا لم يبـلغ الانسان الخطاب الموجب لذلك ، لايكون تركه من الذنوب وأما أن بلغه الخطاب

الموجب لذلك ، فلم يعمل به ، كان تركه من الذنوب اذا كان قادرا على ذلك ، وكثير من الناس أو أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التى تدخل فى الايمان ، مع انهم قائمون بالطاعة الواجبة فى الاسلام ، واذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها ،وحقائق الايمان التى فى القلوب لا يعرفون وجوبها ، بل ولا أنها من الايمان ، بل كثير ممن يعرفها منهم يظن أنها من النوافل المستحبة ان صدق بوجودها .

فالاسلام يتناول من أظهر الاسلام وليس معه شىء من الايمان ؛ هو المنافق المحض ، ويتناول من اظهر الاسلام مع التصديق المجمل فى الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا ، وهم الفساق يكون فى أحدهم شعبة نفاق ، ويتناول من أتى بالاسلام الواجب وما يلزمه من الايمان ، ولم يأت بتمام الايمام الواجب . وهؤلاء ليسوا فساقا تاركين فريضة ظاهرة ، ولا مرتكبين محرما ظاهرا ، لكن تركوا من حقائق الايمان الواجبة علما ، وعملا بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين ، وهذا هو النفاق الذى كان يخافه السلف على نفوسهم ، فان صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق . وبعد هذا ما ميز الله به المقربين على الابرار أصحاب اليمين من ايمان وتوابعه ، وذلك قد يكون من باب المستحبات ، وقد يكون أيضا مما فضل الله به المؤمن ايمانا واسلاما مما وجب عليه ولم يجب على غيره ، ولهذا قال النبى ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » (١) وفى الحديث الاخر : « ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل » (٢) فان مراده أنه لم يبق بعد هذا الانكار ما يدخل فى الايمان حتى يفعله المؤمن ، بل الانكار بالقلب آخر حدود الايمان ، ليس مراده أن من لم ينكر ذلك لم يكن معه من الايمان حبة خردل ،

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

ولهذا قال : « ليس وراء ذلك » ، فجعل المؤمنين ثلاث طبقات ، وكل منهم فعل الايمان الذى يجب عليه ، لكن الاول لما كان اقدرهم ، كان الذى يجب عليه أكمل مما يجب على الثانى ، وكان ما يجب على الثانى اكمل مما يجب على الاخر ، وعلم بذلك ان الناس يتفاضلون فى الايمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب اليهم كلهم .

## فصـــل

وأما الاستثناء فى الايمـان بقول الرجـل : أنا مؤمن ان شـاء الله ، فالناس فيه على ثلاثة أقوال : منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجوز الامرين باعتبارين ، وهذا أصح الاقوال ، فالذين يحرمونه هم المرجئـة والجهمية ونحوهم ، ممن يجعل الايمان شيئا واحدا يعلمه الانسان من نفسه ، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما فى قلبه ، فيقول أحدهم : أنا أعلم أنى مؤمن ، كما أعلم انى تكلمت بالشهادتين ، وكما أعلم انى قرأت الفاتحة ، وكما أعلم أنى احب رسول الله ، وانى أبغض اليهود والنصارى . فقـولى : أنا مؤمن ، كقولى : انا مسلم ، وكقولى : تكلمت بالشهادتين ، وقرأت الفاتحة ، وكقولى : أنا ابغض اليهود والنصارى ، ونحو ذلك من الامور الحاضرة التى أنا أعلمها [illegible] لايجوز أن يقال : أيا قرأت الفاتحة أن شـ[illegible] كذلك لا يقول : أنا مؤمن ان شاء الله ، لكن اذا كان يشك فى ذلك فيقـول : فعلته ان شاء الله ، قالوا : فمن استثنى فى ايمانه فهو شاك فيـه وسموهم الشكاكة .

والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان :

أحدهما : ان الايمان هو ما مات عليه الانسان ، والانسان انما يكـون عند الله مؤمنا وكافرا ، باعتبار الموافاة وما سـبق فى علم الله أنه يكـون عليه ، وما قبل ذلك لاعبرة به . قالوا : والايمان الذى يتعقبه الكفر ، فيموت صاحبه كافراً ، ليس بايمان ، كالصلاة التى يفسدها صاحبها قبل الكمـال ، وكالصيام الذى يفطر صاحبه قبل الغروب ، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما

يموت عليه ، وكذلك قالوا فى الكفر ، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث ، من قولهم: أنا مؤمن ان شاء الله ، ويريد مع ذلك أن الايمان لايتفاضل ، ولا يشك الانسان فى الموجود منه ، وانما يشك فى المستقبل ، وانضم الى ذلك أيهم يتولون :محبة الله ورباه ورضاه وسخطه وبعضه قديم . ثم هل ذلك هو الارادة أم صفات أخر ؟ لهم فى ذلك قولان ، وأكثر قدمائهم يقولون : أن الرضى والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هى الارادة ، كما أن السمع والبصر ليس هو العلم ، وكذلك الولاية والعداوة ، هذه كلها صفات قديمة أزلية عند أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ومن اتبعه من المتكلين ، ومن أتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم .

قالوا : والله يحب فى ازلة من كان كافراً اذا علم أنه يموت مؤمناً .

... مازالوا محبوبين لله وان كانوا قد عبدو الاصنام مدة من الدهر وابليس مازال الله يبغضه وان كان يكفر بعد ، وهذا على احد القولين لهم ، ... ى و ... يرجع الى الارادة ، والارادة تطابق العلم . فالمعنى : مازال الله يريد أن يثبت هؤلاء بعد ايمانهؤ ، ويعاقب ابليس بعد كفره ، وهذا معنى صحيح ، فان الله يريد أن يخلق كل ما علم أن سيخلقه .وعلى قول من يثبتها صفات أخر ، يقول هو أيضاً : حبه تابع لمن يريد أن يثيبه ، فكل من أراد ثابته ، فهو يحبه وكل من أراد عقوبته ، فانه يبغضه ، وهذا تابع للعلم ، و ... عند هم لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطاً عليه ، ولا يفرح بتوبة عبد ... ان تاب عليه ، بل ما زال يفرح بتوبته ، والفرح عندهم اما الارادة وأما الرضى ، والمعنى : مازال يريد اثباته وكذلك لايغضب عندهم يوم القيامة دون ما قبله ، بل غضبه قديم اما بمعنى الارادة واما بمعنى آخر .

فهؤلاء يقولون : اذا علم أن الانسان يموت كافراً ، لم يزل مريداً لعقوبته .ذاك الايمان الذى كان معه ، باطل لا فائدة فيه ، بل وجوده كعدمه ، فليس هذا بمؤمن اصلا ، واذا علم أنه يموت مؤمناً ، لم يزل مريداً لا ثابته ، وذاك

الكفر الذى فعله وجوده كعدمه . فلم يكن هذا كافراً عندهم أصلا ، فهـؤلاء يستثنون فى الايمان بناء على هذا المأخذ ، وكذلك بعض محققيهم يستثنون فى الكفر ، مثل أبى منصور الماتريدى ، فان ما ذكروه مطرد فيهما ، ولكن جماهير الائمة على أنه لا يستثنى فى الكفر ، والاستثناء فيه بدعه لم يعرف عن أحـد من السلف ، ولكن هو لازم لهم .

والذين فرقوا من هؤلاء قالوا : يستثنى فى الايمان رغبة الـى الله فى أن يثبتنا عليه الى الموت ، والكفر لايرغب فيه أحد ، لكن يقال : اذا كان قولك : مؤمن ، كقولك : فى الجنة ، فأنت تقول عن الكافر : هو كافر ، ولاتقول : هو فى النار الا معلقاً بموته على الكفر ، فدل على أنه كافر فى الحال قطعاً ، وان جاز أن يصير مؤمناً ، كذلك المؤمن . وسواء أخبر عن نفسه أو عن غيره . فلو قيل عن يهودى أو نصرانى : هذا كافر ، قال : ان شاء الله ، اذا لم يعلم أنه يموت كافراً ، وعند هؤلاء لايعلم أحد أحداً مؤمناً الا اذا علم أنه يموت عليه وهذا القول قاله كثير من اهل الكلام اصحاب ابن كلاب ، ووافقهم على ذلك كثير من اتباع الائمة ، لكن ليس هذا قول أحد من السلف ، لا الائمة الاربعة ولا غيرهم ، ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون فى الايمان يعللون بهذا ، لا أحمد ولا من قبله .

ومأخذ هذا القول طرده طائفة ممن كانوا فى الاصل يستثنون فى الايمان اتباعاً للسلف ، وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف ، وكان اهل الشـام شديدين على المرجئة ، وكان محمد بن يوسف صاحب الثورى مرابطاً بعسقلان لما كانت معمورة ، وكانت من خيار ثغور المسلمين ، ولهذا كان فيها مضائـل لفضيلة الرباط فى سبيل الله ، وكانوا يستثنون فى الايمان اتباعاً للسلـف ، واستثنوا أيضاً فى الأعمال الصالحة ، كقوله الرجل : صليت أن شاء الله ونحو ذلك ، بمعنى القبول ، لما فى ذلك من الآثار عن السلف . ثم صار كثير مـن هؤلاء بآخرة يستثنون فى كل شىء ، فيقول : هذا ثوبى ان شاء الله ، وهـذا حبل ان شاء الله . فاذا قيل لأحدهم : هذا لاشك فيه ، قال : نعم لا شك فيه

لكن اذا شاء الله أن يغيره غيره ، فيريدون بقولهم : ان شاء الله جواز تغييره في المستقبل ، وان كان في الحال لاشك فيه ، كأنه الحقيقة عندهم التي لا يستثنى فيها ما لم تتبدل ، كما يقوله أولئك في الايمان : ان الايمان ما علم الله أنه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه .

لكن هذا القول قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء تلقوا ذلك عن بعض اتباع شيخهم ، وشيخهم الذي ينتسبون اليه يقال له: أبو عمرو عثمان بن مرزوق ، لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء ، بل كان في الاستثناء على طريقة من كان قبله ، ولكن أحدث ذلك بعض أصحابه بعده ، وكان شيخهم منتسباً الى الامام أحمد ، وهو من أتباع عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج المقدسي ، وابو الفرج من تلامذة القاضي ابي يعلى ، وهؤلاء كلهم وان كانوا منتسبين الى الامام أحمد ، فهم يوافقون ابن كلاب على أصله الذي كان أحمد ينكره على الكلابية ، وأمر بهجر الحارث المحاسبي من اجله ، كما وافقه على أصله طائفة من أصحاب مالك ، والشافعي ، وابي حنيفة ، كأبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي منصور الماتريدي ، وغيرهم ، وقول هؤلاء في مسائل متعددة من مسائل الصفات وما يتعلق بها ، كمسألة القرآن ، هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ؟ أم القرآن لازم لذاته ؟ وقولهم في الاستثناء مبني على على ذلك الأصل .

وكذلك بناه الاشعري واتباعه عليه ، لأن هؤلاء كلهم كلابية ، يقولون : ان الله لم يتكلم بمشيئة وقدرته ، ولا يرضى ولايغضب على أحد بعد ايمانه وكفره ، ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته ، ولهذا وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق . ثم قالوا : انه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته، ثم اختلفوا بعد هذا في القديم ، أهو معنى واحد ؟ أم حروف قديمة مع تعاقبها؟ كما بسطت اقوالهم واقوال غيرهم في مواضع آخر .

وهذه الطائفة المتأخرة تنكر أن يقال : قطعاً في شيء من الأشياء ، مع غلوهم في الاستثناء ، حتى صار هذا اللفظ منكراً عندهم ، وان قطعوا بالمعنى

فيجزمون بأن محمداً رسول الله ، وأن الله ربهم ، ولا يقولون : قطعاً ، وقد اجتمع بى طائفة منهم ، فأنكرت عليهم ذلك ، وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا : قطعاً ، وأحضروا لى كتاباً فيه أحاديث عن النبى ﷺ ، أنه نهى أن يقول الرجل : قطعاً ، وهى أحاديث موضوعة مختلفة ، قد افتراها بعض المتأخرين .

والمقصود هنا أن الاستثناء فى الايمان لما علل مثل تلك العلة . طرد أقوام تلك العلة فى الاشياء التى لايجوز الاستثناء فيها باجماع المسلمين ، بناء على أن الاشياء الموجودة الآن ، اذا كانت فى علم الله تتبدل أحوالها ، فيستثنى فى صفاتها الموجودة فى الحال ، ويقال : هذا صغير ان شاء الله ، لأن الله قد يجعله كبيراً ، ويقال : هذا مجنون ان شاء الله ، لأن الله قد يجعله عاقلا ، ويقال للمرتد : هذا كافر ان شاء الله لامكان أن يتوب . وهؤلاء الذين استثنوا فى الايمان بناء على هذا المأخذ ، ظنوا هذا قول السلف ، وهؤلاء وأمثالهم من أهل الكلام ينصرون ماظهر من دين الاسلام ، كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين ، فينصرون اثبات الصانع ، والنبوة والمعاد ، ونحو ذلك ، وينصرون مع ذلك ماظهر من مذاهب أهل السنة والجماعة ، كما ينصر ذلك الكلابية ، والكرامية ، والأشعرية ، ونحوهم ، فينصرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يرى فى الآخرة ، وأن أهل القبلة لايكفرون بالذنب ، ولايخلدون فى النار ، وأن النبى ﷺ له شفاعة فى أهل الكبائر ، وأن فتنة القبر حق ، وعذاب القبر حق وحوض نبينا ﷺ فى الآخرة حق ، وأمثال ذلك من الأقوال التى شاع أنها من أصول أهل السنة والجماعة ، كما ينصرون خلافة الخلفاء الأربعة ، وفضيلة أبى بكر وعمر ونحو ذلك .

وكثير من أهل الكلام فى كثير مما ينصره لا يكون عارفاً بحقيقة دين الاسلام فى ذلك ، ولا جاءت به السنة ، ولا ما كان عليه السلف . فينصر ما ظهر من قولهم بغير المآخذ التى كانت مآخذهم فى الحقيقة ، بل بمآخذ أخر قد تلقوها عن غيرهم من أهل البدع ، فيقع فى كلام هؤلاء من التناقص والاضطراب والخطأ

مانم به السلف ، مثل هذا الكلام وأهله ، فان كلامهم فى ذم مثل الكلام كثير ، و الكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسنة ، وكل ما خالف الكتاب والسنة ، فهو باطل ، وكذب ، فهو مخالف للشرع والعقل ، ( وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ) [ الأنعام : ١١٥ ] . فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن اهل السنة أنهم يستثنون فى الايمان ، ورأوا أن هذا لايمكن الا اذا جعل الايمان هو ما يموت العبد عليه ، وهو ما يوافى به العبد ربه ، ظنوا أن الايمان عند السلف هو هذا ، فصاروا يحكون هذا عن السلف ، وهذا القول لم يقل به أحد من السلف ولكن هؤلاء حكوه عنهم ، بحسب ظنهم لما رأوا أن قولهم لايتوجه الا على هذا الأصل ، وهم يدعون أن ما نصروه من أصل جهم فى الايمان ، هو قول المحققين والنظار من اصحاب الحديث ، ومثل هذا يوجد كثيراً فى مذاهب السلف التى خالفها بعض النظار ، واظهر حجته فى ذلك ولم يعرف حقيقة قول السلف ، فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف ، أو من بعضهم ، لما يراه من تميزهم عليه : هذا قول المحققين ، وقال المحققون ، ويكون ذلك من الاقوال الباطلة ، المخالفة للعقل مع الشرع ، وهذا كثيرا ما يوجد فى كلام بعض المبتدعين ، وبعض الملحدين ، ومن آتاه الله علماً وايماناً ، علم أنه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق ، الا ما هو دون تحقيق السلف ، لا فى العلم ولا فى العمل ، ومن كان له خبرة بالنظريات والعقليات ، وبالعمليات ، علم أن مذهب الصحابة دائماً أرجح من قول من بعدهم ، وانه لايبتدع أحد قولا فى الاسلام ، الا كان خطأ ، وكان الصواب قد سبق اليه من قبله .

قال ابو القاسم الأنصارى فيما حكاه عن أبى اسحاق الاسفراييني ، لما ذكر قول ابى الحسن وأصحابه فى الايمان ، وصحح أنه تصديق القلب قال : ومن أصحابنا من قال بالموافاة ، وشرط فى الايمان الحقيقى أن يوافى ربه به ويختم عليه ، ومنهم من لم يجعل ذلك شرطاً فيه فى الحال .

قال الأنصارى : لما ذكر أن معظم ائمة السلف ، كانوا يقولون : الايمان معرفة بالقلب ، واقرار بالسان ، وعمل بالجوارح ، قال الأكثرون من هؤلاء

ى القول بالموافاة ، ومن قال بالموافاة ، فانما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه
، أهل الجنة ، وأما من ورد الخبر بأنه من أهل الجنة ، فانه يقطع على
مانه ، كالعشرة من الصحابة . ثم قال : والذى اختاره المحققون . أن الايمان
و التصديق ، وقد ذكرنا اختلاف أقوالهم فى الموافاة ، وان ذلك هل هو
ـرط فى صحة الايمان وحقيقته فى الحال ، وكونه معتوآ عند الله به وفى حكمه،
ىن قال : ان ذلك شرط فيه يستثنون فى الاطلاق فى الحال ، لا أنهم يشكون
، حقيقة التوحيد والمعرفة ، لكنهم يقولون : لايدرى أى الايمان الذى نحن
وصفون به فى الحال ، هل هو معتد به عند الله ؟ على معنى أنا ننتفع به فى
لعاقبة ، ونجتنى من ثماره .

فاذا قيل لهم : أمؤمنون أنتم حقاً ؟ أو تقولون : ان شاء الله ؟ أو تقولون
رجو ؟ فيقولون : نحن ان شاء الله ، يعنون بهذا الاستثناء تفويض الأمر فى
لعاقبة الى الله سبحانه وتعالى ، وانما يكون الايمان ايماناً معتداً به فى حكم
لله اذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة ، واذا كان صاحبه — والعياذ بالله —
ى حكم الله من الاشقياء ، يكون ايمانه الذى تحلى به فى الحال عارية قال : ولا
برق عند الصائرين الى هذا المذهب بين أن يقول : أنا مؤمن من أهل الجنة
قطعاً ، وبين أن يقول : أنا مؤمن حقاً .

قلت : هذا انما يجىء على قول من يجعل الايمان متناولا لأداء الواجبات وترك المحرمات ، فمن مات على هذا كان من أهل الجنة ، وأما على قول الجهمية والمرجئة — وهو القول الذى نصره هؤلاء ، الذين نصروا قول جهم — فانه يموت على الايمان قطعاً ، ويكون كامل الايمان عندهم ، وهو مع هذا عندهم من أهل الكبائر الذين يدخلون النار ، فلا يلزم اذا وافى بالايمان ، أن يكون من أهل الجنة ، وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده ، لأن الله وعد المؤمنين بالجنة ، وكذلك قالوا : لا سيما والله سبحانه وتعالى يقول :( وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات ) [ التوبة : ٧٢ ] . قال : فهؤلاء — يعنى القائلين بالموافاة جعلوا الثبات على هذا التصديق ، والايمان الذى وصفناه الى العاقبة

والوفاء به فى المآل شرطاً فى الايمان شرعاً ، لا لغة ، ولا عقلا . قال : وهذا مذهب سلف اصحاب الحديث والأكثرين ، قال : وهو اختيار الامام أبى بكر بن فورك ، وكان الامام محمد بن أسحاق بن خزيمة يغلو فيه ، وكان يقول : من قال : انا مؤمن حقاً ، فهو مبتدع .

وأما مذهب سلف أصحاب الحديث ، كان مسعود ، وأصحابه ، والثورى وابن عيينة ، واكثر علماء الكوفة ، ويحيى بن مسعود القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة ، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، فكانوا يستثنون فى الايمان ، وهذا متواتر عنهم ، لكن ليس فى هؤلاء من قال . انا أستثنى لأجل الموافاة ، وان الايمان هو اسم لما يوافى به العبد ربه ، بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لأن الايمان يتضمن فعل الواجبات ، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك ، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى ، فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم ، كما سنذكر أقوالهم ان شاء الله فى ذلك

وأما الموافاة ، فما علمت أحداً من السلف علل بها الاستثناء ، ولكن كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث أحمد ومالك والشافعى وغيرهم كما يعلل بها نظارهم كأبى الحسن الأشعرى ، وأكثر أصحابه ، لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث ، ثم قال :

فان قال قائل : اذا قلتم : ان الايمان المأمور به فى الشريعة ، هو ما وصفتموه بشرائط ، وليس ذلك متلقى من اللغة ، فكيف يستقيم قولكم : أن الايمان لغوى ؟ قلنا : الايمان هو التصديق لغة وشرعاً ، غير أن الشرع ضم الى التصديق أو صافا وشرائط ، مجموعها يصير مجزئاً مقبولا كما قلنا فى الصلاة والصوم والحج ونحوها ، والصلاة فى اللغة : هى الدعاء غير أن الشرع ضم اليها شرائط .

فيقال : هذا يناقض ما ذكروه فى مسمى الايمان ، فانهم لما زعموا أنه فى اللغة : التصديق ، والشرع لم يغيره ، أوردوا على انفسهم .

فان قيل : اليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة ، مستعملة فى غير مذهب أهلها ؟ ! قلنا : قد اختلف العلماء فى ذلك ، والصحيح أنها مقررة على استعمال اهل اللغة ، ومبقاة على مقتضيانها ، وليست منقولة ، الا انها زيد فيها أمور ، فلو سلمنا للخصم كون هذه الألفاظ منقوله ، أو محمولة على وجه من المجاز بدليل مقطوع به ، فعليه اقامة الدليل على وجود ذلك فى الايمان فانه لايجب ازالة ظواهر القرآن بسبب ازالة ظاهر منها .

فيقال : انتم فى الايمان جعلتم الشرع زاد فيه ، وجعلتموه كالصلاة والزكاة ، مع انه لا يمكن احداً أن يذكر شيئاً من الشرع دليلا على أن الايمان لا يسمى به الا الموافاة به ، وبتقدير ذلك ، فمعلوم أن دلالة الشرع على ضم الأعمال اليه أكثر وأشهر ، فكيف لم تدخل الأعمال فى مسماه شرعاً ؟ وقوله : لابد من دليل مقطوع به عنه جوابان ، ( أحدهما ) : النقض بالموافاة ، فانه لا يقطع فيه ، (الثاني) : لا يسلم ، بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك ، داخل فى مسمى الايمان فى كلام الله ورسوله أعظم مما نقطع ببعض افعال الصلاة والصوم والحج ، كمسائل النزاع ، ثم ابو الحسن ، وابن فورك ، وغيرهما من القائلين بالموافاة ، هم لا يجعلون الشرع ضم اليه شيئاً ، بل عندهم كل من سلبه الشرع أسم الايمان ، فقد فقد من قلبه التصديق قال : ومن أصحابنا من لم يجعل الموافاة على الايمان شرطاً فى كونه ايماناً حقيقا فى الحال ، وان جعل ذلك شرطا فى استحقاق الثواب عليه ، وهذا مذهب المعتزلة والكرامية ، وهو اختيار أبى اسحاق الاسفراييني ، وكلام القاضى يدل عليه ، قال : وهو اختيار شيخنا أبى المعالى ، فانه قال : الايمان ثابت فى الحال قطعاً لاشك فيه ، ولكن الايمان الذى هو علم الفوز وآية النجاة ايمان الموافاة ، فاعتنى السلف به وقرنوه بالاستثناء ، ولم يقصدوا الشك فى الايمان الناجز ، قال : ومن صار الى هذا يقول : الايمان صفة يشتق منها اسم المؤمن ، وهو المعرفة والتصديق ، كما أن العالم يشتق من العلم ، فاذا عرفت ذلك من نفسى ، قطعت به كما قطعت بأنى عالم وعارف ومصدق ، فان ورد

فى المستقبل ما يزيله ، خرج اذ ذاك عن استحقاق هذا الوصف ، ولا يقال : تبينا أنه لم يكن ايماناً مأموراً به ، بل كان ايمانا مجزئا ، فتغير وبطل ، وليس كذلك قوله : أنا من أهل الجنة ، فان ذلك مغيب عنه ، وهو مرجو ، قال : ومن صار الى القول الاول يتمسك بأشياء ، منها أن يقال : الايمان عبادة العمر ، وهو كطاعة واحدة ، فيتوقف صحة أولها على سلامة آخرة ، كما تقول فى الصلاة والصيام والحج ، قالوا : ولا شك أنه لا يسمى فى الحال ولياً ، ولا سعيداً ، ولا مرضياً عند الله ، وكذلك الكافر لايسمى فى الحال عدو الله ، ولا شقياً الا على معنى أنه تجرى عليه أحكام الأعداء فى الحال ، لاظهاره من نفسه علامتهم .

قلت : هذا الذى قالوه أنه لاشك فيه ، هو قول ابن كلاب والأشعرى واصحابه ، ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وغيرهم ،واما اكثر الناس ، فيقولون : بل هو اذا كان كافراً ، فهو عدو لله ، ثم اذا آمن واتقى ، صار وليا لله ، قال تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ) الى قوله : ( عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ) [ الممتحنة : ١-٧ ] ، وكذلك كان ، فان هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح، آمن أكثرهم ، وصاروامن أولياء الله ورسوله ، وابن كلاب وأتباعة ، بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله ، وهى الارادة والمحبة والرضا ونحو ذلك ، فمعناها ارادة بعد الموت ، وهذا المعنى تابع لعلم الله ، فمن علم انه يموت مؤمناً ، لم يزل ولياً لله ، لأنه لم يزل الله مريداً لادخاله الجنة ، وكذلك العداوة .

وأما الجمهور ، فيقولون : الولاية والعداوة وان تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه ، فهو سبحانه يرضى عن الانسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحاً ، وانما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر ، كما قال

تعالى : ( ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه ) [ محمد : ٢٨ ] ، فأخبر أن الأعمال اسخطته ، وكذلك قال : ( فلما آسفونا انتقمنا منهم ) [ الزخرف : ٥٥ ] ، قال المفسرون : اغضبونا . وكذلك قال الله تعالى : ( وان تشكروا يرضه لكم ) [ الزمر : ٧ ] . وفى الحديث الصحيح الذى فى البخارى ، عن ابى هريرة عن النبى ﷺ انه قال : « يقول الله تعالى من عادى لي وليا ، فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى، ولئن سالنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت واكره مساءته ، ولا بد له منه » (١) .

فأخبر أنه : لا يزال يتقرب اليه بالنوافل حتى يحبه ، ثم قال : فاذا احببته ، كنت كذا ، كنت كذا ، وهذا يبين أن حبه لعبده انما يكون بعد أن يأتى بمحابه ، والقرآن قد دل على مثل ذلك ، قال تعالى : ( قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ) [ آل عمران : ٣١ ] ، فقوله : ( يحببكم) ، جواب الأمر فى قوله : فاتبعونى ، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط ، ولهذا جزم ، وهذا ثواب عملهم ، وهو اتباع الرسول ، فأثابهم على ذلك بأن احبهم ، وجزاء الشرط، وثواب العمل ، ومسبب السبب ، لا يكون الا بعده ، لا يكون الا بعده لا قبله ، وهذا كقوله تعالى : ( ادعونى استجب لكم ) [ غافر : ٦٠ ] وقوله تعالى : ( ياقومنا اجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ) [ الأحقاف : ٣١ ] ، وقوله تعالى : ( اتقوا الله وقولوا قولا

---

(١) رواه البخارى ، وقد تكلم الذهبى وغيره فى سنده ، لكن ذكر الحافظ ابن حجر له شواهد فى « فتح البارى » فلتراجع اسانيدها ومتونها ، لينظر هل تشهد للحديث بتمامه أم لبعض فقراته ، وهل أسانيدها سالمة من الضعف الشديد الذى لا يستشهد به ، ولعنا نوفق لذلك ان شاء الله .

سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ) [ الأحزاب : ٧١،٧٠ ] ومثل هذا كثير ، وكذلك قوله : ( فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين ) [ التوبة: ٤ ] ، وقوله : ( لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عنـــد الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ) [ الصف : ٢ــ٤ ] ، وكانوا قد سألوه : لو علمنا اى العمل احب الى الله لعملناه ، وقوله : ( ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكـــم انفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون ) [ غافر : ١٠ ] ، فهذا يدل على أن حبه ومقته جزاء لعملهم ، وأنه يحبهم اذا اتقوا وقاتلوا ، ولهذا رغبهم فى العمل بذلك ، كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به ، وجزاء العمل بعد العمل ، وكذلـــك قوله : ( اذ تدعون الى الايمان فتكفرون ) [ غافر : ١٠ ] ، فانه سبحانـــه يمقتهم اذ يدعون الى الايمان فتكفرون ومثل هذا قوله : ( لقد رضى الله عـــن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ) [ الفتح : ١٨ ] ، فقوله : ( لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك ) بين انه رضى عنهم هـــذا الوقت ، فان حـــرف « اذ » ظرف لما مضى من الزمان ، فعلم انه ذاك الوقت رضى عنهم بسبب ذله العمل ، واثابهم عليه والمسبب لايكون قبل سببه ، والموقت بوقت لا يكون قبل وقته ، واذا كـــان راضياً عنهم من جهة ، فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن الا حينئذ كما ثبت فى الصحيح انهيقول لأهل الجنة : « ياأهل الجنة هـــل رضيتـــم ؟ فيقولون : ياربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقـــك ، فيقول : الا أعطيكم ما هو افضل من ذلك ؟ فيقولون : يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : احل عليكم رضوانى ، فلا اسخط عليكم بعدم أبداً » وهذا يدل على انه فى ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذى لايتعقبه سخط أبداً، ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط .

وفى « الصحيحين » فى حديث الشفاعة « يقول كل من الرسل : ان ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثلـــه » وفى

« الصحاح » : عن النبى ﷺ ، من غير وجه أنه قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة ، عليها طعامه وشرابه ، يطلبها فلم يجدها ، فاضطجع ينتظر فلما استيقظ ، اذا دابته عليها طعامه وشرابه » وفى رواية : « كيف تجدون فرحه بها » ؟ قالوا : عظيما يارسول الله ، قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته » وكذلك ضحكه الى رجلين ، يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة ، وضحكه الى الذى يدخل الجنة آخر الناس ، ويقول : « أتسخر بى وانت رب العالمين ؟ فيقول : لا ولكنى على ما أشاء قادر » وكل هذا فى « الصحيح » .

وفى دعاء القنوت (١) : « تولنى فيمن توليت » ، والقديم لايتصور طلبه ، وقد قال تعالى : ( ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ) [ الأعراف : ١٩٥ ] ، وقال : ( والله ولى المتقين ) [ الجاثية : ١٩ ] ، فهذا التولى لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه ، فلا يكون متقدماً عليه ، وان كان انما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله واحسانه ، لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين ، فدل على أن هذا التولى هو بعد ذلك مثل كقوله مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ، ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين ، وهكذا الرحمة ، قال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من فى السماء » ، قال الترمذى : حديث صحيح (٢) .
وكذلك قوله : ( وان تشكروا يرضه لكم ) [ الزمر : ٧ ] ، علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب ، والجزاء انما يكون بعد الشرط ، وكذلك قوله : ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ) [ الفتح : ٢٧ ] يدل

---

(١) يعنى فى الوتر ، والحديث بذلك صحيح : وأما الدعاء به فى الصبح فلا أصل له ، وانما يدعى فيه وفى سائر الصلوات الخمس لنازلة بما يناسبها .

(٢) قلت : وصححه أيضاً أبو الفتح الخرقى ، والعراقى ، وابن ناصر الدين .

على انه يشاء ذلك فيما بعد ، وكذلك قوله : ( انما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ) [ يس : ٨٢ ] ، « فاذا » ظرف لما يستقبل من الزمان ، فدل على أنه اذا أراد كونه ، قال له : كن ، فيكون ، وكذلك قوله : ( وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ) [ التوبة : ١٠٦ ] فبين فيه انه سيرى ذلك فى المستقبل اذا عملوه .

والمأخذ الثانى فى الاستثناء ، أن الايمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله ، وترك المحرمات كلها ، فاذا قال الرجل : انا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما امروا به ، وترك كل مانهوا عنه ، فيكون من أولياء الله ، وهذا من تزكية الانسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لايعلم ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغى له أن يشهد لنفسه بالجنة ان مات على هذه الحال،ولا أحد يشهد لنفسه بالجنه، فشهادته لنفسه بالايمان كشهادته لنفسه بالجنة اذا مات على هذه الحال ، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وان جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر ، كما سنذكر ان شاء الله تعالى .

قال الخلال فى كتاب السنة : حدثنا سليمان بن الاشعث ، يعنى أبا دواد السجستانى ، قال : سمعت ابا عبد الله احمد بن حنبل ، قال له رجل : قيل لى : أمؤمن انت ؟ قلت : نعم ، هل على فى ذلك شىء ؟ هل الناس الا مؤمن وكافر ؟ فغضب احمد ، وقال : هذا كلام الارجاء ، قال الله تعالى : ( وآخرون مرجون لامر الله ) [ التوبة : ١٠٧ ] من هؤلاء ، ثم قال احمد : أليس الايمان قولا وعملا ؟ قال له الرجل : بلى ، قال : فجئنا بالقول ؟ قال : نعم ، قال فجئنا بالعمل ؟ قال : لا ، قال : فكيف تعيب أن يقول : ان شاء الله

---

الدمشقى وفى اسناده ابو قابوس ولا يعرف كما قال الذهبى ، لكن قال ابن ناصر الدين : « وله متابع ، رويناه فى مسند أحمد بن حنبل وعبد بن حميد من حديث أبى خداش حبان بن زيد الشرعبى الحمصى احد الثقات عن عبد الله ابن عمرو بمعناه » والله أعلم .

ويستثنى ؟! .

قال ابو داود : أخبرنى احمد بن أبى شريح ، أن أحمد بن حنبل ، كتب اليه فى هذه المسألة : ان الايمان قول وعمل ، فجئنا بالقول ولم نجىء بالعمل، فنحن نستثنى فى العمل وذكر الخلال هذا الجواب ، من رواية الفضل بن زياد، وقال : زاد الفضل سمعت ابا عبد الله يقول : كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل ، يقول : نحن نعمل ولا ندرى يتقبل منا أم لا ؟

قلت : والقبول متعلق بفعله كما أمر ، فكل من اتقى الله فى عمله ، ففعله كما أمر ، فقد تقبل منه ، لكن هو لا يجزم بالقبول ، لعدم جزمه بكمال الفعل ، كما قال تعالى : ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ) [ المؤمنين : ٦١ ] ، قالت عائشة : يا رسول الله اهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يابنت الصديق ، بل هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه (١) » .

وروى الخلال ، عن أبى طالب قال : سمعت أبا عبد الله يقول : لا نجد بدا من الاستثناء ، لانهم اذا قالوا : مؤمن ، فقد جاء بالقول ، فانما الاستثناء بالعمل لا بالقول .

وعن اسحاق ابن ابراهيم قال : سمعت أبا عبد الله يقول : أذهب الى حديث ابن مسعود فى الاستثناء فى الايمان ، لان الايمان قول وعمل ، والعمل الفعل ، فقد جئنا بالقول ، ونخشى أن نكون فرطنا فى العمل ، فيعجبنى أن يستثنى فى الايمان يقول : أنا مؤمن ان شاء الله ، قال : وسمعت أبا عبد الله — وسئل عن قول النبى ﷺ : « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » — الاستثناء ههنا على أى شىء يقع ؟ قال : على البقاع ، لا يدرى أيدفن فى الموضع الذى سلم عليه أم فى غيره .

---

(١) أخرجه الترمذى وأحمد وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

وعن الميمونى انه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه فى : مؤمن ان شاء الله ؟ قال : اقول : مؤمن ان شاء الله ، ومؤمن أرجو ، لانه لا يدرى كيف البراءة للاعمال على ما افترض عليه أم لا . ومثل هذا كثير فى كلام أحمد وأمثاله ، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات ، المستحق للجنة اذا مات على ذلك ، وان المفرط بترك المأمور ، أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن ، وان المؤمن المطلق هو البر التقى ولى الله ، فاذا قال : أنا مؤمن قطعا ، كان كقوله : أنا بر تقى ولى الله قطعا .

وقد كان احمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره : أمؤمن أنت ؟ ويكرهون الجواب ، لان هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ، فان الرجل يعلم من نفسه انه ليس بكافر ، بل يجد قلبه مصدقا بما جاء به الرسول ، فيقول : أنا مؤمن ، فيثبت أن الايمان هو التصديق ، لانك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به ، فلما علم السلف مقصدهم ، صاروا يكرهون الجواب ، أو يفصلون فى الجواب ، وهذا لان لفظ الايمان فيه اطلاق وتقييد ، فكانوا يجيبون بالايمان المقيد الذى لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال ، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال : أنا مؤمن بلا استثناء اذا أراد ذلك ، لكن ينبغى أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الايمان المطلق الكامل ، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه .

وقال المروزى : قيل لابى عبد الله : نحن المؤمنون ؟ فقال : نقول : نحن المسلمون ، وقال أيضا : قلت لابى عبد الله : نقول : انا مؤمنون ؟ قال : ولكن نقول : انا مسلمون ، ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده قصد المرجئة ان الايمان مجرد القول ، بل تركه لما يعلم أن فى قلبه ايمانا ، وان كان لا يجزم بكماله ايمانه ؟

قال الخلال : أخبرنى احمد بن أصرم المزنى ، أن أبا عبد الله قيل له : اذا سألنى الرجل ، فقال : أمؤمن انت ؟ قال : سؤالك اياى بدعة ، لا يشك

فى ايمانه ، او قال : لا نشك فى ايماننا .

قال المزنى : وحفظى أن با عبد الله قال : اقول كما قال طاوس : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقال الخلال : اخبرنى حرب بن اسماعيل ، وابو داود : سمعت احمد قال : سمعت سفيان — يعنى ابن عيينه — يقول : اذا سئل أمؤمن أنت ؟ لم يجبه ، ويقول : سؤالك اياى بدعة ، ولا أشك فى ايمانى ، وقال : ان قال : ان شاء الله ،ليس يكره ، ولا يداخل الشك ، فقد اخبر عن احمد قال : لا نشك فى ايماننا ، وان السائل لا يشك فى ايمان المسؤول ، وهذا ابلغ ، وهو انما يجزم بأنه مقر ، مصدق بما جاء به الرسول ، لا يجزم بأنه قائم بالواجبات .

فعلم أن احمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون فى وجود ما فى القلب من الايمان فى هذه الحال ، ويجعلون الاستثناء عائدا الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ، ويحتجون ايضا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه ، وهذا مأخذ ثان ، وان كنا لا نشك فيما فى قلوبنا من الايمان ، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة ، لما فيه من الحكمة .

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال : سألت ابا عبد الله عن الاستثناء فى الايمان فقال: نعم ، الاستثناء على غير معنى شك ، مخافة واحتياطا للعمل ، وقد استثنى ابن مسعود وغيره ، وهو مذهب الثورى ، قال الله تعالى : ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله ) [ الفتح : ٢٧ ] . وقال النبى ﷺ لاصحابه : « انى لارجو أن أكون أتقاكم لله » . وقال فى الميت : « وعليه نبعث ان شاء الله » فقد بين أحمد أنه يستثنى مخافة واحتياطا للعمل ، فانه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به ، فيحتاط بالاستثناء وقال على غيرمعنى شك ، يعنى من غير شك مما يعلمه الانسان من نفسه ، والا فهو بشك فى تكميل العمل الذى خاف ان لايكون كمله ، فيخاف من نقصه ،

ولا يشــك فى أصـــله .

قال الخلال : وأخبرنى محمد بن هارون أن حبيش بن سندى ، حدثهـم فى هذه المسألة ، قال أبو عبد الله : قــول النبى ﷺ حين وقف على المقــابر فقال ( وانا ان شاء الله بكم لاحقون ) وقد نعيت اليه نفسه ، وعلم أنه صائر الى الموت ، وفى قصة صاحب القبر (١) « عليه حييت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ان شاء الله » وفى قول النبى ﷺ « انى اختبأت دعوتى ، وهى نائلة ان شاء الله من لا يشرك بالله شيئا » (٢) وفى مسألة الرجـل النبى ﷺ : أحدنا يصبح جنبا يصوم ؟ فقال : « انى أفعــل ذلك ثم أصوم » فقــال : انك لست مثلنا انت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « والله انى لارجو أن أكون أخشاكم لله » (٣) وهذا كثيرا ، واشباهه على اليقين .

قال : ودخل عليه شيخ فسأله عن الايمان ، فقال له : قول وعمــل ، يزيد وينقص . فقال له : أقول : أمؤمن ان شاء الله ؟ قال : نعم . فقال له : انهم يقولون لى انك شاك ؟ قال : بئس ما قالوا ، ثم خــرج فقــال : ردوه ، فقال : أليس يقولون : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ؟ قال : نعــم ، قال : هؤلاء يستثنون ؟ قال له : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : قــل لهم : زعمتم أن الايمان قول وعمل ، فالقول قد أتيتم به ، والعمل لم تأتوا به ، فهذا الاستثناء لهذا العمل ، قيل له : تستثنى فى الايمان ؟ قال : نعم ، أقول : أنا مؤمن ان شاء الله ، استــثنى على اليقــين لا على الشـــك ، ثم قال . قــال الله : ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ) [ الفتح : ٢٧ ] فقد أخبر الله تعالى أنهم داخلون المسجد الحرام .

فقد بين أحمد فى كلامه أنه يستثنى مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه ،

---

(١) يعنى السؤال فى القبر ، والحديث صحيح .
(٢) متفق عليــه .
(٣) رواه مسلم وتقدم (٢٠٨) .

يقوله بلسانه وقلبه ، لا يشك فى ذلك ، ويستثنى لكون العمل من الايمـــان ، وهو لا يتيقن انه أكمله ، بل يشك فى ذلك ، فنفى الشك واثبت اليقين فيمـــا يتيقنه من نفسه ، واثبت الشك فيمـــا لا يعلم وجوده ، وبـــين أن الاستثناء مستحب لهذا الثانى الذى لا يعلم هل اتى به أم لا ، وهو جائز أيضا لما يتيقنه، فلو استثنى لنفس الموجود فى قلبه جاز ، كقول النبى ﷺ : « والله انى لأرجو ان اكون اخشاكم لله » وهذا أمر موجود فى الحال ليس بمستقبل ، وهو كونه اخشانا ، فانه لا يرجو ان يصير اخشانا لله بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول اخشانا ، فانه لايرجو ان يصير اخشانا لله بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول لا يكون تقبله منه ، كما قال تعالى : ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون ) [ المؤمنون : ٦١ ] وقال النبى ﷺ « هو الرجل يصلـــى ويصـوم ويتصدق ويخاف ان لا قبل منه » (١) والقبول هـــو أمر حاضر أو ماض وهو يرجوه ويخافه ، وذلك ان مآله عاقبة مستقبله محمودة أو مذمومـــة ، والانسان يجوز وجوده وعدمه ، يقال : انه يرجوه وانه يخافه ، فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضى ، لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة ، فهـــو ان يكون الله تقبل عمله فيثيبه عليه ، فيرحمه فى المستقبل ، ويخاف أن لايكون تقبله فيحرم ثوابه ، كما يخاف أن يكون الله قد سخط عليه فى معصيته فيعاقبه عليها .

واذا كان الانسان يسعى فيما يطلبه كتاجر أو بريد أرسله فى حاجتـــه يقضيها فى بعض الأوقات ، فاذا مضى ذلك الوقت يقول : أرجو أن يكون فلان قد قضى ذلك الامر ، وقضاؤه ماض ، لكن ما يحصل لهذا من الفـــرح والسرور وغير ذلك من مقاصده مستقبل ، ويقول الانسان فى الوقت الذى جرت عادة الحاج بدخولهم الى مكة : أرجو أن يكونوا دخلوا ، ويقول فى سرية بعثت الى الكفار : نرجو أن يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم ، ويقال فى نيل مصر عند

---

(١) تقدم فى صفحة : ٤٢٨ .

وقت ارتفاعه : يرجو أن يكون قد صعد النيل ، كما يقول الحاضر فى مصر مثل هذا الوقت : نرجو أن يكون النيل هذا العام نيلا مرتفعاً ، ويقال لمن له أرض يحب أن تمطر اذا مطرت بعض النواحى : أرجو أن يكون المطر عاماً ، وأرجو أن يكون قد مطرت الأرض الفلانية ، وذلك لأن المرجو هو ما يفرح بوجوده ويسر ، والمكروه ما يتألم بوروده .

وهذا يتعلق بالعلم ، والعلم بذلك مستقبل ، فاذا علم أن المسلمين انتصروا ، والحاج قد دخلوا ، أو المطر قد نزل ، فرح بذلك ، وحصل به مقاصد أخر له ، واذا كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب فيقول : أرجو وأخاف ، لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل وكذلك المطلوب بالايمان من السعادة والنجاة ، هو أمر مستقبل فيستثنى فى الحاضر بذلك ، لأن المطلوب به مستقبل ، ثم كل مطلوب مستقبل ، تعلق بمشيئة الله وان جزم بوجوده ، لأنه لا يكون مستقبل الا بمشيئة الله .

فقولنا : يكون هذا ان شاء الله حق ، فانه لا يكون الا ان شاء الله ، والشك واللفظ ليس فيه الا التعليق ، وليس من ضرورة التعليق الشك ، بل هذا بحسب علم المتكلم ، فتارة يكون شاكاً ، وتارة لايكون شاكاً ، فلما كان الشك يصحبها كثيراً لعدم علم الانسان بالعواقب ،ظن الظان أن الشك داخل فى معناها ، وليس كذلك ، فقوله : ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) [ الفتح : ٢٧ ] . لا يتصور فيه شك من الله ، بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ، ولهذا قال ثعلب : هذا استثناء من الله وقد علمه ، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون . وقال أبو عبيدة وابن قتيبة : «أن» بمعنى «اذ» ، أى : اذ شاء الله ، ومقصودهم بهذا تحقيق الفعل بـ « ان » كما يتحقق مع « اذ » ، والا فـ « اذ » ، ظرف توقيت ، و «أن » حرف تعليق .

فان قيل : فالعرب تقول : اذا احمر البسر فأتنى ، ولا تقول : ان احمر البسر .

قيل : لأن المقصود هنا توقيت الاتيان بحين احمراره ، فأتوا بالظرف

المحقق ، ولفظ : « ان » لا يدل على توقيت ، بل هى تعليق محض تتقضى ارتباط الفعل الثانى بالأول ، ونظير ما نحن فيه أن يقولوا : البسر يحمر ويطيب ان شاء الله ، وهذا حق ، فهذا نظير ذلك .

فان قيل : فطائفة من الناس فروا من هذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه ، فقال الزجاج : ( لتدخلن المسجد الحرام ) [ الفتح : ٢٧ ] أى أمركم الله به ، وقيل : الاستثناء يعود الى الأمن والخوف ، أى : لتدخلنه آمنين فأما الدخول فلا شك فيه ، وقيل : لتدخلن جميعكم او بعضكم ، لأنه علم أن بعضهم يموت ، فالاستثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم . قيل : كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منه ، مع خروجهم عن مدلول القرآن ، فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به ، فان قول من قال : أى : امركم الله به ، هو سبحانه قد علم ، هل يأمرهم أو لا يأمرهم ، فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلون ، فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً ، وكذلك أمنهم وخوفهم ، هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين ، وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين ، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله ، بل ولا عند رسوله . وقول من قال : جميعهم أو بعضهم ، يقال المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ ، فان كان أراد الجميع ، فالجميع لابد أن يدخلوه ، وان أريد الأكثر ، كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة ، وما لم يرد لايجوز أن يعلق بـ «ان» وانما علق بـ «ان» ما سيكون ،وكان هذا وعداً مجزوماً به ، ولهذا لما قال عمر للنبى ﷺ عام الحديبية : ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفقلت لك : انك تأتيه هذا العام ؟ » قال : لا ، قال « فانك آتيه ومطوف به » (١) .

فان قيل : لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن ؟

قيل : لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبى ﷺ من الحديبية ، وكانوا

---

(١) البخارى وأحمد فى حديث صلح الحديبية الطويل .

قد اعتمروا ذلك العام ، واجتهدوا فى الدخول ، فصدهم المشركون فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه الا الله ، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام اذ كان النبى ﷺ وعدهم وعدا مطلقاً ، وقد روى أنه رأى فى المنام قائلا يقول ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله ) (١) فأصبح فحدث الناس برؤيـــاه ، وأمرهم بالخروج الى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام ، فنزلت هذه الاية واعدة لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذى كانوا يظنون حصولـــه ذلك العام ، وكان قول : ( ان شاء الله ) هنا تحقيقاً لدخوله ، وأن الله يحقق ذلك لكم ، كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة : والله لأفعلن كذا ان شاء الله ، لا يقولها لشك فى ارادته وعزمه ، بل تحقيقاً لعزمه وارادته ، فانه يخاف اذا لم يقل : ان شاء الله ، أن ينقص الله عزمه ولا يحصل ما طلبه، كما فى «الصحيحين» أن سليمان عليه السلام قال : والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كل منهن تأتى بفارس يقاتل فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل: ان شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل منهن الا امرأة جاءت بشق رجل ، قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده لو قال : ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل فرسانـــاً أجمعون » فهو اذا قال : ان شاء الله لم يكن لشك فى طلبه وارادته بل لتحقيق الله ذلك له ، اذ الأمور لا تحصل الا بمشيئة الله ، فاذا تألى العبد عليه مـــن غير تعليق بمشيئته ، لم يحصل مراده ، فانه من تألى على الله يكذبه ، ولهذا يروى : لا انممت لمقدر أمرا .

وقيل لبعضهم : بم عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزائم ونقض الهمم ، وقد قال تعالى : ( ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ) [الكهف: ٢٤ ] فان قوله : لأفعلن فيه معنى الطلب والخبر ، وطلبه جازم ، وأما كون مطلوبه يقع ، فهذا يكون ان شاء الله ، وطلبه للفعل يجب ان يكون من اللـــه بحوله وقوله ، ففى الطلب عليه أن يطلب من الله ، وفى الخبر لا يخبر الا بما علمه الله ، فاذا جزم بلا تعليق ، كان كالمتالى على الله ، فيكذبه الله ، فالمسلم فى الأمر الذى هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلباً لا تردد فيه يقول : ان شاء الله ، لتحقيق مطلوبه ، وحصول ما أقسم عليه لكونه لايكون الا بمشيئة

(١) [ الفتح — ٢٧ ]

الله لا لتردد فى ارادته ، والرب تعالى مريد لانجاز ما وعدهم به ارادة جازمة لا مثنوية فيها ، وما شاء فعل ، فانه سبحانه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ليس كالعبد الذى يريد ما لا يكون ، ويكون ما لا يريد .

فقوله سبحانه : ( ان شاء الله ) [ الفتح : ٢٧ ] تحقيق أن ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتى وارادتى ، فان ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، فكان هذا الاستثناء هنا لقصد التحقيق ، لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذى وعدوا به ذلك العام ، وأما سائر ما وعدوا به ، فلم يكن كذلك .

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه فى اليمين هذا المعنى ، وهو التحقيق فى استثنائه لا التعليق : هل يكون مستثنياً به ، أم تلزمه الكفارة اذا حنث ؟ بخلاف من ترددت ارادته فانه يكون مستثنيا بلا نزاع ، والصحيح انه يكون بين الجميع مستثنياً ، لعموم المشيئة ، ولان الرجل وان كانت ارادته للمخلوف به جازمة ، فقد علقه بمشيئة الله ، فهو يجزم بارادته له ، لا يجزم بحصول مراده ، ولا هو ايضاً مريد له بتقدير أن لا يكون ، فان هذا تمييز لا ارادة فهو انما التزمه اذا شاء الله ، فاذا لم يشأه لم يلتزمه بيمنه ، ولا حلف أنه يكون وان كانت ارادته له جازمة ، فليس كل ما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه .

وقد تبين بما ذكرناه أن قول القائل : ان شاء الله ، يكون مع كمال ارادته فى حصول المطلوب ، وهو يقولها لتحقيق المطلوب لاستعانته بالله فى ذلك ، لا لشك فى الارادة ، هذا فيما يحلف عليه ويريده ، كقوله تعالى : لتدخلن المسجد الحرام ) [ الفتح : ٢٧ ] فانه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون ، وقد علقه بقوله : ( ان شاء الله ) فكذلك ما يخبر به الانسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بارادته وجازم بوقوعه فيقول فيه : ان شاء الله ، لتحقيق وقوعه ، لا للشك لا فى ارادته ولا فى العلم بوقوعه .

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة فى المعلق ، وقوة ارادة الانسان

له ، فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء ، فيقول : ان شاء الله ، لتحقيق رجائه مع علمه بأن سيكون ، كما يسأل الله ويدعوه فى الأمر الذى قد علم أنه يكون ، كما كان النبى ﷺ يوم بدر قد اخبرهم بمصارع المشركين ، ثم هو بعد هذا يدخل الى العريش يستغيث ربه ويقول : « اللهم انجز لى ما وعدتنى » (١) لأن العلم بما يقدره لا ينافى أن يكون قدره بأسباب ، والدعاء من أعظم أسبابه ، كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب فى النجاة من عذابه وحصول رحمته .

والاستثناء بالمشيئة يحصل فى الخبر المحض ، وفى الخبر معه طلب ، فالأول اذا حلف على جملة خبرية لايقصد به حضاً ولا منعاً ، بل تصديقا او تكذيبا ، كقوله : والله ليكونن كذا ان شاء الله ، أو لايكون كذا ، والمستثنى قد يكون عالماً بأن هذا يكون ، أولا يكون كما فى قوله : ( لتدخلن ) فان هذا جواب غير مجذوف .

والثانى : ما فيه معنى الطلب ، كقوله : والله لأفعلن كذا ، او لا افعله ان شاء الله ، فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب ، ولم يقل : والله انى لمريد هذا ولا عازم عليه ، بل قال : والله ليكونن ، فان لم يكن فقد حنث لوقوع الأمر بخلاف ما حلف عليه فحنث ، فاذا قال : ان شاء الله فانما حلف عليه بتقدير : ان يشاء الله ، لا مطلقاً .

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء الى أنه متى لم يوجد المحلوف عليه ، حنث او متى وجد المحلوف عليه أيه لا يفعله ، حنث ، سواء كان ناسياً أو مخطئاً او جاهلا ، فانهم لحظوا أن هذا فى معنى الخبر ، فاذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث ، وقال الآخرون : بل هذا مقصوده الحض والمنع كالأمر والنهى ، ومتى

---

(١) هو مركب من حديثين الاول عن أنس والآخر عن ابن عمر ، وهما عند مسلم وغيره ، وقد خرجتهما فى « تخريج فقه السيرة » (ص ٢٣٩،٢٤١ الطبعة الثالثة) .

نهى الانسان عن شىء ، ففعله او مخطئا لم يكن مخالفاً ، فكذلك هذا .

قال الأولون : فقد يكون فى معنى التصديق والتكذيب ، كقولـــه :والله ليقعن المطر ، أو لا يقع ، وهذا خبر محض ، ليس فيه حض ولا منع ، ولـــو حلف على اعتقاده ، فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه ، حنث ، وبهذا يظهـــر الفرق بين الحلف على الماضى ، والحلف على المستقبل ، فان اليمين علـــى الماضى غير منعقدة ، فاذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة ، كالغموس ، بخـــلاف المستقبل ، وليس عليه أن يستثنى فى المستقبل اذا كان فعله ، قال تعالى : ( زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ) [ التغابن : ٧ ] فأمره ان يقسم على ما سيكون ، وكذلك قوله : ( وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ) [سبأ :٣] كما أمره ان يقسم على الحاضر فى قوله : ( ويستنبئونك أحق هو ؟ قل اى وربى انه لحق ) [ يونس : ٥٣ ] وقد قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عدلا واماماً مقسطا » (١) ، وقال : « والذى نفسى بيده لاتذهب الدنيا حتى يأتى على الناس يوم لايدرى القاتل فيما قتل ولا المقتـــول فيما قتل » (١) وقال : « اذا هلك كسرى أو ليهلكن كسرى ، ثم لا يكون كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » (٢) وكلاهما فى « الصحيح » .

فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل فى مواضع كثيرة بـــلا استثناء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

( ١ ) متفق عليه ، ونزول عيسى عليـــه السلام متواتر يجب الايمان به ، ولا يغير بمن يزعم انه حديث آحاد ، فانه ليس من أهل العلم بهذا الشـــأن ، كيف ذلك وقد استخرجت له أنا بنفسى عشرين طريقاً عن عشرين صحابياً بأكثر من عشرين سنداً صحيحاً ؟ !

# فهرس


| الصفحة | الموضوع |
| --- | --- |
| ٧ | الفرق بين الاسلام والايمان اذا اجتمعا ومعناها فى كلام النبى ﷺ . |
| ٨ | الدين ثلاث درجات ما بين الاسلام والايمان والاحسان من العموم والخصوص ، وكذلك الرسالة والنبوة . |
| ١٣ | اسم الايمان يذكر تارة غير مقرون بالاسلام ولا بغيره ، وتارة يذكر مقروناً . |
| ١٥ | اذا ذكر الايمان مع الاسلام فالاسلام هو الأعمال الظاهرة ، والايمان هو ما فى القلب ، واذا ذكر مجرداً دخل الاسلام والأعمال الصالحة . |
| ١٦ | اسم الايمان اذا أطلق فى كلام الله ورسوله يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الايمان،فلا بد أن يكون قد ترك او فعل محرماً ، وأن ذكر فضل ايمان صاحبها ولم ينف فهى مستحبة ، وغلط من قال : ان المنفى هو الكمال المستحب . |
| ١٧ | تفسير قوله تعالى: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون..) ( ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا . . . ) (ومن يتولهم منكم فانه منهم . . . ) ( انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ) . |
| ١٨ | اذا كان المؤمن الحق الفاعل للواجبات التارك للمحرمات فلم قال :فى الآية من سورة الأنفال ( أولئك هم المؤمنون حقاً ) مع انه لم يذكر الا خمسة اشياء والجواب عن ذلك . |

| الصفحة | الموضـــوع |
| --- | --- |
| ١٨ | تفسير قوله تعالى ( وجلت قلوبهم ) . |
| ٢٠ | تفسير قوله تعالى ( انما يخشى الله من عباده العلماء ) . |
| ٢٢ | العقل ومتى يسمى الانسان عاقلا ومتذكراً ومهتدياً وخائفاً . |
| ٢٣ | من فسدت فطرته فسدت قوته العلمية والعملية . |
| ٢٥ | تفسير قوله تعالى ( الذين هم فى صلاتهم خاشعون ) . |
| ٢٥ | بيان أن الصلاة اذا فعلت على الوجه المطلوب شرعاً تنهـــى عـــن الفحشاء والمنكـــر . |
| ٢٨ | تفسير قوله تعالى ( ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطـــان تذكـــروا . . . ) . |
| ٢٩ | تفسير قوله ﷺ « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . |
| ٢٩ | احاديث تنازع أهل العلم بالحديث فى صحتها . |
| ٣٠ | للعلماء قولان فى صحة صلاة من ترك الجماعة وصلى منفرداً . |
| ٣٢ | وجوب تحكيم الشرع فى كل ما شجر بين الناس . |
| ٣٣ | من ادلة حجية الاجماع قوله تعالى ( ومن يشاقق الرسول من بعـــد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ) وتوجيه الدلالة منها وبيان أن الاجماع منه ما هو قطعي الدلالة ومنه ما هو ظني الدلالة |
| ٣٥ | رأى ابن تيمية أن السنة كالقرآن كلاهما وحى من الله تنـــزل علـــى محمـــد ﷺ . |
| ٣٦ | تفسير أبى نصر المروزى لآية ( وحبب اليكـــم الايمـــان ) وتعليـــق المؤلف عليـــه . |

| الصفحة | الموضـــوع |
| --- | --- |
| ٣٧ | تفسير قوله ﷺ « أصدق الأسماء حارث وهمام » . |
| ٣٨ | المباح يكون بالنية الحسنة خيراً وبالنية السيئة شرا . |
| ٣٩ | تفسير آيات فيما أحل وما حرم من الأطعمة والصيد . |
| ٤٢ | هل تكتب جميع أقوال العبد أم لايكتب عليه الا ما يؤجر عليه أو يوزر . |
| ٤٢ | المرجئة لاتنازع فى أن الايمان الذى فى القلب يدعو الى فعل الطاعة ، وأيها من ثمراته ، وانما تنازع فى أنه هل يستلزم الطاعة ؟ |
| ٤٤ | لفظ الكفر اذا ذكر مفرداً فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون . |
| ٤٤ | قد يقرن الكفر بالنفاق كما يقرن لفظ المشركين بأهل الكتاب ، وهـل يتناول المشركين أهل الكتاب اذا أفرد . |
| ٤٧ | فصل وكذلك لفظ الصالح والشهيد والصديق يذكر مفرداً فيتنـاول النبيين ومن دونهم . |
| ٤٨ | فصل وكذلك لفظ المعصية اذا أطلقت دخل فيها الكفـر والفسـوق بخلاف ما اذا قيدت ومعنى التولى ، ذم من تولى يدل على وجـوب الطاعة ، وأن الأمر المطلق يقتضى الوجوب . |
| ٤٩ | تفسير قوله تعالى ( ولا يعصينك فى معروف ) . |
| ٥٠ | لفظ الظلم اذا أطلق يدخل فيه الكفر وسائر الذنوب . |
| ٥٢ | تفسير الأزواج حيثما وردت فى القرآن . |
| ٥٢ | معنى الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة . |
| ٥٤ | تفسير ( إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ) . |
| ٥٨ | متى يجوز التقليد ومتى يمنع . |

| الصفحة | الموضــــوع |
| --- | --- |
| ٦٠ | مشركوا العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله فى خلق السماوات والأرض . |
| ٦١ | تفسير ( أله مع الله ) . |
| ٦٢ | الظلم انواع ثلاثة . |
| ٦٥ | لفظ الصلاح اذا أطلق تناول جميع الخير ، والفساد اذا أطلق تناول جميــع الشر . |
| ٦٦ | تفسير قوله تعالى ( انما نحن مصلحون ) . |
| ٦٨ | بحث عام فى الحقيقة والمجاز . |
| ٦٨ | تقسيم الألفاظ الى حقيقة ومجاز بعد القرون الثلاثة . |
| ٧٠ | انكار طائفة من العلماء أن يكون فى اللغة مجاز لا فى القرآن ولافى غيره . |
| ٧٣ | للعلماء والمفسرين فى الاسماء التى علمها آدم قولان معروفــان عــن السلف الحجة على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم . |
| ٧٤ | بطلان تقسيم الكلام الى حقيقة ومجاز ، والاعتراض على حد كل منهما |
| ٧٨ | مايسمى كلاماً فى الكتاب والسنة وكلام العرب . |
| ٨٠ | هل يجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب الى وقت الحاجــة عقــلا أو شرعــاً |
| ٨١ | بحث فى الاطلاق والتقييد والكليات والجزئيات فى الأمــور العقليــة والسمعــة . |
| ٨٤ | مما ادعى فيه المجاز فى القرآن لفظ الذوق والجوع والخوف والمكــر والكيد والسخريــة . |

الصفحة | الموضـــوع
---|---


٨٦ من الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز ( واسأل القرية ) .

٨٩ الطريق الى معرفة مقاصد الرسول بكلامه .

٩١ خطأ المرجئة فى اسم الايمان حيث جعلوه حقيقة فى مجرد التصديـــق وتناوله للأعمال مجـــاز .

٩١ عدول المرجئة فى تفسيرهم للايمان عن بيان الكتاب والسنة واقـــوال السلف ، واعتمادهم على رأيهم وعلى ما تأولوه بفهمهم للغة .

٩٢ الأشعرى وعامة أصحابة نصروا قول جهم فى الايمان مع نصرهـــم للمشهور عن أهل السنة من أنه يستثنى فى الايمان ، وسبب هـــذا التناقض .

٩٣ نقل كلام القاضى أبى بكر الباقلانى من « التمهيد » فى الايمان وتعقب المؤلف لـــه .

١٠٢ استعمال لفظ الكلام والقول فى المعنى واللفظ ، بل فى اللفظ الـــدال على المعنى أكثر فى اللغة من استعماله فى المعنى المجرد عن اللفظ ، بل لايوجد قطعاً اطلاق اسم الكلام ولا أنواعه كالخبر والتصديـــق والتكذيب والأمر والنهى على مجرد المعنى من غير شىء يقترن بـــه من عبارة ولا اشارة ولا غيرهما .

١٠٢ قول الكرامية فى معنى الايمان وما احتجوا به والرد عليهم .

١١٣ مخالفة الأشعرى وبعض أصحابه واتباعهم قول السلف فى مسألـــة الايمان . احتجاج الجهمية ومن تبعهم بقوله تعالى (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر . . . ) وبيان انه حجة فيها لهم .

١١٥ اختلف قول الأشعرى وغيره فى الجهل ببعض الصفات هل يكـــون جهلا بالموصوف أم لا ؟

الصفحة الموضـــوع


١١٨ فصل الذين نصروا قول جهم جعلوا الايمان خصلة من خصال الاسلام بطلان هذا القول وبيان تناقضه .

١١٨ احتجاج هؤلاء بقوله تعالى ( قالت الأعراب آمنا . . . ) وبيان انها حجة عليهم .

١٢٢ فصل ومما يدل من القرآن على أن الايمان المطلق مستلزم للأعمـــال قوله تعالى . . .

١٢٣ فصل اذا قيد الايمان فقرن بالاسلام أو بالعمل الصالح ، فانه قـــد يراد به ما في القلب باتفاق الناس ، وهل يراد به ايضاً المعطـــوف عليه ، ويكون من باب عطف الخاص على العام ، أو لايكون حـــين الاقتران داخلا في مسماه بل لازماً له ، أو لايكون بعضاً ولا لازماً ؟

١٢٣ عامة الأسماء يتغير مسماها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقـــتران كلفظ المعروف والمنكر والعبادة والطاعة والتقوى والبر . . . مـــن انفع الأمور في معرفة دلالة الألفاظ مطلقاً وخصوصاً الفاظ الكتـــاب والسنة ، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع العلماء . عبـــارات السلف في حد الايمان ومعناها .

١٣١ عطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي مغايـــره بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذى ذكر لهما .
لانجد أحداً يترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمـــل الا وقع في بدعـــة .

١٣٣ لفظ الأمر اذا اطلق تناول النهى .

١٣٦ لفظ الايمان اذا اطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقـــوى والـــدين فيتناول اعمال القلب والجوارح شواهد ذلك من القرآن .

الصفحة | الموضـــوع


١٤٠ دلالة اسم الايمان على تصديق القلب واعماله وعلى اعمال الجوارح كدلالة اسماء الله على ذاته وصفاته ودلالة اسماء القرآن واسمـاء النبى . . .

١٤٢ تفسير قوله تعالى ( والذين آمنوا اشد حباً لله ) .

١٤٣ خطأ قول جهم ومن اتبعه حيث ظنوا ان الايمان مجرد تصديق القلب وعلمـه .

١٤٤ غلط المرجئة في أصلين ظنهم أن الايمان مجرد تصديق وعلم فقـط ، وإن دل من حكم الشارع عليه بالكفر بخلو قلبه من التصديق و العلم .

١٤٧ سبب نزول قوله تعالى ( ياأيهـا الذين آمنـوا لاتتخـذوا اليهـود والنصارى أوليـاء ) .

١٤٨ المرجئة ثلاثة أصناف .

١٥٢ لما هاجر الرسول ﷺ صار الناس أصناف اما مؤمن وامـا مظهـر للكفر واما منافـق .

١٥٥ بيان خطأ ما ذهبت اليه الجهمية من أن ما فى القلب من الايمان ليس الا التصديق دون أعمال القلوب .

١٥٥ خطؤهم فى دعواهم أن الايمان الذى فى القلب يكون تامـاً كايمـان جبريل وأبى بكر بدون شىء من الأعمال والتحقيق إن ايمان القلـب التام يستلزم العمل الظاهـر .

١٥٧ بعض المرجئة يفرق بين اسم الايمان والدين وبعضهم لايفرق .

١٦٠ خلاف الفقهاء فى المنافقين الزنديق الذى يكتم زندقته هل يرث ويورث

١٦٤ جواز الصلاة على كل من لم يعلم أنه كافر فى الباطن ، وترك الامـام

الأعظم الصلاة على بعض العصاة والمتبدعة لايحرم الصلاة عليه ، الصحابة لم يكفروا الخوارج ، وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة من كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافراً فى البـاطن وان اخطأ فى التأويل ما كان خطؤه .

١٦٧ قول اللسان من الايمان الذى لانجاة للعبد الا به ، وتفسير قوله تعالى ( الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ) .

١٦٨ مناقشة قول القائل : اذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان ، فيلزم تكفير اهل الذنوب . . . وبيان أن الايمان اذا ذهب بعضه لايلزم منه ذهـاب كلـه .

١٧٠ تفاضل الايمان عند اهل السنة وعباراتهم فى ذلك

١٧٥ لفظ الايمان اكثر مايذكر فى القرآن مقيداً .

١٧٦ زيادة الايمان تعرف من وجوه .

١٨٠ فصل وقد اثبت الله فى القرآن اسلاماً بلا ايمان فى قوله ( وقـالت الأعراب آمنا . . . ) وكذا رسوله ﷺ فى قوله « أو مسلم » فهل هذا الاسلام الذى نفى الله عن أهله الايمان يثابون عليه أ . هو من جنس اسلام المنافقين ؟

١٨٢ من قال من السلف : ان الفساق خرجوا من الايمان الى الاسلام لم يرد انه لم يبق معهم من الايمان شىء الفرق بينهما عندهم .

١٩١ - مسالة الاستثناء فى الايمان والاسلام .

١٩٢ حكم من ترك الصلاة أو الزكاة او الصيام .

| الصفحة | الموضــوع |
|---|---|
| ١٩٢ | حقيقة الفرق بين الاسلام والايمان،وتفسير النبى لكل منهما وتفاضل الناس فيهما ، ومعنى الدين وخصال منه ، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم معه الايمان المجمــل . |
| ٢٠٣ | تفسير قوله تعالى ( ادخلوا فى السلم كافة ) . |
| ٢٠٩ | غلط من قال فى قوله تعالى ( قد كفرتم بعد أيمانكم ) ونحوها انهــم كفروا بلسانهم مع كفرهم أو لا بقلوبهم . |
| ٢٠٩ | تفسير قوله تعالى ( مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ) . |
| ٢١٢ | تفسير قوله تعالى ( والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة . . . ). |
| ٢١٢ | أسباب نفاق من نافق على عهد رسول الله ﷺ . |
| ٢١٨ | الألفاظ الموجودة فى القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها وما أريــد بها من جهة النبى ﷺ لم يحتج فى ذلك الى الاستدلال بأقوال اهــل اللغة ولا غيرهم . |
| ٢١٨ | ما تقوله الخوارج والمرجئة فى معنى الايمان والكفر مخالف لبيــان الرسول ﷺ . |
| ٢١٩ | اهل البدع أعرضوا عن بيان الرسول ، وبنوا دين الاسلام علــى |
| ٢٢٠ | مقدمات يظنون صحتها ، اما فى دلالة الألفاظ أو المعانى العقلية ... |
| ٢٢٠ | عمدة المرجئة فى أن الايمان هو التصديق قوله تعالى ( وما أنت بمؤمن لنا ) والجواب عنه . |
| ٢٢١ | بيان أن لفظ الايمان ليس مرادفاً للفظ التصديق . |
| ٢٢٦ | اكثر التنازع بين اهل السنة فى مسألة الايمان نزاع لفظى .... |
| ٢٢٧ | هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو انهــا |

| الصفحة | الموضـــوع |
| --- | --- |
| | باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة ، لكن الشـــارع زاد فى احكامها لا فى معنى الأسماء . . . |
| ٢٣٣ | من نفي عنه الرسول ﷺ اسم الايمان أو الاسلام فلا بد أن يكـــون ترك بعض الواجبات ، واكثر الصحابة والسلف يقولون : يجتمع فى العبد ايمان ونفاق . |
| ٢٣٥ | حكم من ترك الصلاة متعمداً حتي ذهب وقت الظهر الى المغـــرب ، والمغرب الى نصف الليل . |
| ٢٣٩ | فصل ومما يسأل عنه أنه اذا كان ما اوجبه الله من الأعمال الظاهرة اكثر من هذه الخمس ، فلماذا قال : الاسلام هو الخمس الظاهرة . |
| ٢٤١ | فصل قال محمد بن نصر : واستدلوا على أن الايمان هو ما ذكـــروه بالآيات التى تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعـــات ايمانـــا . . . . |
| ٢٧٠ | اسم المسلمين فى الظاهر يجرى على المنافقين لأنهم استسلوا ظاهراً واتوا بما اتوا به من الأعمال الظاهرة . . . |
| ٢٧٤ | أصل جامع تنبنى عليه معرفة النصوص ، ورد ما تنازع فيه النـــاس الى الكتاب والسنـــة . |
| ٢٧٩ | قول القائل : الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان . |
| ٢٨٠ | الرد على قول محمد بن نصر : ان الله سمى الايمان بما سمـــى بـــه الاسلام ، وسمى الاسلام بما سمى به الايمان . |
| ٢٨٣ | الناس فى الايمان والاسلام على ثـــلاث مراتب : ظالـــم لنفســـه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات . |

الصفحة　　　　الموضـــوع


٢٩٣　حقيقة مذهب قدماء القدرية انكار العلم السابق والكتابة السابقة .

٢٩٨　مذهب فقهاء أهل الحديث كأحمد وغيره قبول رواية المبتدعة ما لـم يكونوا دعـــاة .

٣٠٠　الامام أحمد أبصر بمقالات الناس من أبى ثور وغيره .

٣٠٠　كتاب السنة للخلال هو اجمع كتاب يذكر فيه أقوال الأمام احمـــد فى أصول الدين وفى الرد على طوائف المرجئة واحتجابه عليهم .

٣٠١　لفظ المجمل والمطلق والعام كان فى اصطلاح الأئمة كالشافعى واحمد وابى عبيد وغيرهم سواء .

٣١٠　قول الجهمية فى الرب وصفاته وكلامه والايمـــان بـــه مآلـــه الـــى تعطيل محض .

٣١٤　لايجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل امر فى الكتاب والسنـــة ويعرف معناه ويعلمـــه .

٣١٥　مقالات الناس فى الاسلام والايمان .

٣١٩　مسألة الاستثناء فى الايمان .

٣٢٢　الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به .

٣٢٣　قصة اختصام سعد وعبد بن زمعة .

٣٢٥　سبب امتناع الرسول ﷺ من عقوبة المنافقين .

٣٢٧　النفاق الذى كان يخافه السلف على نفوسهم .

٣٣٠　أقوال العلماء فى الاستثناء فى الايمان .

٣٣١　قول ابن كلاب ومن اتبعه فى الرضى والغضب ونحوهما من الصفات.

| الصفحة | الموضـــوع |
| --- | --- |
| ٣٣٤ | كثير من أهل الكلام فى كثير مما ييحمره لايكون عارفاً بحقيقـــة ديـــن الاسلام ، ولا ما جاءت به السنة ، ولا ما كان عليه السلف ، فيقـــع فى كلامه تناقص واضطراب وخطأ . |
| ٣٣٩ | الولاية والعداوة فى نظر الجمهور . |
| ٣٤١ | مسبب السبب لايكون الا بعده لاقبلـــه . |
| ٣٤٤ | تفسير قوله تعالى ( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلـــة ) وقولـــه تعالى ( لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ) . |
| ٣٥٣ | الاستثناء بالمشيئة يحل فى الخبر المحض،وفى الخبر الذى معه طلب . |

الناشر دار عمر بن الخطاب

٢ شارع عبد الخالق الطوخى

بولكلى - اسكندرية ت ٩٦٤٢٤١





